ألْوَان وَدُمُوع

الكاتب: باسم الشَّايب

@Bondok.Artworks

نوع العمل: رواية

اسم العمل: ياسمين

اسم المؤلف: باسم الشايب

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الأولى فبراير 2017

تصميم الغلاف: مروان محمد

تدقيق لغوى: الكاتب نفسه

تفضلوا بزيارة موقعنا حروف منثورة للنشر الإليكترونى من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://herufmansoura2011.wix.com/ebook

كما يمكنكم متابعتنا من خلال صفحتنا الرسمية على الفيس بوك من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://facebook.com/herufmansoura

كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم و مقترحاتكم على الإيميل التالى:

Herufmansoura2011@gmail.com

دار حروف منثورة هي دار نشر إلكترونية لخدمات النشر الالكتروني ولا تتحمل أي مسئولية اتجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده فقط وله حق استغلاله كيفما يشاء

ألوان ودموع

رواية

باسم الشايب

"مِنْكِ سَيِّدَتِي. مِنْكِ وَإليكِ."

مَلْعُونَة - قِصَّة

حملتها وَهناً, ووضعتها كُرهاً, بعد تضرُّعَات وصلاوات طِيلة الأشهر التِّسع, وضعتها هناء أنثى, وليستْ الأنثى في منزل عُرابي كالذكر, ما أن بُشِّر عُرابي بالأنثى, اِسودَّ وجـهه, لكنه لم يكْ كَظِيم. صاح في هناء والمولودة لا تزال على يديّ القابلة: "هذه سوئتُكِ وحدكِ, أنا لا أنجب إناث, هذه سوئتُكِ كشفها الله", ثُمَّ نظر إلى المولودة على يديّ القابلة بمزيجاً مِنَ الخوف والقيظ هامساً: "مَلْعُونَة". وخرج مِنْ باب الغرفة المُظلمة وظلَّ يَردِّد:

نَكَحَ الزَّمَــــــــــانُ ليلتي نَكحُ الدُّنا

فوُضعتْ لـــــي الأنثى ابنة زنى

يا ليتني ما هممتُ بها ولا عليها دخلتُ

يا ليتني أخرجته, يا ليتني أفسدتُ

نَكَحَ الزَّمَــــــــــانُ ليلتي نَكحُ الدُّنا

فَوُضِعَتْ لـــــي الأنثى ابنة زنى.

وَظلَّتْ المَلْعُونَة تُعامل في بيت عُرابي بأنَّها فعلاً مَلْعُونَة, ليس لها حق في رغداً مِنَ الحياة, أو في ملبس جديد, أو حتى في رؤية الشَّارع. قضتْ هناء نحبها وهي في فراش المخاض, بعدما أسمتْ ابنتها هناء, على اسْم والدتها, التي وضعتها قبل قضاء نحبها كذلك بنصف ساعة, قبل أن تسمِّي ابنتها أيضاً على اسْمُهَا. لِتكن المولودة هناء امتداداً لأمّها هناء وَلِجدتها هناء...

*

عاشتْ هناء في بيت أبيها عُرابي, جامدة, باردة, في منأى عن عيون الضُّيوف وَزُوَّارُ البيت, لا يكاد ناظرها أن يفرِّقها عن قطعة آثاث رثَّة أصابتها الرَّتامة في جانب مُعتم مِنَ البيت. ما أن بلغت الفتاة سن *مُناسب* للزواج, خمسة عشر سنة, شراها والدها إلى ثري مِنَ البندر. لم تعرف له هناء اسماً, ولم ترْ له وجهاً, ولم تسمع له صوتاً. كرهته. بكل رجفة حانقة في جسدها العليل, كرهته. جهَّز والدها جهازها,

وأعدَّ عُدَّتها. قبض مهرها. سنَّ سكينه وذبح بعيره, وذبحها بابتسامته.

كُبِّلت هناء في ليلتها بفستان فرحها, وَصُمَّتْ بضجيج الطَّرب, وكُفّتْ بأضواء مزغردة. رأته, مِنْ بين الحشود. زوجها ووليّ نعمتها الجديد, الثَّريُّ مِنَ البندر, على عكس ما توقَّعته تماماً, كان رجلاً غير كهلاً, في بدايات الثَّلاثينيَّات, يزيد أو يقلُّ بسنة أو شيئاً مِنَ السَّنة. لكن يظلُّ وليَّ نعمتها. دخل عليها تلك اللَّيلة, فحملتْ, وبدأ رُعبها مِنْ سَوْءة الأنثى يُطاردها مع بدايات حملها.

الزَّوج مُتَوَدِّداً إليها على استحياء: "لكِ أن تُريحي نفسكِ, ستجدين بيتي أكثر راحة مِنْ بيت عُرابي أبكِ. بالمناسبة, أتدرين أنَّ والدي- رحمه الله- كان يُدعي عُرابي؟ أنتِ في بيتكِ".

أجابته هناء: "لا. لم أكن على علم بذلك".

"إن شاء الله, سوف تجديني لكِ خير زوج, كذلك أمّي الحاجة, سترعاكِ كابنتها"

نظرتْ إليه, ويدور في رأسها ألف سؤال وقالتْ: "إن شاء الله".

(دخلت الحاجة, مرتدية عباءة سوداء, مِنْ باب بنيّ اللون, لا يكاد النَّاظر نحوها أن يرى لها ملامح وجه)

بادرتْ الحاجة قائلة: "ماذا, صبيَّتُنا خِصبة لهذه الدَّرجة بأن ينتبت زرعنا فيها مِنَ الأُسبوع الأوَّل؟"

قال الزَّوج: "صبيَّتُنا لها مِنَ الرَّغد ما ترغب, لها الرَّاحة التَّامة, والدِّعة والدَّلال إذا أرادت". ونظر إليها وقال: "أم خليفتي".

مرَّت الكلمة "خليفتي" كالأشواك بين ضلوع هناء, الرَّابضة في سريرها, فتذكَّرتْ على الفور سبقات أمّها وجدتها, تلك القِصَّة التي كان كل مَنْ في بيت عُرابي يقض بها روحها. فسقطتْ لِثوانٍ معدودة خارج الزَّمن, تستعرض أمام عينيها مصيرها الذي رُبط بمشيئة الله, وحقيقة قلوب البشر.

*

بعد مرور أشهر الحمل الأولى, كانتْ قد أنهتْ هناء فترات حملها الشّاقة, وبدأت الفترات الأكثر مشقَّة ووهناً. بشَّرَتها الحاجة قائلة: "إن حملكِ صعباً للغاية, حتماً ستضعينه ذكراً, فأنا أعرف هذا جيّداً". تمسّكتْ هناء بطرف حبل بال, وصدَّقتْ أقاويل تعلم جيِّداً أنَّها غير مؤكدة, لكن سودة خوفها كانت أصعب عليها مِنْ أن توزن الأمور بعقلانيَّة, فصدَّقَتْ.

وجائتْ القابلة إلى البيت, وجائتْ معها رياح الرُّعب التي عصفتْ بهناء, لم تخش هناء آلام الولادة, ولم تعرْ احتدام الطَّلق انتباهاً, أحاطتها وجوه الأشباح. كل الأشباح تتجمَّع في غُرفة ذات إضاءة خفيفة صفراء, تنبعث مِنْ لَمْبَة جاز زجاجيَّة سوداء. أنصاف وجوههم اليمنى تترقَّب بفرحة, واليسرى تترقَّب بشؤم, تُرى أيّ مِنَ الوجهين سوف يتلاشى؟ وأيُّهُما سوف يبقى؟ تسأل هناء نفسها هذا السُّؤال ألف مرَّة أثناء الوضع, لا تصرخ بسبب الألم, بل يُشق صدرها صُراخاً مِنَ المجهول, وممَّا تخشاه.

(صَمْتٌ)

شقَّ الصَّمتُ بُكاء بشريَّاً مُمتعاً, سألتْ الحاجة: "ذكراً؟ أَمْ مَلْعُونَة؟" طعنتْ الكلمة "مَلْعُونَة" التي خرجت مِنْ فم الحاجة قلب هناء, وأسرعتْ هناء سائلة بالدُمُوع: "هل هي مَلْعُونَة؟" قالتْ القابلة: "أعوذُ بالله مِنْ كل شرّ عظيم, لماذا تقولين هذا؟ حتى لو كانت أنثى, إنَّها رزق مِنْ عِند الله!"

انتزعتْ الحاجة البشريّ منْ يد القابلة بعنف, ونظرتْ إليه, ثُمَّ سارتْ نحو باب الغرفة بنيُّ اللَّون وقالتْ بصوتاً مرتفعاً: "اِضربْ نار يا ولدي". صاح المنزل كله بزغاريد وصيحات وضحكات وتهاني. وضعته هناء ذكراً. في الوقت ذاته, ارتمتْ هناء على ظهرها, وأخذتْ في الصُّراخ مِنْ جديد, مازال رزقاً آخراً في حشاها, الآن شعرتْ هناء بألم الوضع وشعرتْ به لأوَّل مرَّة.

قالتْ القابلة: "إنَّهما توأماً, ذكراً وأنثى".

(صَمْتٌ)

شقَّ صوت الأنثى الصَّمت, فلفتها القابلة في خِرقة بالية, ووضعتها بين يديّ هناء, التي تناولتها على استحياء. دخل الزَّوج إلى الغرفة, مُتلهفاً لرؤية ابنه, وقف بجانب الباب مع

أمّه ينظر إليه على يداها, وقال: "عُرابي... سوف أسمِّيه عُرابي, كما اسْم أبي".

نظرتْ الحاجة إليه قائلة: "وماذا ستُسمِّي أخته؟"

"ماذا؟ أخته!"

قالتْ الحاجة مستنكرة: "وضعتْ ذكراً وأنثى".

نظر إليها بذهول وقال: "فلتسميها هي, أليست ابنتها".

فقالتْ هناء بوهن: "هناء..." ونظرتْ إلى قطعة اللَّحم الدَّافئة على يداها وأتبعتْ: "سوف أسمِّيها هناء".

*

خرجتْ الحاجة, للحظة, ثُمَّ عادتْ وبيدها كوب مِنْ مشروب الصُّودا, أسود اللَّون, كانتْ قد قامتْ بتسخينه حَتَّى درجة الغليان, وتركته يبرد قبل حضور القابلة إلى المنزل. كانتْ قد أقسمتْ على أن تُسقيه إلى هناء إذا وضعتها أنثى.

"خذي, اِشربي هذا".

قالتْ هناء بوهنٍ, وابنتها على يداها: "حاضر". وتناولت الكوب.

لم تمرُّ إلا دَقَائِق معدودة, وقضتْ هناء الأمُّ نحبها. متأثِّرة بما تناولته. وتبعها ابنها مِنْ بعدها حُزناً عليها, وظلَّتْ هناء المولودة الجديدة حلقة مِنْ سلسلة, لا تدري إن كان لها نصيباً مِنْ اسْمُهَا سيحنُّ يوماً, أَمْ سيظلّ الشَّقاء نصيباها أبداً.

الفصل الأوَّل.

رؤى, وهذيان حلو المذاق.

نَهَضَ ليلاً عن سَرِيرَهُ الضَّيِّق للغاية. كانت لا تزال الثّالثة ليلاً. ضوء الغرفة المُنْعَزِلَة ضعيفاً وواهناً. بالكاد استطاع أن يُمَيِّز الأرضيَّة الصَّلبة, مالِحةُ المَذاق. اعتدل في جلسته, ثُمَّ ثُمَّ نهضَ مِنَ السَّرير. نظر حولهُ يميناً ويساراً, الغرفة ضَيِّقة للغاية, كما هي, ضَيِّقة وكئيبة وصامتة. استدار, وجعلَ وجهه موازياً للسرير, ثُمَّ جثا على ركبتيه, مُتخذاً وضع صلاة النَّصارى. قال بصوتاً هامساً: "باسْم الأب والأبن والـ..." لقد تذكَّر أنَّه مُسلم. نَهَضَ سريعاً: "أستغفر الله العظيم مِنْ كُل ذنباً عظيم". صَمْتٌ داخل وَحْشَةُ السُّكُون - - لقد تذكَّر أنَّه مُلْحِدٍ مِنَ الأساس. رَفَعَ وجهه نحو سقف الغرفة, المُضَهَّر بالإسفنج الطَّري والقماش السَّميك, بالضبط مثل حوائط الغرفة الضَّيِّقة المُنْعَزِلة برمتها. ثُمَّ ناجى الرَّبّ: "أيّها الرَّبُّ الذي لا أؤمن به, اِغفرْ لي فأنتَ مَنْ يغفر الذُّنوبِ". وأخرج موسي حِلاقة مِنْ تحت لِسَانَهِ, وقَطَعَ الشَّرَايين في معصم يده اليسرى على طول السَّاعد. وظلَّ يصرخ بشدة, حَتَّى استفاق جميع مَنْ في مَصَحَّةُ المجانين.

أُضِائت كُل أنوار المَصَحَّة, دبَّت الحركة والإثارة في عنبر النُّزلاء وفي طرقات وأَرْوِقَة المَصَحَّة. هُرِعَ عَمّ صابر وباقي

العامِلين هرولةً إلى غرفة العَزْل النَّفسيّ, أو "الحجز الانفراديّ" كما يَدعونها, حيث يصدر مِنْها صوت الصُّراخ. إنَّه أستاذ محمود العربي, في محاولته الشَّهريَّة الاعتياديَّة على الانتحار الفاشل. تقريباً كُل شهر يحصل أستاذ محمود على موسي حلاقة, لا يدري عُمَّال المَصَحَّة مِنْ أين يحصل عليه, ويحاول الانتحار, مرَّة بقطع بعمق ثلاث سنتيمترات في صدره, ومرَّة أخرى بجرح في فخذه, والمرَّة الأخيرة, حاول القطع مِنْ أسفل رقبته! تقريباً جسدهُ برمتهِ مُشوَّهاً بالجروح والقروح. عندما اقتحم العَمّ صابر وزملائه غرفة الحجز الانفراديّ, وجدوا أستاذ محمود واقفاً مُنتصباً في مُنتصف الغرفة. منتظراً إياهم, فحملوه على عجل وبانتظام, وهُم مُحَافِظين على رباط جأشهم, يسيرون بخطى سريعة ومنتظمة, تبدو عليهم, الجدِّيَّة, وليس الهلع, فهذا أمراً قد اعتادوا عليه, يحدث كل فترة. بعدما وضعوا أستاذ محمود على السَّرير المتحرِّك. أخرجوه سريعاً إلى غرفة عمليات متواضعة رثَّة, غرفة ضيِّقة, مبلّطة الأرضيَّة والحوائط بسيراميك أبيض, بكل بلاطة ثمانية مربعات ضيِّقة وبيضاء وملساء. مُخَصَّصَة لِمثل هذه الحالات الطارئة. أغلق عَمّ

صابر الباب خلفه. وذهب إليهم. كان راقداً على ظهره, ممدَّداً على سرير حديديّ أبيض وتظهر مِنْهُ بعض شوائب الصَّدأ. حاول العَمّ صابر أن يُوقِفُ النَّزيف سريعاً كإجراء طبيّ أوَّليّ. في تلك الأثناء كان أحد العاملين في المَصَحَّة يتصل هاتفياً مِنْ محموله الخاص, بالطَّبيب البشريّ أمجد, لِيُقِظهُ مِنَ النَّوم مفزوعاً. أمجد هو الطَّبيب البشريّ المُعَيَّن جديداً في المَصَحَّة, وقد حَصَلَ على شقَّة مفروشة بالقرب مِنَ المَصَحَّة, حَتَّى يكون قريباً مِنْ عمله. شاب سكندريّ, تستطيع استنشاق رآئحة مِلح البحر في شعره حالك السَّواد, بوجه أسمر وسيم, وقامة طويلة ممشوقة, ووجه طويل بملامح أصيلة تبعث على الثِّقة والطَّمئنينة, تُزيّنه سالفتين مُهذَّبتين زارهُما موسي الحَلاَّقُ فبديا ممشوقين. ترك الإسْكَنْدَرِيَّة منذ ثلاث أيام لِيعمل في مَصَحَّة للطب النَّفسيّ في القاهرة.

ما أن وصلَ أمجد إلى المَصَحَّة, دخل سريعاً إلى غرفة العمليات البائسة. وجد أستاذ محمود العربي جالساً مُنتصباً على السَّرير الحديديّ, ومِنْ حوله الممرِّضات وعُمَّال

المَصَحَّة, بملامح وجه مُتوتِّرة مُتهجمة. فاقتربَ مِنْ أستاذ محمود العربي وسأله عن حالته.

لم يُجبه.

فأجابه العَمّ صابر: "الحمد لله يا دكتور. لا يوجد أورد مقطوعة. إنَّه مُجَرَّد جرح سطحيّ".

نظر إليه أمجد نظرة ناكِصة وقال وهو يهز رأسه مُستعجباً: "جرح سطحيّ؟! هل أنتَ طبيب؟"

جذب عَمّ صابر كتفيه إلى أعلى: "لا أنا لستُ طبيباً. لكنه أمراً بديهياً, كما وأنَّني فحصتُ الجرح بدقة, ولا توجد أيّ دماء غامقة اللَّوْن, كدليل على قطع عروق أو شرايين. فقط دماء خفيفة فاتحة اللَّوْن".

نهره الطَّبيب الجديد أمجد قائلاً: "أنا هو الطَّبيب. أنا مَنْ يُقرِّر إن كان جرح سطحيَّاً أَمْ جرح غائراً".

نظر أمجد إلى معصم أستاذ محمود العربي, فوجده مربوطاً بشاشاً أبيضاً, ربطة بشعة, دليل ماديّ محسوس بأنَّ مَنْ ربطها ذو يد خشنة, لم يمتهن الطِّب أبداً. ففكَّ أمجد الرَّبطة, وفحص الجرح مِنْ جديد, وكان كلام العَمّ صابر صحيح

تماماً. إنَّه جرح سطحيّ, ولا وجود لِقطوع شرايين أو أثر لِدماء داكنة اللَّوْن. فقط بعض الدِّماء الفاتحة المخثرة, تشوبها قروح بيضاء ضاربة إلى الصُّفرة. فنظَّفَ أمجد الجرح. وطهره, ثُمَّ أعاد ربط المعصم مرَّة أخرى باهتمام ورصانة. فيما كان أستاذ محمود العربي جالساً مكانه في هدوء, وكأنَّه مُخدَّراً, لا يتكلَّم, وتقريباً بالكاد يتنفَّس. أنفاسه مُتقطِّعة. وشفتاه ترتعدان, ليس خوفاً, إنما ضعفاً نتج عن فقدان الكثير مِنَ الدِّماء. بعدما أنهى أمجد, خِدمته الطِّبية. نظر إلى أستاذ محمود العربي, بالضبط في عينيه, وسأله: "ما الذي دفعك لِفعل هذا؟"

عندها هَجَمَ صوتاً مِنْ خلف ظهر أمجد: "هل أصبحتَ طبيباً بشريَّاً ونَفسيِّاً الآن؟" فاستدار أمجد, لِيجد كاظم, الطَّبيب النَّفسيّ واقفاً عِند مدخل باب غرفة العمليات, لِيسده بجسده البدين القصير, ثُمَّ أتبع قائلاً: "هل تريد أن تتعدَّى على حقوقي المهنيَّة وأنا واقفاً. ألستَ طبيباً بشريَّاً؟! لمَ تريد أن تقوم بعملي واختصاصي". ثُمَّ ضحك ضحكة عالية فكشف عن أسنانه الصَّفراء.

أجابه أمجد: "أنتَ مَنْ تعدَّى على حدود اختصاصي أوَّلاً, أليستْ هذه هي غرفة العمليات التي لا يجب أن تدخلها أثناء وجودي فيها؟"

"حسناً أنا لم أدخلها, مازلتُ واقفاً عِند عتبة الباب".

أومأ أمجد برأسه. وقال بابتسامة: "لا يهم. لقد انتهيتُ. والآن هل يجب أن نُعيد النَّزيل إلى غرفة الحجز مرَّة أخرى؟ أَمْ نُعيده إلى عنبر النّزلاء؟"

دخل الدُّكتور النَّفسيّ إلى غرفة العمليات. نظر إلى معصم أستاذ محمود العربي. ثُمَّ نظر إلى الطَّبيب أمجد قائلاً: "ما هي الآداة التي استخدمها لِقطع يده؟"

"تقريباً موسي حلاقة أو رُبَّمَا قطع زجاج. أنا لا أدري بالضبط... لكن بالاستناد إلى زاوية وعمق الجرح أرجِّح أنَّه موسي حلاقة".

صاح الطَّبيب كاظم على العَمّ صابر, فجاء مُسرعاً. سأله ما إن كانوا وجدوا آداة حادة في غرفة الحبس الانفراديّ. فأخبره أنَّه أغلق باب الغرفة ثُمَّ خرجوا جميعاً بالنزيل إلى غرفة العمليَّات مباشرةً, ومِنْ ثُمَّ اتصلوا بالطَّبيب أمجد وبه.

فقال كاظم: "حسناً. أعيدوه إلى مكانه في العنبر. وسأذهب أنا والطَّبيب أمجد لِنفتِّش في غرفة الحبس الانفراديّ".

خرجوا جميعاً إلى الطُّرقة المُؤدِّيَة إلى العنبر, والتي تُؤدِّي في الوقت ذاته إلى غرفة الكهرباء ثُمَّ إلى غرفة الحجز الانفراديّ. في الطَّريق, تقريباً في منتصف الطُّرقة. بجانب باب غرفة النُّزلاء النَّائمون. وجدوا فتاة, وجهها متستراً بالظَّلام. واقفة أمام الباب, مُنتظرة في سُكُون. فانتبهوا إليها, في حيرة مِنْ أمرهم. قال كاظم وقد بدت الحيرة على ملامح وجهه: "ياسمين. كيف خرجتِ مِنْ غرفة النّزلاء؟ والباب مُوصداً؟"

لكنها لم ترد عليه. وظلَّت واقفة في مكانها جامدة مثل الصَّنم, تُرسل نظرات ثاقبة مُثبَّتة, لا يقطعها شيء, إلى عينيّ أستاذ محمود العربي الذي وضع عينيه في الأرض, مُتأملاً الخطوط المُغَبَّرَةً بين البلاط الذي دنَّسته الدِّماء المُتجلِّطة وآثار الأقدام عليها.

صرخ فيها العَمّ صابر: "آه يا شيطانة. أنتِ وجدتِ طريق للخروج مرَّة أخرى. هذه المرَّة سأضعكِ في غرفة الحجز".

وأمسكها مِنْ كتفها بعنف. فصرخ فيه أمجد, وجذبها مِنْ بين يداه الغليظتان, وأمره أن يفتح باب العنبر. حَتَّى يُدخلها مكانها. فنظر العَمّ إلى كاظم نظرة ارتياب, مُرتبكاً, فأمره كاظم أن يفتح الباب. ففتحه. أدخل الطَّبيب أمجد الفتاة ذو الخامسة والعشرون عاماً إلى العنبر وأدخل معها أستاذ محمود العربي إلى السَّرِير الفارِغ بجانبها. وأغلق الباب خلفها. ساروا مرَّة أخرى حَتَّى وصلوا إلى غرفة الحجز. فتح العَمّ صابر باب الغرفة الضَّيِّقة. وأنار المصباح في السَّقف المُرتفع, عن طريق زِرّ إضاءة خارج الغرفة. بحثوا عن الآداة التي استخدمها أستاذ محمود العربي لِقطع معصمه. لكنهم عبثاً, لم يجدوا شيئاً.

بعد ذلك, خرجوا جميعاً. وذهب كاظم إلى منزله, وذهب العَمّ صابر إلى غرفة نومه, وتبقَّى الطَّبيب أمجد بصحبة عُمَّال النَّظافة, وهُم أباً ويُدعى الحاج أحمد الأعرج ذو الخامسة والأربعين عاماً وابنه سعيد أحمد الأعرج ذو الثَّلاثون عاماً أو رُبَّمَا أقل هو نفسه لا يدري. توجَّه الطَّبيب أمجد إلى الحاج أحمد الأعرج بالسؤال: "كيف يمكن أن

نضع فتاة في عنبر الرِّجَال وحدها؟ كيف وافق هاني مطر على هذه المهزلة؟"

ضحك الحاج أحمد ضحكة سخرية وقال بصوتاً هامساً: "مهزلة! أنتَ لم ترْ شيء بعد. أنتَ لم تُكمل يومين هُنا, وتسمِّي هذا مهزلة؟ سوف ترى الفضائح فيما بعد".

تجعَّدت ملامح وجه الطَّبيب أمجد: "لقد وضعنها بجانب سرير مريض, نهض لِتوه مِنْ محاولة بائسة لِقتل نفسه! يمكن أن يقتلها؟ ألا يجب أن نُبلِّغ الشُّرطة على الأقل؟"

قال سعيد: "لا تخشى هذ يا بك, إنَّها ابنته وينام في السَّرير الموازي لها منذ أكثر مِنْ... منذ زمن, ولم يمسسها بسوء أبداً".

اتسعت حدقتيّ عينيّ الطَّبيب. واذدادت ملامح وجهه اندهاشاً فسأل بصوت رخيم هامساً كأنَّه يسأل نفسه: "ابنته!" ثُمَّ استدار لِينظر إلى سريرها مِنْ خلال النَّافذة المُطلة على الطُّرقة مِنْ جانب وعلى العنبر مِنَ الجانب الآخر. ثُمَّ استدارَ مرَّة أخرى إلى العاملين. فوجدهما يسيران

إلى غرفتهما لِيخلدا إلى النَّوم. فقرَّر العودة إلى شَقَّته مذهولاً.

سار في الطَّريق حَتَّى خرج مِنْ باب المَصَحَّة الرَّئيسيّ, قاطعاً حديقة صغيرة تؤدي إلى بوابة خشبيَّة أكلتها الرِّياح وعوامل الرِّطوبة. كانت البوابة مفتوحة. فعبر مِنْ خلالها إلى الشَّارع. وسار على جانب الطَّريق الإسفلتيّ, الذي غطته طبقة خفيفة مِنَ الغبار النَّاعِم. يركل الغبار بقدمه, لِتتخلَّله أشعة المصابيح المثبَّتة على أعمدة الكهرباء الصَّفراء, فتخلق غيوماً صغيرة مِنَ الغبار أصفر اللَّوْن.

حينها راودته رؤى كانت تطارده بين الحين والآخر, منذ ثلاث أيام. بالضبط بعد المرَّة الأولى التي دخل فيها المَصَحَّة, ورأى ياسمين النَّزيلة الشَّابة, التي يَكبر عنها بحوالي ثلاث سنوات. فتاة حَسْنَاءُ الشَّكل, كنِعاج الرَّمْل. يكتنفها الكثير مِنَ الغموض. فتاة وحيدة "*مختلَّة عقليَّاً*" تُقيم في عنبر الرِّجال, بمفردها. وازدادت حيرته اللَّيلة عندما عَرِفَ أنَّ أبيها هو ذاته الرَّجُل المجنون الذي حاول الانتحار منذ قليل. ظلَّ سائراً, مُنهمكاً في التَّفكير حَتَّى أنَّه قد تجاوز منزله بحوالي شارعين. فعاد إليه. وعندما وقف أمام العِمارة التي يسكن

فيها, لم يستطع الولوج أو الصُّعود إلى شَقَّته, دفعته إرادة غريبة ومُثيرة للدهشة في آن واحد لأن يستكمل ويستسلم للمضي قُدماً والسَّير حول الخمس أحياء- مراراً وتكراراً- في دائرة ليس لها بداية وَرُبَّمَا لن يجد لها نهاية. ظلَّ هكذا حَتَّى أعياه التَّعب, فعاد.

في الشَّقَّة. فتح نافذة. جلس على سريره. بدأ ضوء القمر يتسلل إلى غرفته التي يسكن فيها وحيداً. سيتنفَّس الصَّباح عمَّا قريب. استوى على سريره. راودته الرؤى مِنْ جديد لكن هذه المرَّة مصحوبةٍ بأحلامِ اليقظة وبنوع مِنَ الهذيان حلو المذاق: *تَخَيَّلَ أنَّه في منزل مُرِيح, تحديداً في المطبخ. جَالِسَاً على منضدة السّفرة. وياسمين, صاحبة الوجه الخمريّ, طويلة القامة بشعر أصفر داعبته أشعة الشَّمس فلمع كالذهب المضآء, واقفةً مِنْ خلفه, تمسّحِ له رقبته المُرْهَقة, وطَبَعَتْ قُبلة حارة عليها. عندها دخلت فتاة صغيرة حوالي أربع سنوات, نُسخة كربونيَّة مِنْ ياسمين, أسرعت إليه قائلة بصوت ملائكيّ ليس مِنْ عالَمنا: "بابي, بابي". فحملها ووضعها على رجله اليمنى. عندها طُرِقَ الباب. فالتفت إليه ياسمين, وسارت حَتَّى تفتحه. عندها زاد الطَّرق*

على الباب. ــ اِستيقظَ أمجد مِنْ هذيانه الحلو ــ وسَمِعَ صوت طرق عنيف على باب شَقَّته. نظر في السَّاعة إنَّها العاشرة صباحاً. قال إلى نفسه: "لقد تأخَّرتُ على العمل". فَطُرِقَ باب شَقَّته مرَّة أخرى بعنف. هَرَعَ مُسرعاً إلى باب الشَّقَّة. فوجد زميله الجديد كاظم, دكتور الأمراض النَّفسيَّة والعقليَّة. فقال إليه بنبرة اندهاش ووجه ممتعضاً: "كاظم؟!" وبدت على وجهه ملامح الدَّهشة, التي زارت وجهه أمس, وَرُبَّمَا ستستوطنه لِمُدَّة طويلة.

قال كاظم: "هل أنتَ بخير؟ ظننتُكَ انتحرتَ مثل المعتوه الذي أنقذتَ حياته أمس!"

تنفَّس أمجد بعمق: "لا. لم أنتحر... حَتَّى الآن. لماذا أنتَ هُنا على أيّ حال؟"

مال كاظم برأسه ناحية كتفه الأيمن, موسعاً حدقتيّ عيناه: "هاتفك المحمول مغلق. وقد تأخَّرتَ على عملكَ. وساورنا جميعاً الشَّك, بأنَّكَ هربتَ, أو أصابكَ مكره أو خِلاف ذلك".

"أهرب؟! ولماذا قد أهرب؟"

"لا شيء. فقط هاني مطر مدير المَصَحَّة يسأل عنك, يريد مِنْك تقريراً عن حالة الانتحار الفاشلة".

"مدير المَصَحَّة... حسناً, اسبقني, وأنا سأبدِّل ملابسي وأتبعك في الحال". ثُمَّ أغلق الباب خلفه.

نزل مِنْ شَقَّته. قاصداً المَصَحَّة.

الفصل الثَّاني.

7 نزلاءِ, تحت العجز

والزِّيادة.

فيما كان الحاج أحمد الأرعج يُنظِّف الحمَّامَات, الكائنة خارج المَصَحَّة. دخل أمجد إلى الحمَّام فوجده هُناك منهمكاً في عمله الشَّاق, والمُقزِّز في الوقت ذاته. فدخل بابتسامته اللطيفة, التي تدفع كُل مَنْ يراها أن يُجاريها بأخرى مثلها: "صباح الخير يا حاج أحمد". أجابه الحاج أحمد بابتسامة مثلها: "صباح الياسامين يا معالي البك". ضحك أمجد قائلاً: "مِن فضلك يا حاج أحمد. أريد أن أسألك عِدَّة أسئلة عن النَّزيلة ياسمين وأبوها أستاذ محمود العربي".

تمعَّض وجه الحاج أحمد, وما أن فتح فاه لِيتحدَّث, قاطعه هاني مطر مُدير المَصَحَّة قائلاً مِن خلف ظهر أمجد: "وماذا سيُفيدك عامل نظافة أيُّها الطَّبيب. إن أردتَ أن تعرف معلومات عن أيّ نزيل فسلني أنا. على الرَّغم مِن أنَّه ليس اختصاصك".

استدار أمجد بحذر, مُظهراً احترامه: "فقط أردتُ أن أعرف مَن هو حَتَّى أكتب لك التَّقرير مُفصلاً عن حالته".

"حالته النَّفسيَّة؟"

"لا. بالطبع لا. حالته الصِّحيَّة. أنا لستُ طبيباً نَفسيَّاً".

"جيّدٍ أنَّكَ تعرف هذا. لا تتدخَّل فيما لا يُعنيك أيَّها الطَّبيب. أنتَ تُشَخِّص الحالة مِن منظور طبيّ. وطبيَّاً فقط".

خرج هاني مِن الحمَّام. وخرج أمجد مِن خلفه. ذهب إلى غرفة الأطباء. وجلس يكتب تقريراً عن حالة الانتحار. أثناء كتابة التَّقرير, سَمِعَ صوت صراخ وهرج في نهاية الطُّرقة, خرج مُسرعاً, ووجد كاظم يعتدي جسديَّاً وبشكل مُوحِش للغاية على أحد النّزلاء, بالقرب مِن غرفة الحجز الانفراديّ. فذهب إليه مُسرعاً, حَتَّى يُقف هذه المهزلة الجديد. لكن صرخ فيه كاظم بألا يتدخل فيما لا يُعنيه. واحتدم النِّقاش بينهما, ووصل إلى حد الصُّراخ. عندما احتشد عُمَّال النَّظافة وأفراد الأمن وطاقم التَّمريض. لكن هذا الحشد لم يُوقف النِّقاش بل زاد شِقَاقهم زيدُ البعيد, بل- رويداً رويداً- زاده اشتعالاً, إلى حد الشِّجار. صرخ كاظم: "مالك ومال عملي. دعك عني, اِبقْ في شأنك واِصمتْ".

قال الطَّبيب أمجد: "إنَّها حقوق إنسان, أيُّها المُغَفَّل". عندها تمعَّض وجه كاظم, ولكمه بقبضة يده, لكمة كادت أن تَكسر له سناً.

جاء المدير مُسرعاً. وصرخ فيهما. وأبعدهما عن بعضهما البعض. سأل هاني: "مَن الذي بدأ الشِّجار؟"

فقال أمجد بشكل تلقائيّ: "أنا".

فسأله عن السَّبب.

أخبره أن كاظم يعتدي بالضرب على أحد النّزلاء. حينها كان النّزيل غالي سعيد غالي, واقفاً بابتسامة عريضة, ويسيل اللُّعَاب مِن فاه.

نظر المدير هاني مطر إلى كاظم وسأله: "لماذا تضربه مُجَدَّداً؟"

أجابه: "مازال يتذوَّق أرضيَّة السِّجن الانفراديّ ويلحسها مُجَدَّداً", ثُمَّ لَطَمَ النَّزيل غالي سعيد غالي على وجهه بقوة.

عندها استدار هاني إلى أمجد وقال: "هل رأيتَ؟ إنَّه يؤدي عمله, لا أكثر ولا أقل. أرجو أن تبقى في حدود صلاحيَّاتُك أيُّها الطَّبيب". ووضع يدهِ اليسرى على كتفه الأيمن وقال: "اذهب إلى مكتبك لِتنهي كتابة التّقرير".

استدار الطَّبيب أمجد وسار في الطُّرقة عائد إلى المكتب مهزوماً, متعمِّقاً النَّظر في الأرض. لكنه انتصب فجأة في منتصف الطُّرقة, عندما لمح ياسمين تنظر إليه بوجهها الجامد مِن خلال النَّافذة. نظر إليها لحوالي ثانيتين, قبل أن تستدير وترجع إلى سريرها مرَّة أخرى. أكمل أمجد طريقه إلى المكتب. فتح الباب. دخل وأغلق الباب خلفه برفق. ثُمَّ جلس على مكتبه. يحملق في الورق الذي لا يزال شبه فارغاً على مكتبه الحديديّ الصَّدأ. جسده يغلي غيظاً. وعروق يده تنتفض. أراد بشدة أن ينهض ويسير إلى كاظم لِيلكمه لكمة تُشفي غليله. لكنه طبيب, وهذه أمراً غريب عليه فعله. أمسك القلم, وبدأ في استكمال كتابة التّقرير. كتب كلمة واحدة, ثُمَّ ألقى القلم على المكتب الحديديّ. نهض منتصباً بزخم شديد, ذاهباً لِيلكم كاظم في وجهه. فتح باب المكتب فوجد ياسمين في وجهه. ارتعد وسقط على ظهره للخلف, قالت إليه: "لن تُفيدك العصبيَّة. ولن يشفي غليلك الانتقام".

قال إليها بصوت متقطع: "كيف... كيف خرجتِ مِن باب العنبر؟"

لم ترد عليه. أغلقت الباب وهو بالداخل. نهض سريعاً وفتح الباب, فوجدها تسير في الطُّرقة الفارغة, حَتَّى وصلت إلى باب العنبر المفتوح. دخلت. وأغلقت الباب خلفها.

عاد مرَّة أخرى إلى مكتبه الحديديّ. جلس يُفكِّر لأكثر مِن ساعة. نسى الوقت. حَتَّى دخل كاظم إلى المكتب. أغلق الباب خلفه. بملامح الاعتذار على وجهه, سار ببطء حَتَّى وصل إلى مكتب الطَّبيب أمجد, بلع ريقه, ثُمَّ وضع يده على كتف أمجد قائلاً: "حسناً. أنا لا أتوقع مِنكَ أن تفهم الآن. لكن بعد تسع سنوات مِن العمل مع المجانين, حينها, وحينها فقط, قد تغفر لي بسهولة. آسف على اللَّكمة يا صاح. فقط آمل أن تكون هذه هي المرَّة الأولى والأخيرة التي اضطرَّ فيها أن أسدِّد لك لكمة مثلها".

نهض أمجد عن مكتبه الحديديّ. سار حَتَّى اقتربَ مِن دولاب خشبيّ, بُنيّ اللَّوْن, لطمت شمس النَّافذة نصفه العلويّ, فقشطت طبقة الدِّهان مِن عليه, واستوطنته طبقات سميكة مِن الغبار النَّاعم. قال أمجد في هدوء: "لا. كلامك ليس صحيح بالمرَّة. بل هُناك طريقة أسهل مِن ذلك حَتَّى أغفر لك".

أجابه بضحكة صفراء: "طريقة أخرى؟ حسناً لقد اعتذرتُ إليك مُسبقاً. ألا يكفيك الاعتذار؟"

فتح أمجد الدّولاب الرَّث. ألقى نظرة سريعة على بعض الملفَّات الملوَّنة: "أريد مِنكَ خِدمة صغيرة. إن قضيتها لي, حتماً سأنسى أمر اللَّكمة. وأزيل مِن مُخيَّلتي فكرة أن أردها إليك عشرة لكمات".

استفتسر كاظم: "خِدمة! أيّ خِدمة تلك؟"

أغلق أمجد الدّولاب, ثُمَّ استدار إلى كاظم وقال مُصَرِّحَاً: "أريد ملف ياسمين. وَرُبَّمَا سأحتاج ملف أستاذ محمود أيضاً".

أوجس كاظم في نفسه خِيفة وقال: "النَّداهة ووالدها؟"

ضحك أمجد ضحكة قصيرة تُخفي خلفها تساؤلات وقال مُتعجِّباً: "نداهة؟" وجلس على مقعدهُ مرَّة أخرى. وما أن استعدَّ للاستفسار عن أمر النَّداهة تلك قاطعه كاظم: "علك تُريد ملف مدام عِصمت أيضاً؟"

سأل مُستفسراً: "مَن هي مدام عِصمت؟"

أجابه تلقائياً: "أمّها. وزوجة أستاذ محمود العربي".

اتسعت حدقتيّ عيناه. أبدت ملامح وجهه استجابة منفعلة مِن سماعه الخبر. اعتدل في جلسته واقترب بأذنيه إلى كاظم. وقال: "أب وأم وابنة في مَصَحَّة علاج نفسيّ؟ أسرة كاملة؟ لكن أين مدام عِصمت تلك؟ كاظم, عليك أن تُخـ" فُتح باب المكتب بانفعال دون طرق. اقتحم هاني المكتب مثبِّتاً نظرة على عينيّ أمجد وسأل في حِدَّة: "هل أنتهيتَ مِن كتابة التّقرير؟" نظر أمجد إلى الورق على مكتبه, مازال فارغاً تماماً إلا مِن كلمة واحدة, فقال في تردُّد: "بلى. عشر دقائق وسيكون على مكتبك يا رئيس".

نظر هاني إلى كاظم وقال بنبرة الأمر: "تعال. هُناك جلسة بعد قليل", وخرج مِن المكتب تاركاً الباب مفتوحاً.

نهض كاظم. وأخبر أمجد أنَّه سوف يُكمل حديثه معه بعد الجلسة. فاستفسر أمجد عن أيّ جلسة يتحدَّثان. أخبره أنَّها جلسة الكهرباء الأُسبوعيَّة لأستاذ محمود العربي. ثُمَّ نهض وأغلق الباب خلفه. تاركاً نيران الفضول تأكل الطَّبيب البشريّ الجالس علي مكتبه في شبه عتمة حالكة.

فتناول أمجد القلم. وطفق يصف الجرح الذي سبَّبه أستاذ محمود إلى نفسه, مِن حيث طول الجرح, وحجمه وعمقه, ونسبة الدِّماء التي فقدها. عندما بدأ يحسب نسبة الدِّماء, تذكَّر أن أستاذ محمود نفسه الذي كاد أن يموت أمس مِن قلة نسبة الدِّماء, ذاهباً في هذه اللَّحظة لِيحصل على صعقة كهربائيَّة. فنهض سريعاً مِن مكتبه ثُمَّ هرول إلى غرفة الكهرباء المجاورة إلى غرفة الحجر الانفراديّ, قاطعاً الطُّرقة الطويلة في خطوتين سريعتين جرياً. فوجد باب غرفة الكهرباء مفتوحاً, ويقف دكتور هاني عند باب الغرفة وتعلو وجه ملامح جامدة كأنَّ وجهه قطعة خشبيَّة منحوتة بأزميل. ذهب إليه وحاول عبثاً أن يشرح إليه أن حالة أستاذ محمود الصِّحيَّة تمنعه مِن تلقي صعقة كهربائيَّة قد تترك جسده خالياً مِن أيّ نبض. عندها خرج كاظم مِن داخل الغرفة ضاحكاً, وقال: "هذه ليست المرَّة الأولى التي يتلقى فيها الكهل صعقة كهربائيَّة بعد محاولة انتحار ونزيف. لا تخاف, إنَّه مثل البَقَّة التي تمسَّكت بالحياة, وتأبى أن تتركها". فأخبره هاني أن يعود إلى مكتبه لِينتهي مِن كتابة التَّقرير.

عاد أمجد ماشياً ببطء في الطُّرقة الطَّويلة, مهزوماً, بالضبط مثلما عاد منذ حوالي ساعتين. وقف قُبَيل النَّافذة المطلَّة على عنبر النّزلاء, لكن هذه المرَّة لم تكْ ياسمين واقفة لِتنتظر إليه. فأتبع سيراً نحو مكتبه. دلف إليه. أغلق الباب خلفه برويَّة المهزومين.

ما هي إلا لحظات بعد الشِّروع في كتابة التَّقرير. وإذا بصوت فتاة شابة تصرخ. إنَّها حتماً ياسمين. لا بُدَّ أنَّها تتلقَّى صدمة كهربائيَّة في غرفة الكهرباء. أكمل كتابة التَّقرير مُتجاهلاً صوت الصّراخ, الذي ظلَّ يدوي لحوالي خمسة دقائق. وبعد خمسة دقائق أخرى, كان قد أنهى أمجد كتابة تقريره. وبمُجَرَّد أن وضع القلم على المِنْضَدَة بجانب التَّقرير, دخل هاني المكتب مرَّة أخرى, سائلاً عنه, فنهض أمجد عن المكتب, وناوله ملف به ثلاث ورقات. بعدها دخل كاظم, وجلس على مكتبه المجاور لمكتب دكتور أمجد. أغلق أمجد باب الغرفة, وجلس بجوار كاظم وطلب مِنه أن يخبره أين مدام عِصمت تلك. فأخبره كاظم بجدِّيَّة أنَّه مشغول الآن بكتابة تقرير عن الجلسة الكهربائيَّة التي تلقاها أستاذ محمود, ثُمَّ سيذهب ليجهِز غرفة الكهرباء مرَّة أخرى, لأجل

ياسمين. فسأله أمجد مُتعجِّباً: "لكن ياسمين تلقت صدمتها الكهربائيَّة بالفعل منذ قليل بعدما تلقى والدها صدمته!"

ضحك كاظم ضحكته الخرقاء المعتادة: "لا. صدمتها غداً ليس اليوم. اليوم أستاذ محمود, وغداً ابنته. وبعد غد ميعاد الصَّدمة الكهربائية للدكتور عوض العارِف أو رجل المُستحيل". ثُمَّ أتبع ضحكاً, فأبدى بقايا الطَّعَام التي صبغت أسنانه بالأصفر.

قال أمجد: "لكنني سَمِعتُ ياسمين تصرخ منذ قليل".

ضحك كاظم مرَّة أخرى ضحكته الخرقاء: "بلى. عندما يتلقى أستاذ محمود صدمة كهربائيَّة, يكون صامتاً, في حين تصرخ ياسمين مِن أجله. وعندما تتلقَّى ياسمين صدمتها تصمت, في حين يصرخ أبيها الأستاذ محمود مِن أجلها. ولكن عندما يتلقى عوض صدمته, فهو يصرخ مِن أجل نفسه". وضحك ضحكته الخرقاء مُجَدَّداً.

سأل أمجد مستفسراً: "ومَن يكون عوض هذا؟"

أجابه كاظم: "عوض أشرف العارِف. لقد كان أستاذي في الجامعة. وكان صديق هاني مطر ونائبه في إدارة المَصَحَّة

أيضاً. لكنه فقد عقله هو الآخر. والآن اتركني حَتَّى أُكمل كتابة التَّقرير. هاني رجل صعب المراس, وقد يصعقنا نحن الأثنين على السَّرير الكهربائيّ إن لم أسلّم التَّقرير بعد نصف ساعة مِن الآن".

تركه أمجد وخرج إلى الطُّرقة. الضَّوء قويّ في الطُّرقة على عكس ضوء غرفة المكتب الباهت. أخذ بعض الثَّواني واقفاً في الطُّرقة أمام الباب الموصد مِن خلفه, حَتَّى اعتادت عينيه على ضوء المصابيح النِّيون السَّاطعة. كانت إحدى الممرِّضات تُحدِّق فيه على نحو مُفرط في الاهتمام. كانت الممرِّضة قصيرة القامة. ممتلئة بعض الشَّيء. خمريَّة اللون. وتُبدي اهتماماً واضحاً إلى الطَّبيب الشَّاب الذي سار عنها ولم يُبادلها نفس الاهتمام. ظلَّ أمجد يسير برويَّة حتى لمح سعيد عامل النَّظافة, مُمسكاً بمقشَّة بجانب النّافذة المُطلة على العنبر. ويختلس النّظر داخل الغرفة. سار نحوه ببطء. عندما انتبه سعيد إلى صوت الخطوات مِن خلفه, وضع نظره على الأرضيَّة وبدأ في اصطناع التَّنظيف. اقترب مِنه أمجد, وعندما لاحظ انفعالات جسده المتوتِّرة, سأله عمَّا يفعله بجانب نافذة عنبر النّزلاء. فأجابه متردِّداً, كأنما حاول

أن يُخفي سِرَّاً ما: "أنا لا أفعل شيء. لا. أنا أفعل, أنا أقوم بتنظيف أرضيَّة الطُّرقة".

نظر أمجد على أرضيَّة الطُّرقة أسفل أقدامهما. فوجدها نظيفة ولا تحتاج لهذا الكم مِن التَّنظيف. رفع رأسه مرَّة أخرى, ونظر بالضبط في عينيّ سعيد, وسأله عن مكان والده. فأخبره أنَّه بالخارج مع رجال أمن المَصَحَّة, يحاولون زرع شجرة ليمون جديدة, لأنَّ القديمة جَفَّتْ وذبلت, فاضطرَّوا إلى استبدالها. ثُمَّ سار عنه ودخل إلى غرفة العُمَّال, المُواجهة إلى العنبر. ظلَّ أمجد يتتبَّعه بعينيه إلى أن دخل الغرفة وأغلق الباب خلفه. فاستدار مرَّة أخرى إلى نافذة, فرتعد ونكص إلى الخلف خطوتين, مِن جراء الفزع. كان أحد النّزلاء واقفاً أمامه بالضبط. لا يفصل بينهما إلا القضبان الحَديدِيَّة للنافذة, كان نزيلاً أعور العين, بوحمة حمراء على وجنته اليمنى, ففُزع الطَّبيب أمجد عندما رآه قريباً للغاية مِنه, ووضع يده على قلبه, وهو يلهث أنفاسه كأنَّه كان في سباقاً للعدْو. عندما كان يستفيق أمجد مِن هذه الصَّدمة, وهو يستدير لِيذهب إلى حال سبيله, استوقفه صوت النّزيل الأعور وهو يقول بضحكات معتوهة متقطعة:

"سعيد كان يختلس النّظر على جسد ياسمين", واستدار لِينظر نحوها, فيما كانت نائمة على سريرها. فعاد أمجد مرَّة أخرى بالقرب مِن النَّافذة, ونظر بارتياب وحذر داخل العنبر. فوجدها نائمة فعلاً على سريرها, دون غِطاء. كانت بارعة الجمال حقاً, بجسد أنثوني فتَّاك. لكن ليس جسدها هو ما جذب انتباه أمجد, بل كان وجهها, وجه طويل, ومُستدير بعض الشَّيء. جفون ناعسة, وخدين أهيفين. حاجبين غير مهندبين لكنهما يتمتَّعان باستدارة مميَّزة, جعلت الطَّبيب الشَّاب يبتسم دون وعياً مِنه بذلك. استغرق أمجد دقائق طويلة في النَّظر إلى وجهها مِن بعيد. ولم ينتبه إلى باقي النّزلاء وهُم يهيمون كالأرواح في جميع أنحاء الغرفة الكبيرة. وكان العجيب في الأمر, أنَّهم يسيرون في جميع أنحاء الغرفة. ولا يقتربون مِن الفتاة النّاعسة أكثر مِن ثلاث أمتار على أقل تقدير!

اتسعت الابتسامة التي ارتسمت على وجه أمجد. ولمعت عيناه عندما تقلَّبت ياسمين في سريرها. في تلك اللَّحظة, شُتِّتَ انتباهه عندما وضع كاظم يده الغليظة السَّمينة على كتفه الأيمن, وكأنَّه يحتضن فتاة بغي. وقال إليه بصوتاً

هامساً: "أليست جامحة كالمُهر. انظر إلى ردفيها الممتلئيين. يا ليتني أستطيع أن أغوص في جسدها الممتلئ". فنظر إليه أمجد نظرة احتقار. وقال: "وما الذي يمنعك. يمكنك ضرب النّزلاء, ويمكنك صعقهم بالكهرباء متى شأتَ. ما الذي سيمنعك عن هذا؟"

أدار كاظم نظره نحوها وقال: "إنَّها نداهة. اسوطنها جن. ألا ترى, النّزلاء المجانيين خائفون مِنها ولا يقتربون إليها أبداً. إنَّها تخرج وتدخل إلى كل مكان متى أرادت ذلك, ولا نعرف كيف تفعل هذا! لكنها تمتلك جسد مثير للغاية مثل أمّها".

أسرعَ أمجد في القول: "أمّها؟ هل رأيتَ أمّها؟"

نظر كاظم إلى نهاية الطُّرقة مِن ناحية البوابة الرَّئيسيَّة. فوجد هاني واقفاً عند البوابة, يُشير إليه بيده حَتَّى يذهب إليه. فسار نحوه على وجه السُّرعة. فيما كان أمجد يتتبَّع كاظم بعينيه, لمح نفس الممرِّضة خمريَّة اللون تنظر إليه مُجَدَّداً, لكنه هذه المرَّة ظهر على وجهه بعض ملامح الحياء, فأدارت وجهها.

أدار أمجد نظره هو الآخر إلى ياسمين. فوجد أبيها يضع عليها الغِطاء, ثُمَّ نظر إلى أمجد بعينين حمراوين, وجسد هزيل شديد الانحناء. استحى أمجد النّظر, وأدار وجهه عنهما ناحية البوابة الرَّئيسيَّة, لم يرْ أيّ مِن كاظم أو هاني. فسار حَتَّى وصل إلى البوابة. ولمح عَمّ صابر جَالِسَاً على الأرض بالقرب مِن راكية شاي, وليس ببعيد عنه, يقف الحاج أحمد الأعرج منهمكاً في ربط شجرة عنب إلى عصا طويلة مغروسة في الأرض, واثنين مِن أفراد أمن المَصَحَّة يساعداه في نقل مُعدات الحفر, فسار حَتَّى ذهب إليهم رامياً السَّلام: "السَّلام عليكم".

رَدَّ الثَّلاثة التَّحية بأحسن مِنها.

سألهم عن حالهم وعمَّا يفعلوه. أجابه الحاج أحمد بأنَّهم بخير وأنَّهم قد انتهوا مِن زرع شجرة ليمون وشجرتين عنب. بعد ذلك أخبر الحاج أحمد فرديّ الأمن أن يذهبا إلى عملهما حَتَّى لا يلاحظ هاني غيابهما. فذهب أحدهم للوقوف عند بوابة المَصَحَّة الرَّئيسيَّة, والآخر وقف عند بوابة الحديقة التي أمام المَصَحَّة. عندها دعا العَمّ صابر كل مِن الحاج أحمد و أمجد حَتَّى يذهبا إليه, ويشربا معه الشَّاي.

فذهبا وجلسا معه. وشربوا جميعاً كوباً مِن الشّاي وتحدَّثوا مع بعضهم البعض, حديث مُثمر ذو طابع عابر. حَتَّى سأل أمجد في منتصف الحديث عن النّزيل الأعور ذو الوحمة الحمراء على وجنته اليمنى. فضحكا الأثنين حَتَّى امتلئ الجو كله بنوعاً مِن اللطف. وبعدما أخذا كفايتهما مِن الضَّحك, أخبراه أن اسمه "أحمد أحمد عبده الحيثي" ويدعونه الأعور, وأخبراه أنَّه كان مقاول كبير, سقطت على رأسه لبنة بناء, ففقد عقله. وألقاه أبنائه في المَصَحَّة منذ حوالي سنتين. والوحمة التي في وجهه ليست وحمة, بل أثار حريق. وقد أصابته أثناء إحدى جلسات الكهرباء. وحاول الطَّبيب راضي أن يُعالج موضع الحريق, فحوَّله إلى شبه وحمة. ثُمَّ توفى قبل أن يُنهي علاجها. وتعالت ضحكاتهما مرَّة أخرى.

سأل أمجد: "مَن هو الطَّبيب راضي؟"

أخبره الحاج أحمد: "إنّه الطَّبيب البشريّ الذي كان هُنا, قبل مجيئك, وقضى نحبه منذ حوالي شهر. بالضبط قبل أن تستلم أنتَ العمل في المَصَحَّة بحوالي سبعة وعشرون يوماً", ثُمَّ صَمَتَ الحاج أحمد وكأنَّه يتذكَّر أيامه مع راضي.

فقطع أمجد الصَّمت وسأل عن النّزيل المتبقي الذي لا يعرفه: "هُناك شاب يبلغ مِن العمر حوالي خمسة وعشرون عاماً رأيتُه في العنبر. ما اسمه؟"

عندما كان عَمّ صابر, يتعمَّق النَّظر في نار الرَّاكية وكأنَّه يتذكَّر شيء ما غامضاً قال الحاج أحمد: "هذا النّزيل السَّادس. أو على نحو أكثر صِحَّة النّزيل رقم واحد. اسمه رجب وهو لدينا هُنا منذ أن كان في التَّاسعة عشر مِن عمره, إنَّه الآن لديه... وثلاثون عاماً على ما أظنُّ".

فقال أمجد: "إذاً العدد هو سبعة نزلاء".

قال الحاج أحمد وهو يعد النّزلاء على أصابع يداه: "لا. بل ستة نزلاء. أستاذ محمود العربي, وياسمين ابنته, وغالي سعيد غالي, وأحمد الحيثي أو الأعور كما نُسميه. ورجب الصَّامت, و عوض العارِف".

أتبع أمجد قائلاً: "ومدام عِصمت والدة النّزيلة ياسمين".

عندها ساد الصَّمتُ المكان, وتوقَّفت الضِّحكات, وتبدَّل الملامح تماماً, وتقريباً تغيَّرت النِّفوس. وظلَّ الصَّمتُ سائداً للحظة حَتَّى قطعهُ عَمّ صابر وقال في انفعالاً واضحاً: "لقد

كانت مدام عِصمت نزيلة في المَصَحَّة... هُنا في هذه المَصَحَّة". وأشار بيده اليسرى إلى مبنى المَصَحَّة المكون مِن طابق واحد فقط, وأتبع بشيء مِن الأسى: "وقضت نحبها بسبب مرض السُّكريّ". ثُمَّ نظر إلى الحاج أحمد وقال في نبرة تنم عن الهيمنة: "هل ستجلس في مكانك اليوم بطوله! انهض واذهب إلى عملك". فابتسم الحاج أحمد ونهض سريعاً دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. أطفأ عَمّ صابر نار الرَّاكية, ساكباً عليها دلواً مِن الماء. وطلب مِن الطَّبيب الجديد أن يدخل لكي يُباشر عمله داخل المَصَحَّة. فنهض أمجد ودخل مبنى المَصَحَّة على مضض. لكن رغم انهماكه في العمل مِن جانب, ونوبات الهذيان القصيرة التي تزوره مِن وقتاً إلى آخر, إلا أنَّه لم يشأ أن ينسى مدام عِصمت بتلك السِّهولة.

الفصل الثَّالث.

هذيان مصحوباً بحنين, وغُربة

في أرضٍ بعيدة.

بعد مرور أُسبوعاً كاملاً على استلامه عمله الجديد. بدأ الطَّبيب البشريّ الشّاب في الشّعور بالغُربَة داخل شَقَّته القريبة مِن المَصَحَّة التي يعمل فيها. يقضي أمجد النَّهار بطوله في كِتابة التَّقارير, وفحص حالة النّزلاء الطِّبيَّة, ويتشاجر قليلاً مع كاظم. وفي الليل, وبالضبط بعد تناوله وجبة العشاء, تبدأ مشاعره تتخبَّط. وَيُصِيبه اضطراباً وحنيناً إلى أسرته في الإسْكَنْدَرِيَّة, بالطبع ناهيك عن الهذيان الحلو الذي يراه بين الحين والآخر.

جاء أمجد مِن محافظة الإسْكَنْدَرِيَّة, إلى القاهرة طلباً للعمل. تاركاً خلفه أمّه وأخيه الأصغر. يوجد لأمجد أخاً, مازال في الصَّف الثَّالث الثَّانويّ. وأمّه طاعنة بعض الشَّيء في السِّن, تُعاني مِن ضعف السَّمع والرُّوماتزم. توفى والده, الأستاذ أحمد الإسكندراني, المحامي بالنقض أمام عينيه. اضطرَّ أمجد أن يترك حياته الهادئة في الإسْكَنْدَرِيَّة, تنفيذاً لِرغبة والده, بأن يزاول مهنة الطِّب, وقد قادته الأقدار إلى مَصَحَّة للطب النَّفسيّ في العاصمة القاهرة. سافر بحثاً عن لقمة عيش. يقضي أمجد خمسة أيام مِن الأُسبوع في القاهرة. ويُسافر يوم الخميس عصراً إلى الإسْكَنْدَرِيَّة لِيقضي

ليلة الخميس ويوم الجمعة والسَّبت في الإسْكَنْدَرِيَّة, ثُمَّ يعود إلى القاهرة, إلى عمله, فجر يوم الأحد. لكنه قضى الأُسبوع الأول كاملاً في القاهرة. حَتَّى بدأ الأُسبوع الثَّاني.

في يوم الأثنين, مِن الأُسبوع الثَّاني, ذهب أمجد إلى المَصَحَّة باكراً. حَتَّى قبل أن يفتح عَمّ صابر البوابة. فوجد فرديّ الأمن جالسان على أريكة خشبيَّة, صنعاها مِن جزع شجرة مقطوعة في الحديقة. كانت لا تزال السَّاعة السَّادسة صباحاً. بين ذرات النَّدى للصباح الباكر, أخذ أمجد يسير بهدوء بين ممرَّات الحديقة التي تُحيط بمبنى المَصَحَّة. ولاحظ شجيرة ياسمين قصيرة, أشبعها نسيم الصَّباح, وداعبت قطرات الندى أزهارها فأضاءت زهور الياسمين فيها وحولها كالدرر البيضاء. بدت إليه الشُّجيرة كأنَّها ملكة مُتوَّجة وسط الحديقة, مفروشة بأشعابها, في إطار دائريّ كأنَّها الزَّرابيُّ المبثوثة. ثُمَّ فجأة. تجمَّد الدَّم في عروقه, عندما لمح النّزيلة ياسمين جالسةً على الأرض قريبة مِن الشُّجيرة وتتعمَّق فيها النّظر. وقف أمجد متجمِّد العضلات, فاغر الفم, ولا يدري إن كانت حرارة جسده مُرتفة للغاية, أَمْ أن هُناك برودة في ظهره, جعلت ظهره كأنَّه قطعة ثلج, تسيل

مِن عليها قطرات العرق. لكنه تدارك الموقف, وتمالك أعصابه, ثُمَّ استدار إلى الخلف عائداً مُسرعاً, إلى فرديّ الأمن. دهس أمجد إحدى أغصان الأشجار تحت قدمه وهو يجري, فانكسرت مُحدثة صوتاً مرتفعاً. لكنه لم يبال, وعاد إلى رجليّ الأمن, وأخبرهما أن النّزيلة ياسمين, خرجت مِن المَصَحَّة.

هرولوا جميعاً إلى الخلف. لكنهم لم يجدوا شيء. أقسم لهما أمجد أنَّه رأى النّزيلة ياسمين جالسةً على مقربة مِن شجيرة الياسمين. لكنهما حاولا عبثاً أن يُقنعاه أن لا أحد يخرج أو يدخل إلى المبنى بعدما يغلق العَمّ صابر البوابة الرَّئيسيَّة مِن الدَّاخل, ويغلقاها هُما أيضاً مرَّة أخرى مِن الخارج. حاول أمجد أن يهدِّأ مِن روع نفسه. وكأنَّما خشى أن يتَّهِمَاه بالجنون, أخبرهما أن عيناه رُبَّمَا قد خانتاه. وطلب مِنهما أن يعودا إلى البوابة مرَّة أخرى.

عندما عادوا إلى البوابة الرَّئيسيَّة. كان كل شيء في مكانه. قام أحدهما بصب كوباً مِن الشَّاي للطبيب الذي بدأ بالفعل في فقدان عقله. تناول أمجد كوب الشَّاي مِن يده وسأله عن اسمه فأجاب: "اسْمي إبراهيم. يُمكنك أن

تَدعوني هيمة". فقال إليه أمجد: "شكراً على الشَّاي يا هيمة". نظر إلى فرد الأمن الآخر وسأله: "أنتَ عادل إذاً. أليس كذلك؟!". هزَّ عادل رأسه مُجيباً بالإيجاب, وعلى وجهه ابتسامة سخرية, تُريد أن تنفجر إلى ضحكة: "بلى. اسْمي عادل".

تناول أمجد كوب الشَّاي بهدوء. وسرعان ما هدأ تماماً بعد الرَّشفتين أو الثَّلاث رشفات الأولى. وكأنَّ شيء لم يكن. ظلَّ أمجد يتحدَّث معهما نحو أكثر مِن ساعة. طال بينه وبينهما حديث السَّمر, حَتَّى عَرِفَ كل شيء عنهما وعن كل مَن في المَصَحَّة, بداية مِن النَّزيل رجب أقدم مَن دخل المَصَحَّة, وحَتَّى هاني مطر, مدير المَصَحَّة. وَعَرِفَ مِنهما أيضاً أنَّهُما تقريباً أطلقا كُنية على كل شخص هُنا. سأل أمجد: "مثل مَن؟" أجابه هيمة الذي كان ساذجاً بعض الشَّيء: "على سبيل المثال, دكتور كاظم الذي لكمك الأُسبوع الماضي. نَدعوه بذكر الفيل". ضحك أمجد بصوت عندما سَمِعَ الكُنية وسأل: "لماذا أسميتموه بذكر الفيل؟ لأنَّه سمين؟"

أجاب هيمة: "ليس لأنَّه سمين فقط. بل لأنَّ جلده سميك, مثل جلد الفيل".

انتهز أمجد فرصة سذاجة هيمة وسأله بعدما اصطنع ضحكة مُزيَّفة: "حسناً. وماذا تدعون ياسمين؟"

صَمَتَ هيمة للحظة. نظر إلى عادل, ثُمَّ تنفَّس عميقاً وقال وهو ينظر إلى نار راكية الشَّاي: "اسْمُهَا النَّداهة".

نظر أمجد إلى هيمة وسأله: "أنتَ مَن أسماها النَّداهة؟"

أجاب عادل بسرعة: "بالطبع لا. هي مَن أخبرتنا بهذا الاسْم. إنَّها لا تتحدَّث كثيراً, لكنها قالت لنا هذا منذ حوالي عاماً ونصف العام". خيَّم صَمْتٌ مُفاجيء. تلاشت أصوات الضِّحكات, وتبقَّى فقط صوت الرِّياح تَحِفُ في أطراف النَّخيل والأشجار. ثُمَّ أكمل عادل: "مِن بعدها ونرصد عليها تصرفات تُشبه فعلاً النَّداهة. مثلاً هي جميلة الوجه كالنَّداهة, وهي أيضاً تقوم بأمور عجيبـــ ـ "

قاطع عَمّ صابر حديثه مِن داخل مبنى المَصَحَّة, مِن خلف البوابة الرَّئيسيَّة الحَديدِيَّة, قائلاً: "افتح البوابة يا عادل. وكفى كلاماً فارغاً وهُراءً لا خير فيه ولا منفعة".

نهض عادل مُسرعاً لِيفتح البوابة مِن الخارج. بعدما فُتِحَتْ البوابة مِن الخارج. فتح عَمّ صابر البوابة مِن الدَّاخل أيضاً. وجذبها لِيفتحها على مصرعيها.

كان العَمّ صابر واقفاً على عتبة البوابة, مُرتدياً جلبابه القصير, وقال إلى أمجد: "لا تنصت إلى كلام هذاين المغفلين يا دكتور. أنتَ رجل مُتعلم ومؤمن بالله. لا يجب أبداً أن تنخدع في كلام غبيين, أهدرت أقراص الترمادول المخدِّرة مخيهما, مثل هذاين الخاسرين".

ضحك كل مِن عادل وهيمة وقالا إلى عَمّ صابر: "يا رجل دعنا نُخيفه قليلاً". فنهرهما عَمّ صابر, ثُمَّ تركهما وذهب إلى الحمَّام الكائن خارج مبنى المَصَحَّة. توجَّه أمجد إلى هيمة بالسؤال: "هل عَمّ صابر ذاهب لِيتوضأ, لِيُصَلِّي؟"

ضحك كل مِن هيمة وعادل: "لا عَمّ صابر, لا يُصَلِّي أبداً. إنَّه يرسم أمامك وجه التَّقوى والورع, لكنه يقضي ليالي ساخنة مع مدير المَصَحَّة ومع كاظم في أكبر كابريهات المدينة". ونهضا لِيدلفا إلى المَصَحَّة, فستوقفهما أمجد وسألهما: "إلى أين أنتما ذاهبين؟"

أجابه عادل: "إلى النوم. إننا نحرس المَصَحَّة طيلة الليل, وننام طيلة النهار, إلا في بعض الأحيان الطَّارئة نستكمل الحراسة بجزء مِن النَّهار أيضاً". ثُمَّ دخلا إلى غرفة نوم العُمَّال. وأنهضا كل مِن الحج أحمد وابنه سعيد, لِيناما مكانهم. حيث لا يوجد إلا سريرين فقط. يتناوبون عليهما جميعاً. بين فترة مسائيَّة وفترة صباحيَّة. حَتَّى هلكَ السَّريرين, وأصبحا مُرهِقين رثَّين, كأنَّهُما آداتين مِن أدوات تعذيب, تسربا مِن عصور محاكم التَّفتيش, إلى مَصَحَّة نفسيَّة فَقَدَ كل مَن فيها عقله.

خرج الحاج أحمد وابنه سعيد مِن الغرفة, يتخبطان في بعضهما البعض, كأنَّهُما كفيفين, حَتَّى خرجا إلى الحديقة, ووقفا بجانب أمجد. ذهب سعيد سريعاً إلى داخل المَصَحَّة, لِيجلب مقعد صغير الحجم, يجلس عليه أبيه, الذي أعيته الألتهابات في مفاصل قدمه اليسرى. بادر أمجد بالسؤال: "كيف حال قدمك اليوم يا حج أحمد؟"

أجابه الحاج أحمد عندما كان يُدَلِّك ركبته بيداه: "مثل كل يوم يا دكتور". وتأوَّه مِن شدة الألم. فأسرعَ الطَّبيب الشَّاب إلى قدمه لِيتفحصها. أبعد الحاج أحمد يداي الطَّبيب وأخبره

أن هذا ليس ضرورياً. إنَّها هكذا منذ أن أُصيب بها في حرب 1976. تُألمه عند النُّهوض مِن النَّوم, ثُمَّ يُنسى الألم بعد عشرة دقائق مباشرةً. نهض الحاج أحمد ودخل الحمَّام, بعدما خرج مِنه عَمّ صابر, تاركاً أمجد بمفرده في الحديقة. فدخل إلى غرفة الأطباء, وجلس على مكتبه.

كانت لا تزال السَّاعة الثّامنة صباحاً, ولا يزال الهدوء يسود المكان برمته, لكن بعد ساعة واحد فقط تحوَّل المكان إلى ما أشبه بسوقاً صاخباً. حضر الجميع, الممرِّضات والإداريين, الجميع في حركة سريعة. سأل أمجد عن هذه الحركة السَّريعة غير المؤلوفة. أخبره كاظم أنَّ اليوم هو الخامس عشر مِن الشَّهر. وهو اليوم المُحَدَّد للزيارة. يجب أن يكون المكان نظيفاً, ومنظَّماً, ويعج بالحيويَّة والنّشاط, لاستقبال الزُّوَّار. سأل أمجد مُجَدَّداً: "أيّ زُوَّار؟"

أجابه كاظم: "زُوَّارٌ مِن الجَمْعِيَّات الخيريَّة التي تموِّلنا. وَزُوَّار مِن جَمْعِيَّات حقوق الإنسان وبعض الأهالي القليلين للغاية. رُبَّمَا يأتون وَرُبَّمَا لا".

لذلك الأمر, كان اليوم برمته يوماً مُزيَّفاً. كان باب العنبر الخاص بالنزلاء مفتوحاً بصفة شبه دائماً. يمكن لأيّ شخص يرتدي بلطو أبيضاً أن يدخل ويخرج مِنه كما يشاء. هُناك وجوه لِعُمَّال يراها أمجد لأول مرة. كان اليوم يعج بالكذب, والابتسامات المُزيَّفة, والصَّفراء النَّاعِمَة. يوم كذب, مثل يوم كذبة إبريل, أو اليوم المفتوح عند هؤلاء الكاذبون الذين يكذبون حَتَّى على أنفسهم باتباعهم لِنظاماً غذائيَّاً. كاظم الذي كان يركل النّزلاء بالقدم في بطونهم, يداعبهم اليوم ويقبل رؤوسهم. هاني مطر, الذي كان كالمطر الغاضب بالفعل, الرَّجُل العبوس دائماً, إنَّه يبتسم اليوم بل ويضحك أيضاً بِتكلُّف. العَمّ صابر الذي كان يرتدي الجلباب, يرتدي اليوم ملابس عامل تنظيف. سعيد الذي لم يهتم أبداً أبداً بهندابه, وأحياناً يمكنك أن ترى بعض قطرات مِن مائه ظاهرة على بنطاله الوسخ, وبقع بقايا الطَّعَام تحتل قميصه, إنَّه يرتدي ملابس نظيفة اليوم.

لكن بالرغم مِن كل هذه السَّلبيات, إلا أن هُناك جانب آخر لكل شيء. إنَّه اليوم الوحيد الذي يستطيع فيه أمجد أن يتحدَّث مع النّزلاء بِحُرِّيَّة تامة. يستطيع أن يرتدي البلطو

الأبيض, ويدخل إلى العنبر الواسع. يجلس معهم, يتكلَّم معهم. حَتَّى أنَّه يُسمح إليه أن يأكل معهم, فهذا الشَّيء على الرَّغم مِن أنَّه غير مُصطنع, إلا أن أحد أفراد اللجان قد يراه, فيزيد مِن الأموال الكثيرة التي يعطوها إلى المدير الفاسد. لا يهم.

لم يشأ أمجد أن يُضيِّع وقتاً طويلاً. واستغل انشغال الجميع باستقبال اللجان, ودخل إلى غرفة النّزلاء. حاول الاقتراب مِن أيّ مِنهم, جميعهم يبتعدون عنه في خوف شديد. حاول الاقتراب مِن أستاذ محمود العربي, فابتعد إلى رُكْنَاً مِن أركان الغرفة الواسعة. حاول لمسه فبدأ على الفور بإصدار أصوات أنين مُتقطعة, لم يبال أمجد إلى هذه الأصوات, وحاول أن يُظهر نِيَّته للخير. ومدَّ يده مرَّة أخرى لكنه سحبها فجأة عندما سَمِعَ صوت فتاة تصرخ مِن بعيد: "لا تلمسه. اِبتعدْ عنه".

استدار. فوجد ياسمين واقفة على سريرها. وتنظر بقوة في عينيه. سار نحوها. كانت بعيدة عنه حوالي خمسة عشر متراً على الأقل. ظلَّ يسير نحوها, وكلما اقترب مِنها, كلما زاد أنين كل النّزلاء, حَتَّى أصبح على بعد حوالي خمسة

أمتار, لكنه تراجع عندما بدأ النّزلاء في الصُّراخ فعليّاً. وقف في مكانه ينظر إليها, وهي واقفة في مكانها كأنَّها جندي شجاع في جلد وصرامة. لكنها انهارت فجأة عندما قال إليها: "أنتِ تُشبهين أمّكِ كثيراً".

صَمْتٌ وَسُكُون شديدين.

تغيَّرت ملامح وجهها, وأصبحت أقل جموداً, نزلت على الأرضيَّة, حافية القدميين. سارت نحوه ببطء. نظر أمجد حوله, النّزلاء يراقبون في صمتاً تاماً. حَتَّى وصلت ياسمين إليه ووقفت أمامه بالضبط. تنظر في وجهه, كأنَّها تتأمَّل خطوط جبينه وزوايا وجنتيه وحُمرة شفتاه وبشرته السَّمراء بعض الشَّيء. لم يكْ هو أقل مِنها اهتماماً, كان هو الآخر يتفحَّص وجهها مِن قريب. ويحفظ كل تفصيلة ورسمتيّ ثغريها, ثُمَّ قال إليها تقريباً دون وعي: "إن رائحتكِ كرائحة الياسمين".

توجَّهت إليه بالسؤال: "هل تعرف أمّي؟"

أجابها: "لا. لقد رأيتُ صورتها فقط".

قالت إليه: "اخرج مِن هُنا ولا تعد". ثُمَّ استدارت مرَّة أخرى وذهبت إلى سريرها. فسار إليها ببطء, لكن النّزلاء بدأوا مرَّة أخرى في الصُّراخ كلما اقترب مِنها. فتراجع سريعاً قبل أن يعلو صوتهم أكثر. وعندما هَمَّ بالخروج مِن العنبر, رأى سعيد واقفاً في الطُّرقة ينظر إليه عبر النَّافذة. لكنه لم يبال به كثيراً, وخرج ذاهباً إلى مكتبه.

عندما دخل غرفة المكتب كان كاظم جالساً على مقعداً أمام مكتبه. دخل أمجد غرفة الأطباء, وأغلق الباب خلفه. وذهب إلى كاظم وسأله: "ألم تجد ملف مدام عِصمت بعد؟"

انغلقت الابتسامة البلهاء التي كانت على وجهه وقال: "لقد أخبرتك أن الملف مفقود. وليس لدينا سوى صورتها المُرفقة في الظَّرف فقط. وقد أعطيتها إليك. وإذا علم دكتور هاني بذلك, فنحن هالكان حتماً, وَرُبَّمَا يقيِّدنا, ويربطنا عاريين أمام سعيد لِيُفرِّغ طاقته الجنسيَّة المكبوتة فينا كلانا".

قال أمجد: "آه نعم. بالمناسبة, دائماً ما أرى سعيد واقفاً بجانب نافذة عبر النّزلاء, ما الذي يفعله هُناك؟"

نظر إليه وضحك: "يُنَفِّث عن رغباته المكبوتة. الفتاة مُهر يا دكتور. واحسرتاه أنَّها مُصابة بِمَسٍّ, لو لم يكُ هذا المَسُّ لكنتُ أصبتها أنا بِمَسِّي".

قال أمجد في باله باشمئزاز: "يالكُم مِن خنازير".

بعدما انقضى اليوم. عاد أمجد إلى شَقَّته بجانب المَصَحَّة. وأثناء عودته, راودته الرؤى مِن جديد, كان الهذيان حلو المذاق للغاية, لِدرجة أنَّه آثر الاستمتاع به: *تَخَيَّلَ أنَّه في منزل مُرِيح, تحديداً في المطبخ. جَالِسَاً على منضدة السُّفرة. وياسمين, صاحبة الوجه الخمريّ, طويلة القامة بشعر أصفر داعبته أشعة الشَّمس فلمع كالذهب المضآء, واقفة مِن خلفه, تمسّح له رقبته المُرْهَقة, وطَبَعَتْ قُبلة حارة عليها. عندها دخلت فتاة صغيرة حوالي أربع سنوات, نُسخة كربونيَّة مِن ياسمين, أسرعت إليه قائلة بصوت ملائكيّ ليس مِن عاَلمنا: "بابي, بابي". فحملها ووضعها على رجله اليمنى. عندها طُرِقَ الباب. فالتفت إليه ياسمين, وسارت حَتَّى تفتحه. خرجت مِن المطبخ وما هي إلا ثوانٍ, وسُمِعَ صوت صراخها عالياً.* ـــ إِستيقظَ أمجد مِن هذيانه الحلو ـــ فَسَمِعَ امرأة تصرخ في الشَّارع أمام منزله, وقد احتشد حولها النَّاس,

تصرخ وتقول أن شاباً بدراجة ناريَّة اختطفَ حقيبة يدها. استطاع أمجد أن يلمح الشَّاب على الدَّراجة يلوذ بالفرار مِن بعيد. لكنه مُرهَق للغاية. فآثر الصِّعود إلى شَقَّته حَتَّى يخلد إلى النَّوم.

عندما صعد أمجد إلى الشَّقَّة. وضع يده في جيبه لِيُخِرج مِفتاح الشَّقَّة. لم يجده, لقد تذكَّر أنَّه نساه في درج مكتبه. فنزل مرَّة أخرى عائداً إلى المَصَحَّة. وجد كل مِن عادل وهيمة في مكانهُما, سألاه عن سبب عودته. فأخبرهما الحقيقة. كانت البوابة الرَّئيسيَّة لا تزال مفتوحة. دخل سريعاً, كانت المَصَحَّة فارغة مِن أيّ حركة. عادل وهيمة في الخارج. الحاج أحمد وابنه سعيد نائمان. والعَمّ صابر ذهب لِيشتري عشاءً. ذهب كاظم برفقة هاني في سيَّارته. فدخل أمجد إلى غرفة الأطباء. فتح الدَّرج. أخذ مِفتاح الشَّقَّة وأغلق الدَّرج مرَّة أخرى. خرج مِن غرفة الأطباء, أغلق الباب خلفه كما كان. خطى خطوتين إلى الخارج, ثُمَّ توقَّف مُتصلِّباً عندما نادته النَّداهة.

استدار. الطُّرقة مُظلمة. سَمِعَ صوت ياسمين مرَّة أخرى: "أمجد". سار مسلوب الإرادة حَتَّى وصل إلى النَّافذة, المُطلّة

على عنبر النّزلاء. كانت واقفة هي الأخرى. وجهها شديد الجمال. لكنه أوجس في نفسه خِيفة, فنكص إلى الخلف خطوتين. سألته بصوتاً ناعماً كالحرير: "هل تخشى النَّداهة؟ أَمْ أنّك تخشى عدوى الجنون؟"

قال: "لا أفهم".

قالت: "إن كنتَ تخشى النَّداهة. فلا تخف, لقد نادتك النَّداهة بالفعل, وإن كنتُ أنا فعلاً نداهة لكنتَ في عِداد الأموات الآن".

سأل: "وما هي عدوى الجنون؟"

أجابت: "إن كنتَ تخشى أن تنقل مجنونة خرفاء مثلي عدوى الجنون إليك... عن طريقة عَطْسَة أو زفرة هواء, أو حَتَّى لمسة. فلا تخف. أنتَ طبيب وتعرف أن هذا غير علميّ إطلاقاً, رغم أنَّني لستُ مجنونة. لكن احتفظ بهذا السِّرُّ بيننا".

ابتسم أمجد وقال: "أنتِ مرحة للغاية, على عكس كُنيتك".

سألته في جدِّيَّة واهتمام: "هل حقاً رأيتَ صورة أمّي؟"

هَزَّ رأسه مُجيباً بالإيجاب.

قالت: "أرجوك دعني أراها. لقد تكسرت ضلوعي في لِحائي اشتياقاً إلي وجهها".

ضحك أمجد بصوت: "لحائُكِ؟! هل أنتِ شجرة حَتَّى تقولي لِحائي؟"

لكن سرعان ما اختفت البسمة التي ارتسم على وجهه عندما رأى الدُّمُوع تنهمر مِن عينيها. فأخبرها أن الصُّورة معه في شَقَّته. وسوف يجلبها إليها في الغد. لم ترد عليه, وسارت عنه حَتَّى سريرها, وظلّت تختنق عليه بالبُكاء. فاقترب برأسه إلى النّافذة, ونادى عليها: "ياسمين... ياسمين..." لكنه لا يملك قدرة النّداهة حَتَّى يدفعها للسير نحوه مسلوبة الإرادة. فوضع يده اليمنى على قضبان النَّافذة, ثُمَّ ارتعد فجأة عندما ظهر إليه النّزيل الأعور مُجَدَّداً ضاحاً وهو يقول: "الآن أنتَ مَن ينظر إلى ياسمين". ثُمَّ عاد إلى الظَّلام مرَّة أخرى.

خرج أمجد إلى الشّارع مرّة أخرى. وسار حَتَّى صعد إلى شَقَّته. فتح الشّقّة ودخل. تناول بعض الطَّعام. ثُمَّ جلس على

سريره, وظلَّ يُفكِّر في ياسمين وهو ممسكاً بصورة والدتها, والحقيقة أن شبهاً لم يكن بينها وبين صورة والدتها إطلاقاً, ثُمَّ أنَّه غاص في النَّوم.

في اليوم التَّالي, مرَّر أمجد إليها صورة أمّها في وجبة طعامها. وظلَّت ياسمين لا تتحرَّك مِن سريرها لِمُدَّة ليست بقليلة. تتعمَّق النّظر في صورة أمّها. ومع انقضاء يوم الخميس. وقف أمجد بجانب نافذة العنبر طويلاً, حَتَّى سارت إليه ياسمين. فأخبرها أنَّه سيعود إلى منزله حَتَّى يرى أمّه وأخيه الصَّغير. اكتفت ياسمين بابتسامة بريئة, ثُمَّ عادت إلى سريرها مرَّة أخرى.

حجز أمجد مقعداً في القِطار عائداً إلى الإسْكَنْدَرِيَّة. في الدَّرجة الأولى, جلس أمجد على المقعد المجاور للنافذة. في بداية الأمر, انشغلت عيناه بمشاهدة الأراضي الزِّراعيَّة, وأعمدة الكهرباء الخشبيَّة التي تمرُّ سريعاً إلى الخلف. بعد ذلك, شعر فجأة بإرهاق طفيف. أغمض عينيه وأصابه الهذيان الحلو مرَّة أخرى: *تَخَيَّلَ أنَّه في منزل مُرِيح, تحديداً في المطبخ. جَالِسَاً على منضدة السُّفرة. وياسمين, صاحبة الوجه الخمريِّ, طويلة القامة بشعر أصفر داعبته أشعة*

الشَّمس فلمع كالذهب المضآء, واقفة مِن خلفه, تمسِّج له رقبته المُرْهَقة, وطَبَعَتْ قُبلة حارة عليها. عندها دخلت فتاة صغيرة حوالي أربع سنوات, نُسخة كربونيَّة مِن ياسمين, أسرعت إليه قائلة بصوت ملائكيّ ليس مِن عالَمنا: "بابي, بابي". فحملها ووضعها على رجله اليمنى. عندها طُرِقَ الباب. فالتفت إليه ياسمين, وسارت حَتَّى تفتحه. خرجت مِن المطبخ وما هي إلا ثوانٍ, وسُمِعَ صوت صراخها عالياً. فنظر إلى ناحية قدوم صوتها, وضع ابنته على الأرضيَّة, وهَمَّ بالوقوف. ـ إستيقظَ أمجد مِن هذيانه الحلو ـ وإذا هزَّات القطار قويَّة.

الفصل الرَّابع.

كَابُوس, وَخِطوبة على غير مَوعِد

أو تخطيطاً مُسبقاً.

نزل أمجد مِن القِطار. اِسْتقلَّ إحدى عربات التِّرام المُتهالِكة, وبعدما تَرَجَّلَ مِن التِّرام, وخرج مِن المحطة, آثر السَّير على الأقدام, عائداً إلى منزله في منطقة المعمورة, التي لا تبعد عن المحطة كثيراً. إنَّها مسافة عشرة دقائق سيراً على الأقدام, لكن أمجد قطعها في حوالي ساعة كاملة. يُلقي فيها التَّحية على أصدقائه, وجيرانه في المحلات والشَّوارع, وعلى نواصي الطُّرقات. أعادت هذه السَّلامات الحميميَّة إليه بعض مِن نشاطه وحيويَّته. حَتَّى أنَّه زاد مِن وتيرة سرعته عندما لمح العمارة التي يسكن فيها مع أسرته مِن بعيد. ألقى التَّحية على عَمّ محمود البواب, وعلى هنية زوجته. ثُمَّ صعد سريعاً إلى الطَّابع الثّالث في العمارة رقم سبعة. وقف أمام الشَّقَّة للحظات, يسترجع بعض الذِّكريات السَّعيدة مع أبيه, ثُمَّ مسح على اللافتة المُعلّقة على إحدى قوائم باب الشَّقَّة السَّميك. مكتوباً على اللافتة "الأستاذ أحمد الإسكندراني المحامي بالنقد", وعليها طبقة خفيفة للغاية مِن الغبار, مسحها بيده العارية, ثُمَّ طرق الباب. ففُتح له سريعاً, بصرخة صبيانيَّة لطيفة ممزوجة بضحكة صافية مَرِحَة: "أمجد, كيف حالك يا درش". واحتضنا بعضهما

البعض. ثُمَّ دلف أمجد بابتسامته الرَّائعة إلى الشَّقَّة وأغلق الباب خلفه. صاح الفتى الشَّاب بصوتاً مرتفعاً: "يا ماما. يا ماما. لقد عاد درش يا منال, عاد درش يا أمّي". خرجت الأم الطَّاعنة في السِّن بعض الشَّيء مِن المطبخ, وعلى وجهها ملامح الفرحة التي تصرخ بالاشتياق, ثُمَّ تصلَّبت في مكانها عندما رأت ابنها الذي لم تراه واضحاً بعينيها المرهقتين, الابن الذي لم تسمع صوته منذ حوالي أُسبوعين كامليين, لكن أمجد لم يتردَّد لحظة, وهرول نحوها, وارتمى تحت قدميها, يُقَبِّل يداها, وجبينها.

بعد دقيقتين, مِن الأحضان الغامرة بالأشواق, والقبلات التي تُرطبها بعض الدُّمُوع, دُمُوعُ السَّعادة. استدار أمجد إلى أخيه وقال: "أخي إيهاب, كيف حالك يا أخي, تعال".

لكن إيهاب آثر البسمة مِن بعيد قائلاً: "يا رجل. أُسبوعين دون اتصال. ولا خبر. وهاتفك المحمول مغلق دائماً. كيف نسيتنا بهذه السُّرعة؟!"

أجلس أمجد والدته, وجلس بجوارها على أريكة قديمة مُريحة. نظر إلى أخيه وقال: "لقد فقدتُ شاحن هاتفي

المحمول. أظنَّه سُرِقَ مِني". وروى لهما عن كل شيء منذ اليوم الأول الذي وصل فيها, مروراً باللَّكمة التي تلقاها مِن كاظم وحَتَّى رائحة شجيرة الياسمين, إلى صرير حديد القطار ووقوفه منذ لحظات أمام باب الشَّقَّة. لكنه- بشكلاً أو بآخر- آثر أن سيتبعد ويُسقط بعض الأحداث بل والشَّخصيات أيضاً, مثل ياسمين والهذيان الحلو على سبيل المثال. وروى لهما كذلك عن استبساله في إنقاذ أستاذ أمجد الذي كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة, بعدما فقد الكثير والكثير مِن الدِّماء, وكيف استطاع بمهنيَّة وخبرة بالغتين أن يُقف النَّزيف وينقذ حياة الرَّجُل. حَتَّى كافأه هاني مطر مُدير المَصَحَّة, وأثنى على قدراته الطِّبيَّة المُذهلة. وأخبرهما أنَّه حصل على شقة مفروشة قريبة مِن المَصَحَّة التي يعمل فيها. وأنَّه حصل على أصدقاء طيِّبون وجيِّدون للغاية. وأخبرهُما أنَّ الجميع يُحِبُّه في عمله الجديد.

قالت إليه أمه: "لكنك تعيش بعيداً عنا يا أمجد, وأنت فلذة كبدي وأنيسي, ولا أستطيع أن أتحمَّل غيابك عني طويلاً, ولا أراك كل أُسبوعين إلا مرَّة". فأخبرها, أنَّه سيصل يوم

الخميس مِن كل أُسبوع ويرحل إلى عمله مع كل يوم أحد عند الصَّباح الباكر.

بعد أن تناولوا الطَّعَام جميعاً. وشبعت الأم مِن ابنها, وطفح كيل أمجد مِن أسئلة أخيه إيهاب التي لا تنتهي, خلدوا جميعاً إلى النَّوم. نهض أمجد ليلاً في السَّاعة الثّالثة صباحاً, مفزوعاً مِن كابوس, كان قد انقطع عن زيارة أحلامه منذ أن سافر, وها هو يعاود لِيُنغِّص عليه نومه الآن. كابوساً جاثماً, يُأرِّق نومه, ويُعْيي مقلتيه سهراً. كابوساً واحداً ثابتاً لا يتغيَّر, وتقريباً يراوده في السَّاعة نفسها, مِن كل ليلة ينام فيها على السَّرير الذي رقد عليه منذ فترة استهلال مراهقته. بدأ الكابوس يُطارده والجميع نيام, بعد مقتل والده أمام عينيه, ساقطاً على الأرض صريعاً بثلاث رصاصات, خرجت مِن مسدَّس ولداً مُلثَّماً, لم يستطع أمجد أن يرى وجهه, لكن الولد كان يبلغ مِن العمر حوالي ثمانية عشر عاماً. لاذَ بعدها بالفرار, وبيده اليسرى محفظة أستاذ أحمد الإسكندراني, وبيده اليمنى مسدَّس ساقية, وجرح على شكل مُثلَّث صغير في باطن ساعده الأيمن, سَبَبَهُ رَايِش خرج مع الرَّصاصات الثَّلاث.

ظلَّ أمجد باقي ليلته, يقظاً, ينفث دخان سجائره المحلِّيَّة. حَتَّى تنفَّس صباح الجمعة. نهض وحصل على حمَّاماً مُنعشاً. ارتدى عبائته البيضاء, وذهب هو وأخيه لِصلاة الجمعة في المسجد القريب مِن بيتهما.

عندما عادا, تناولا مع والدتهما وجبة الفطور, ثُمَّ أخبرته أمّه أن حُسين ابن عمِّه يُريد أن يبيع سيَّارته الأكسنت الصَّغيرة, حَتَّى يشتري بدلاً مِنها أخرى حديثة. وأخبرته أنَّها تُريد أن تبتاعها وتُهديها إليه. قال إليها: "وماذا سأفعل بها يا أمّي؟"

قالت وهي تجذب كتفيها إلى أعلى: "تذهب بها إلى عملك, بدلاً مِن عذاب القِطار, وازدحام ركاب التِّرام".

هزَّ أمجد رأسه, مُعجباً بحديثها. وأخبرها, أنَّه معه عشرون ألف جنيه, لا أكثر ولا أقل. فأخبرته أن ابن عمِّه طالباً, خمسة وعشرون. وأنَّها مُستعدة أن تدفع ثمنها بالكامل. لكن أمجد رفض, وآثر أن يدفع هو عشرة آلاف, ودفعت أمّه خمسة عشر. وبالفعل لم يمر يوم الجمعة, وأبرم أمجد اتفاقاً مع ابن عمِّه لِشراء السَّيَّارة, ودفع إليه خمسة

عشر ألفاً, ثُمَّ فع إليه العشرة آلاف في صباح اليوم التَّالي. كانت صفقة سريعة, وجيِّدة لكلاهما. حُسين هو ابن عم أمجد. بالرغم مِن سنهما المُتقارب وصلة القرابة المتينة إلا أنَّهُما كالأغراب, والحديث بينهما كان دائماً على سبيل القرابة والمجاملة ليس إلا.

وما أن استلم أمجد مفاتيح السَّيَّارة, أخبرته أمّه أنَّها تريده يذهب معها لِقضاء زيارة مهمة إلى أختها. وذهبا بالسيَّارة فعلاً عصر يوم السَّبت.

فتحت هند الباب. فوجدت خالتها أبلة منال, وابن خالتها أمجد واقفان أمامها. استقبلتهما أحسن استقبال, وأدخلتهما إلى الشَّقَّة, وتناول أمجد الطَّعَام وأمه مع خالته ميار وابنة خالته هند, التي أينعت كالزهرة في بُستان الحسن. وأثناء جلبها صينيَّة الشَّاي قالت أبلة منال إليها عندما كانت تضع الصِّينيَّة على منضدة أنيقة: "قدِّمي الشَّاي إلى خطيبكِ". وضحكت ضحكة تأكيد.

بالطبع, أصاب الفتاة الشَّابة بعض التوَّتُّر الممزوج بالحياء, فوقفت متصلِّبة القامة, لكن أذابت أمّها جليدُها,

وقالت: "قدِّمي الشَّاي إلى ابن خالتكِ يا حبيبتي". فتناولت كوب شاي على نحو مفرط في التَّوتُّر, وقدَّمته إلى أمجد على استحياء. فتناوله, مصدوماً, فاغراً الفم, مُتجمِّد الأعصاب. هربت مِن جسده أيّ رجفة تدل على أنَّه مازال في عالَم الأحياء. صدمته أمّه بكوعها سريعاً, فانتبه إلى ابنة خالته الحسناء, وقال: "ممم نعم. نعم, شكراً, تسلم يدكِ, نعم تسلم". فابتسمت هند ابتسامة رقيقة مُهذَّبة, وأسرعت في الدِّخول إلى غرفتها. فضحكت أبلة منال وأختها. وقالتا بنبرتهما الخبيثة, وشهقة نساء الحواريّ والعشوائيات: "مُحن بنات".

عندما عادا إلى شَقَّتهما في المعمورة. وَبِمُجَرَّد دخولهما الشَّقَّة, بدأ شجارهما المُعتاد. الأم تريد أن ترى أبناء ابنها قبل أن تقضي نحبها, والأبن لا يرغب في الارتباط. اتخذ أمجد موقفاً دفاعيَّاً لِيكون موقع قوة يهجم مِنه على إرادة أمه, ثُمَّ قال مبرراً غضبه: "أتريدين أن أتزوج فتاة, أمّها تُدعى ميار؟"

قالت أمّه إليه في جدِّيَّة تامة: "أنا لا أدري ما الذي لا يعجبك في هند ابنة خالتُك! إنَّها جميلة ومُتعلِّمة, وعمرها

قريب مِن عمرك, وهي ابنة خالتُك قبل أيّ شيء أيّها المُغفَّل الغرير".

أجابها بعصبيَّة: "يا أمّي أنا لا أرفض هند, ولا أرفض أيّ فتاة أخرى. لكني أرفض الارتباط الآن, مازلتُ لم أجد الفتاة المُناسبة بعد. ناهيكِ عن طريقتكِ في خداعي هكذا. وكأني طفل صغير". ثُمَّ ضرب بيده على سفرة الطَّعَام وأتبع: "وكأنَّني خروفاً, تسحبيه خلفكِ وهو لا يدري في أيّ ترعة سوف تلقيه فيها".

صرخت فيه مدام منال معترضة على أسلوبه الغامض, الذي لا يُفهم مِنه أيّ شيء. وأخبرته في محاولة مِنها لِتوعيته إلى مكان وقوفه في منتصف الحياة: "أنتَ طبيب بشريّ محترم, تعمل في مَصَحَّة وتكسب جيِّداً, لديك شقتك ولديك سيارتُك. لقد شارفتَ على السَّادسة أو السَّابعة والعشرون مِن عمرك, ولم أرك تتحدَّث في هاتفك المحمول مع فتاة, أو أعرف أنّك تُبادل فتاة أيّ مشاعر, ما خطبك يا ابني, أريد أن أطمئن عليك, وأرى أولادك قبل مماتي". ثُمَّ بدأت عيناه تدمعان, وأصابها دوار طفيف, فجلست على مقعد السُّفرة الخشبيَّة. سار أمجد نحوها, ووضع يده على كتفها,

وقال: "إن كان هذا ما تريدنه يا أمّي. فاخبري أختكِ أننا قادمون الأُسبوعِ القادم لِخطبة هند. تهلّل وجه الأم المُسِنَّة, وكأنَّها شربت حَسَاءُ الطَّاقة, نهضت بزخمٍ, وهرولت بقوة إلى حقيبة يدها. فتحتها وأخرجت هاتفها المحمول, وبشَّرت أختها بالخبر السَّار.

نظر إليها أمجد مُتَحَيِّراً, وهي تُهَرّول في الشَّقَّة, كأنَّها طِفلة لَعُوبَة, بكامل صحتها, دون رجفات, ولا خشونة ركبة, ولا حَتَّى كلل وملل. وقف أمجد فاغراً الفم. كالمهتوه الذي تم الإيقاع به في الفخ بمنتهى السِّهولة. يتتبَّعها بوجهه وهي تذهب يميناً ويساراً مُنهمكةً في الحديث مع أختها. حَتَّى قطع أخيه وَحْشَة التِّيه التي وقع في غياباته, وخبطه على كتفه, مبارِكاً إليه على الخطوبة. وبعد لحظات معدودة مِن الصَّدمة, استفاق أمجد مِن غيبوبته, وتدارك أنفاسه وجعلها تخرج في تنظيم. بلع ريقه بِغُصَّة, وشرع في الحديث مع أخيه, لِيشرح إليه الأمر, فقاطعته أمّه بزغاريد, زغاريد, زغاريد مُتواصلة. وما هي إلا ثوانٍ معدودة كأنما اِنتظرَ جيرانه خلف باب الشَّقَّة, حَتَّى يستمعوا بحرص إلى الإشارة المُتفق عليها للاقتحام. ما أن زغردت الأم منال بقوة لم يعرفها بها أمجد

أبداً, بدأت دقدقات الطَّرق على باب الشَّقَّة, ويزداد بمعدل طرقتين كل ثانية واحدة. العِمارة رقم سبعة برمتها, بكل أفراد سكانها, يطرقون على باب شقَّة أستاذ أحمد الإسكندراني المحامي. جرى إيهاب نحو الباب, وفتحه بابتسامة عريضة بلهاء, مُعلناً أمام الحشد الكبير مِن الأصدقاء والجيران: "لقد خَطَبَ أخي أمجد". فاندفع الحشد إلى داخل الشَّقَّة, دافعين إيهاب في طريقهم, لِيخبط في أخيه المذهول مِن هول الصَّدمات المُتتالية. لقد قبَّله الجميع على وجنتيه... قُبلتين. قبلة واحدة على كل وجنة. وهُناك امرأة قبَّلته أربع قُبلات, قُبلتين على كل وجنة. أصبح وجهه برمته رطباً مِن لعاب الحشد, رجال وإناث ومُطلقات, وَرُبَّمَا أرامل. الكل يأخذ نصيبه مِن قبلات وأحضان, ومباركات وتهانٍ. استسلم أمجد, ورضا مُرغَماً بالأمر الواقع. أو رُبَّمَا الأمر الواقع هو الذي رضا بهذه الغبطة المُجعَّدة على وجه الطَّبيب الشَّاب. لكن ما لفت انتباه أمجد مِن بين الجميع هو حُسين ابن عمِّه الذي بارك إليه بوجه أضناه الغضب وجعَّدته عَضَّات الأسى! ثُمَّ خرج سريعاً مِن الشَّقَّة.

سأل أمجد أخيه إيهاب مِن بين الجموع, بصوت منخفض: "ما بال حُسين ابن عمَّك؟ تبدو على وجهه ملامح الحزن وكأنِّي سأتزوَّج أمّه حاشا لله؟!"

قال إيهاب: "ظننتَك تعرف؟! حُسين يُحِبُّ هند ابنة خالتنا. لا يهمك. ألف مبروك أيُّها الطَّبيب والعاقبة عندي إن شاء المولى".

تقريباً هذه هي المرَّة الأولى التي يدخل فيها الفرح إلى بيت أستاذ أحمد الإسكندراني بعد موته. وقد دخل الفرح بقوة عارمة. قوة اقتحمت المنزل, وزيَّنت قلب الأم الأرملة, فاستعادت حيويَّتها ورونقها. لم يشأ أمجد أن ينتزع هذه الفرحة مِن قلب أمه. لا يريد أن يكون أنانيَّاً, فوافق على ابنة خالته, لا سِيَّمَا أنَّها جميلة وشابة وذكيَّة وتتمتَّع بردفان حسنوان, كان أمجد يتتبَّعهما بعينيه عندما تبتعد الأنظار مِن عليه.

في الليل. جلس أمجد في سريره, يُحاول جاهداً أن يرسم في مخيِّلته حياته الجديدة مع خطيبته التي هطلت عليه مِن

السَّماء, كالمطر, ثُمَّ قال إلى نفسه: "هطلت عليَّ كالمطر, وَرُبَّمَا هطلت كالملاك المنقذ, مَن يعلم؟!"

وأثناء انهماكه في التَّفكير. هزمه الإرهاق, حيث سريره الدَّافئ, ولحافه الكبير والنَّاصع, والنَّظيف للغاية. فنام. مرَّت عِدَّة ساعات بدت كأنَّها لحظات معدودة, ثُمَّ استفاق مفزوعاً على كابوسه اليوميّ. نظر إلى ساعة يده, التي كانت على كومدينو صغير بالقرب مِن سريره, إنَّها الثّالثة فجراً, كما هو مُعتاد. نهض مِن سريره. أخيه نائماً على السَّرير الآخر بجانبه. فجلس بهدوء حَتَّى لا يقلق نومه. سَمِعَ صوتاً في الصَّالة. فخرج مِن الغرفة, ووجد أمّه جالسة في الصَّالة تُصلِّي وتدعي ربها أن يحفظ ولديها بالسعادة والخير. فجلس بجوارها, وقبَّل يداها. وأخبرها أنَّه سوف يسافر بعد ساعتين, حَتَّى يصل إلى المَصَحَّة دون تأخير. في البداية كانت الأرملة تُمانع هذا. لكن مع ضغط أمجد وإلحاحه على الذَّهاب إلى عمله, لأنَّه لا يريد أن يخسر مكانته وصورته المنضبطة أمام المدير, وافقت.

بالفعل بعد ساعتين, كان قد ودَّعَ أمجد أمّه وأخيه الأصغر, وأخبره أن يهتم بدروسه حَتَّى يكون طبيباً مثلما أراد له أبيه.

ثُمَّ قبَّل يد أمه, وخرج مِن باب الشَّقَّة. فصاح إيهاب: "أمجد. أمجد". عاد أمجد مرَّة أخرى إلى الشَّقَّة, مُستفسراً. أشار إليه إيهاب أن ينتظر لحظة, دخل إلى غرفة النّوم, ثُمَّ خرج وهو ممسكاً بشاحن الهاتف. وأعطاه إلى أمجد. ضحك أمجد لأنَّه وضع الشَّاحن في الليل بجانب حقيبته حَتَّى لا ينساه. ثُمَّ شكر أخيه. ونزل إلى طريقه.

الشَّارع فارغاً تماما مِن أيّ حركة. كأنَّه مقتول. خطى عِدَّة خطوات حَتَّى وصل إلى نهاية الشَّارع. ثُمَّ تذكَّر أنَّه نسى سيَّارته الجديدة. عادة إليها مرَّة أخرى أمام العمارة رقم سبعة. دلف إلى السَّيَّارة, وبعد حوالي خمس دقائق مِن تهيئة المطور, انطلق في طريقة إلى المَصَحَّة. ووصل إليها بعد حوالي ثلاث ساعة سفر بهدوء ورصانة. ركن السَّيَّارة بالقرب مِن المَصَحَّة, خارج أسوار الحديقة. ثُمَّ تَرَجَّلَ مِنها. وسار إلى داخل الحديقة. فوجد عادل وهيمة يتحدَّثان بانفعال بالقرب مِن راكية الشَّاي, ويتشاجران بالكلمات والجِدال.

الفصل الخامس.

سِرٌّ النَّداهة,

وشُجَيْرَةٌ اليَاسَمِين.

سَلَّمَ أمجد على عادل وهيمة مِن بعيد. فكفا كلاهما عن الشِّجار عندما شاهداه يقترب. نظر في ساعة يده. كانت السَّاعة لا تزال السَّابعة ونصف. باقي نصف ساعة كاملة طويلة, قبل أن يُفتح باب المَصَحَّة مِن الدَّاخل. ترك أمجد الرَّجُلان وسار في الحديقة ببطء, فعادا كلاهما إلى شجارهما مِن جديد. سار أمجد إلى خلف المَصَحَّة. عند شجيرة الياسمين, راقب الشُّجيرة ومحيطها مِن بعيد. يبحث عن أيّ أثر لِياسمين, لكنه لم يجد أحداً.

اقترب مِن الشُّجيرة. كانت خضراء الأوراق, مُتألقة بزهرات الياسمين البيضاء, وتبعث مِنها رائحة مُنعشة وقويَّة. شجيرة شابة, بطول حوالي متراً ونصف المتر, ومحيط حوالي اثنين مِن الأمتار. قويَّة, وضاربة الجذور في الأرض بعمق, كستها قطرات النَّدى الصَّباحيَّة, فجعلتها تبدو كالعروس ليلة خِضابها. مَدَّ يده ليلمسها. لكنه سحبها فجأة عندما سَمِعَ صوت خطوات قادمة مِن خلفه. استدار, وكانت المفاجأة. إنَّها ياسمين, تهتزّ الشُّجيرة مِن خلف أمجد, هزَّة خفيفة, كأنَّها ترقص وتتمايل طرباً على نغمات الرِّياح, فرحاً وشوقاً, واستقبالاً مليكتها.

أمجد, واقفاً فاغر الفم. بحدقتين متسعتين. وجمراً يلتهب في مجريا أنفه, وبرداً صقيعاً في مُنتصف ظهره. فهمس بريبة لم يتذوَّقها مِن قبل: "ياسمين!"

اقتربت قليلاً مِنه. قدماها حافيتين. وجسدها أبيض بض. برقبة طويلة وهيفاء, لا شية فيها. وقالت بصوتها الرَّقيق: "لقد ظننتُك ذهبتَ. ولن تعود مرَّة أخرى!"

قال وهو مضطرب: "كيف خرجتِ مِن المَصَحَّة؟"

قالت ببسمة هادئة على وجهها: "بالضبط مثلما أدخلها". ثُمَّ سارت حَتَّى وقفت بجانب يده اليسرى بالضبط. شعرت, وسَمِعَتْ دقات قلبه القويَّة المُتزايدة. حاولت أن تُهدِّأ مِن روعه قليلاً. مدَّتْ يدها اليمنى إلى إحدى زهور الياسمين. ولمستها لمسة خفيفة كأن أصابعها, هي ريشة ملساء. استدار أمجد إلى الشُّجيرة مرَّة أخرى. ومَدَّ يده إلى إحدى الزِّهور في الشُّجيرة, وقطفها. تأوَّهت ياسمين عندما قطع الزَّهرة, كأنَّه غرز إبرة سميكة في ظهرها. نسى خوفه مِنها وسألها: "هل أنتِ بخير سيِّدتي؟"

رفعت وجهها الذي مال إلى الأرض عندما شعرة بالوغزة. وقالت وهي تضحك, ضحكة صامتة, كشفت عن أسنانها البيضاء المستوية كالدرر بشكل مميز ورائع: "سيِّدة؟! هل أبدو لك كسيِّدة حقاً؟ أنا فقط ابنة اثنين أو ثلاث وعشرون عاماً... لم أعد أتذكَّر كم عمري بالضبط". أمسكت يده اليسرى. فنكص إلى الوراء خيفة في نفسه. نظرت في ساعة يده. وقالت: "سوف يفتح صابر الباب الآن. اِذهبْ. ولا تُخبر أحداً عن وجودي هُنا. وإلا لن أتحدث معك مرَّة أخرى". أومأ أمجد رأسه متمماً على حديثها, وسار بظهره إلى الخلف عِدَّة خطوات, كأنَّه مسلوب الإرادة, وفي الوقت ذاته, ارتسمت على وجهه ملامح السَّعادة والطَّمئنينة, وبالطبع الفضول. بعدما اختفى مِن أمام نظرها. ضحكت ياسمين ضحكتها الجميلة المرحة, ثُمَّ تذكَّرت الوغزة, فلمست بيدها اليسرى أعلى ظهرها, خلف كتفها الأيمن, فإذا بجرح بسيط, خلَّف ورائه بعض قطرات مِن الدِّماء.

عاد أمجد إلى الرَّجُلان أمام البوابة الرَّئيسيَّة للمَصَحَّة. وفتح العَمّ صابر البوابة في غِضُون ثوانٍ معدودة بالفعل. وقف أمجد عِدَّة دقائق. وعندما تأكَّد أن لا أحد يتابعه, حيث

استلم عادل وهيمة فترتهما على السَّريرين. وذهب العَمّ صابر لِشراء فطور. ودخل الحج أحمد الأعرج إلى الحمَّام, وسعيد ابنه مختفياً تماماً. ذهب إلى الخلف حَتَّى يجلب ياسمين. لم يجدها. ظنَّ أنَّها هَرِبَتْ مِن المَصَحَّة, فعاد سريعاً إلى البوابة الرَّئيسيَّة. لا يوجد أحد. دخل المَصَحَّة, وهرول في الطُّرقة نحو نافذة العنبر. فإذا بياسمين جالسة على سريرها مُنتظرة الطَّبيب, وَبِمُجَرَّد أن رأته, ابتسمت إليه وغمزت بمرح. تنفَّس أمجد الصُّعَداء وضحك عائداً نحو مكتبه. وفي الطَّريق, وجد سعيد يسير نحوه, دالفاً مِن بوابة المَصَحَّة. لم يشغل له بالاً, إلا أنَّه استطاع أن يُلاحظ ملامح وجه العِدائيَّة وعيناه اللتان تصرخان غضباً وقيظاً, ويوجِّههما مباشرة إلى منتصف عينيّ أمجد. وقف أمجد أمام باب غرفة الأطباء, وهو ينظر إلى سعيد الذي يمر مِن جانبه دون سلام أو كلام. لم يهتم أمجد بهذا الأمر كثيراً. ودخل إلى مكتبه.

بعد دقائق مِن الجلوس وحيداً أمام مكتبه الحديديّ الصَّدأ. تذكَّر أن يتصل بأمه وأخيه, حَتَّى يخبرهم بوصوله. كان هاتفه المحمول في السَّيَّارة. فخرج إلى الطُّرقة, ثُمَّ إلى

البوابة الرَّئيسيَّة للمَصَحَّة, فوجد كاظم يتحدَّث مع هاني في الحديقة. سار إليهما. سلَّم عليهما. وتحدث قليلاً معهما. ثُمَّ ذهب إلى سيَّارته ودلف إليها. ثُمَّ تَرَجَّلَ مِنها بعد دقيقتين. كان كاظم لا يزال واقفاً في الحديقة, يراقبه مِن خلف سور الحديقة الحديديّ ذو القضبان الحَديدِيَّة المُتباعِدة نسبياً عن بعضها البعض, وتسمح برؤية واضحة داخل وخارج الحديقة. عندما عاد أمجد مرَّة أخرى إلى داخل الحديقة. وجد كاظم منتظراً إياه. بالطبع دفع الفضول كاظم حَتَّى يسأل عن السَّيَّارة ومع مَن كان يتحدَّث أمجد. وأجابه أمجد على أسئلته بكل وضوح, دون لفاً أو دوراناً.

قُبَيل انتهاء اليوم بحوالي ساعة. كان أمجد مرهَقاً, بعد يوماً شاقاً مِن الكشوفات والفحوصات. كما أنَّه قضى حوالي أربع ساعات واقفاً, على قدمه, يُحاول عبثاً إقناع, النّزيل غالي بأن تذوُّق الأرضيَّات, لن يجعل الدَّلافين تسكت عن صراخها في الحديقة الخلفيَّة ليلاً. وقد استند إلى ذلك بأدلة علميَّة وبراهين عقليَّة تماماً: بأنَّه على سبيل المثال لا يوجد أيّ دلافين في الحديقة. وأيضاً, ما دخل الأرضيَّات المالِحة بالدلافين! لكن النّزيل غالي كان يرى بُعْدَاً آخراً للموضوع.

حَتَّى أن ياسمين ضحكت بصوت مرتفع, عندما وجدت الطَّبيب المتعلِّم نفسه, يفقد آخر أساليبه في الإقناع, بعدما تذوَّقَ أرضيَّة العنبر بإصْبَعه أمام غالي, ثُمَّ بصق على الأرض, حَتَّى يُثبت إليه أن الملح في الأرضيَّات, له طعم شنيع للغاية. لكن غالي لم يقتنع بهذه الحيلة أيضاً. وأخبره أنَّه يستطيع أن يتوقَّف عن تذوُّق الأرضيَّات, لكن تذوُّق الحوائط له مكانة عزيزة للغاية في قلبه. فخرج أمجد مِن العنبر مُرهَقاً ومهزوماً. فيما كانت النَّداهة مستمتعة للغاية بهذه المسرحيَّة الهزليَّة.

عاد أمجد إلى غرفة الأطباء. كان كاظم على مكتبه, يجلس كالكرة المنتفخة أكثر مِن اللازم. حَتَّى أنَّه تذكَّر كُنيته "ذكر الفيل" فضحك بصوت مرتفع. فسأله كاظم: "ماذا هل أقنعت غالي المغفل بأن يتوقَّف عن تذوُّق الحوائط والأرضيَّات؟ أَمْ أنَّك بدأتَ تُشاركه هذه الهواية؟"

ضحك أمجد مِن قلبه بحق. وقال إليه: "مَن الذي أطلق عليك اسْم ذكر الفيل؟"

تجعَّد وجه كاظم للغاية. وقال بصوتاً هامساً كأنَّه يكلِّم نفسه: "سوف أقتلع أعين هؤلاء الخرف, وَرُبَّمَا أجز لهُم ألسنتهم المُتشعِّبة تلك, وأحشوها في مؤخراتهم. أو رُبَّمَا أطهو ألسنتهم وأطعمها إياها".

اتسعت حدقتي أمجد ونظر إلى كاظم نظرة ناكصة وقال: "هل أنتَ طبيب نفسيّ أَمْ مريض نفسيّ؟" وضحك بصوت مرتفع.

قال كاظم: "أقسم لك أنَّني لم أعد أعرف. حسناً, ألا تريد مضاجعة فتاة في العشرينات مِن العمر؟"

تجمَّدت ملامح أمجد. ظنَّه يتحدَّث عن ياسمين. وصمتَ وهو كظيم. فأتبع كاظم قائلاً: "تعال معنا اليوم إلى كابريه اللَّيلة الأخيرة. سوف تستمتع بمؤخرة رحاب طماطماية, أو رُبَّمَا ترغب في أمّها سُعاد طماطماية؟ أنا خصوصاً أُفضِّل العتاقيَّات".

رفع أمجد حاجبه الأيسر, فيما كان الأيمن متصلِّباً مكانه. فاغراً فاه للغاية. وقال: "هل تتحدَّث بجدِّيَّة؟"

قال كاظم: "بالطبع أتحدث بجدِّيَّة. أنا أقضي كل ليلة في الأُسبوع مع هاني في هذا الكابرية".

أمجد فاغراً فاه, وارتفع حاجبه الأيسر أكثر: "هاني مطر؟! مدير المَصَحَّة؟"

قال كاظم تلقائيَّاً, دون تردُّد, كأنَّه شيء مُتفق عليه بشدة في هذه المَصَحَّة: "بلى. وأحياناً يأتي معنا عَمّ صابر أيضاً!"

"يا إلهي. أنتَ تمزح أليس كذلك؟"

"بالطبع لا".

"ولماذا تقول لي هذا الآن؟ لماذا لم تخبرني بهذا مِن قبل؟"

قال كاظم, وهو يحاول الفكاك خجلاً: "لأنَّك تملك سيَّارة الآن. فيمكنني الذِّهاب معك. أرجوك, أرجوك, أرجووووووك". وأخرج شطيرة مِن جيبه كان قد قضم مِنها قضمة واحدة, ثُمَّ بدأ يُنهيها.

قال أمجد مندهشاً: "ربَّنا لا تؤاخذنا بما فعل السُّفهاء مِنَّا يا الله... أين هذا الكابرية؟" صاح كاظم بضحكة تحولها الدِّهون والسِّمنة حول رقبته: "ليس بعيد عن هُنا. سنذهب إليه اللَّيلة. أنتَ قادم معنا أليس كذلك".

قال أمجد بشيء مِن الجدِّيَّة هذه المرَّة: "لا. لا يمكنني اليوم. أنا هالِكاً تعباً. ومقتول إرهاقاً. رُبَّمَا في الغد".

لم يجبه كاظم. وهَمَّ بالوقوف.

سأله أمجد إلى أين هو ذاهب.

أخبره أن هُناك جلسة كهرباء للأستاذ محمود العربي بعد قليل.

وخرج مِن غرفة الأطباء. بعد ربع ساعة بالضبط. سُمِعَ صوت ياسمين, تصرخ بقوة. خرج أمجد, يهرول في الطُّرقة نحو غرفة الكهرباء, لكنه توقَّف عندما لمح ياسمين عبر نافذة العنبر, تصرخ وتتألَّم في سريرها. فعاد خطوتين إلى الخلف, وظلَّ ينظر نحوها مُستعجباً مما يراه. وكأن الكهرباء تسير في جسدها وليس جسد أبيها الرَّاقد في تلك اللَّحظة على سرير ضيِّق في غرفة الكهرباء. حاول أمجد كالمجنون

أن يفتح باب العنبر, لكنه كان موصداً بالمِفتاح. فعاد مرَّة أخرى إلى النّافذة يراقب الشَّابة الصَّارخة, وهي تتألَّم. لم يعد يحتمل صراخها الذي يُداهم أذنيه, كأنَّه الرّصاص المصبوب. كتم صرخة كادة أن تنفجر بالبُكاء. وضع يده اليمنى على فاه, واليسرى على قضبان النافذة. وقد زرف دمعتين بالفعل مِن عيناه. صرخت طويلاً لحوالي دقيقتين. حَتَّى صَمَتَتْ, واِرْتَمَتْ على السَّرير الضَّيِّق, منهوكة القوى, خائِرة الإرادة والحيويَّة. لم ينتبه أمجد إلى كاظم و هاني وعدد قليل مِن الممرِّضات, وهُم يمرُّون مِن خلفه بالضحكات, يجرون خلفهم أستاذ محمود العربي, وهو ممدَّد على سرير حديديّ ضيِّق.

فتح العَمّ صابر باب العنبر الموصد, حَتَّى يقومون بإدخال النّزيل محمود العربي. فاندفع أمجد نحو ياسمين النّاعسة على سريرها. وجلس بجانبها يتفحَّص نبضها, عندها صرخ كل النّزلاء, صرخات مُرتفعة للغاية, وهُم يضربون أنفسهم في الأسرة الحَديدِيَّة التي زادت الأجواء صخباً. فأمسك طاقم التَّمريض بالطَّبيب أمجد, وأبعدوه عن ياسمين, وهو يقاومهم, كأنَّه أحد هؤلاء النّزلاء المجانين. أخرجوه عنوة

إلى خارج العنبر, وأغلقوا الباب خلفهم. فخيَّم الصَّمت على النّزلاء مرَّة أخرى.

نهره هاني مطر, وأمره بألا يجرؤ على الاقتراب مِن النَّداهة مرَّة أخرى. حَتَّى أنَّه عنَّفه, ودفعه في صدره عندما كان أمجد يشرح وجهة نظره, مِن منظور طبيّ. لكن هاني رفض سماعه, وأمره أن يذهب إلى شَقَّته, لأن ساعات العمل الرَّسميَّة قد انتهت.

دلف الطَّبيب أمجد إلى سيَّارته وهو ينفجر غضباً. ظلَّ في سيَّارته يصرخ ويلكم عجلة المقود بقبضة يده. حَتَّى هدأ بعد عِدَّة دقائق قليلة. ثُمَّ أدار سيَّارته, وحرَّك ذِرَاعُ نقل السُّرعات, وخرج إلى طريقة بقوة وزخم. وفي الطَّريق, توقَّف بجانب عمود كهرباء حديديّ, يُضيئ الطَّريق بنور أصفر مزعج للعينين. عيناه تؤلماه, فأغمضهما. صوت المُحرِّك يطن في أذنيه ويصدح في مخه. فأغلق المُحرِّك. أصوات الرِّياح, الممتزجة بأصوات صرير النّخيل في مهب الرِّياح, تُشوُّب صفاء ذهنه. فأغلق زجاج السَّيَّارة. أغمض عيناه وتنفَّس بعمق. عندها راودته الرؤية, والهذيان الحلو مُجَدَّداً: *تَخَيَّلَ أنَّه في منزل مُرِيح, تحديداً في المطبخ. جَالِسَاً*

على منضدة السُّفرة. وياسمين, صاحبة الوجه الخمريّ, طويلة القامة بشعر أصفر داعبته أشعة الشَّمس فلمع كالذهب المضآء, واقفة مِن خلفه, تمسّح له رقبته المُرْهَقة, وطَبَعَتْ قُبلة حارة عليها. عندها دخلت فتاة صغيرة حوالي أربع سنوات, نُسخة كربونيَّة مِن ياسمين, أسرعت إليه قائلة بصوت ملائكيّ ليس مِن عاَلمنا: "بابي, بابي". فحملها ووضعها على رجله اليمنى. عندها طُرِقَ الباب. فالتفت إليه ياسمين, وسارت حَتَّى تفتحه. خرجت مِن المطبخ وما هي إلا ثوانٍ, وسُمِعَ صوت صراخها عالياً. فنظر إلى ناحية قدوم صوتها, وضع ابنته على الأرضيَّة, وهَمَّ بالوقوف. وسار حَتَّى وقف على العتبة بين المطبخ والصَّالة, ثُمَّ هرول بقوة خارجاً إلى الصَّالة. وظلَّت الفتاة الصَّغيرة واقفة وحدها في المطبخ وهي تنادي: "بابا أمجد" – اِستيقظَ أمجد مِن هذيانه الحلو على صوت كاظم وهو يطرق بإصْبعه الغليظ على زجاج السَّيَّارة ويُنادي: "أمجد... أمجد".

فتح أمجد عيناه. تنفَّس بعمق, وزفر الهواء كأنَّه يُزيح حِملاً ثقيل عن صدره. أنزل زجاج السَّيَّارة. وقال إلى كاظم بهدوء: "ماذا هُناك يا دكتور كاظم؟"

قال إليه كاظم عندما كان يستند بيداه الغليظتان والسَّمينتان على باب السيَّارة: "هل أنتَ بخير؟"

تَرَجَّلَ أمجد مِن السَّيَّارة. وقال إلى كاظم: "بلى. أنا بخير". أخرج كاظم علبة سجائر مِن جيب قميصه, أشعل سيجارة وأعطى أخرى إلى أمجد وقال إليه: "ما كان هذا؟ هل أحببت النَّداهة أنت أيضاً؟ مثل الجميع في المَصَحَّة". وضحك ضحكة هادئة. أخبره أمجد أنَّه خاطب, ويُحِبُّ خطيبته للغاية. وياسمين بالنسبة لهُ مُجَرَّد حالة, وقد دفعه واجبه المهنيّ نحوها ليس إلا. قال إليه كاظم: "هل أنتَ متأكِّد؟ أظنُّك تكذب يا دكتور".

لم يجبه أمجد, وظلَّ ينفث دخان السِّيجارة. ثُمَّ ألقاها على الأرض. ودهسها بحِذائه. واستأذن مِن كاظم ودلف إلى السَّيَّارة مرَّة أخرى. تحرَّك بها بهدوء نحو شَقَّته, تاركاً خلفه ذكر الفيل, ينفث دخان سيجارته, وهو يضحك بتكلّف.

وصل أمجد إلى شَقَّته. اتصل بأمه مرَّة أخرى, وتحدثا لِمُدَّة طويلة, ثُمَّ أغلق معها على شجار, كانت هي فيه المنتصرة كالعادة. أعطته رقم هاتف خطيبته- التي لم يرتدي دبلتها

بعد- وطلبت مِنه أن يتصل بها لِيتحدَّث معها قليلاً. بعدما أغلق أمجد مع أمه, سجَّل رقم هند على هاتفه المحمول, واتصل بها بالفعل. كان حديثه معها سريعاً, دون أهمِّيَّة. حديث فارِغ يفتقر إلى أيّ مشاعر. اِقتصرَ الحديث فقط على كيف حالك؟ بخير. وأنتِ كيف حالكِ؟ الحمد لله. وتكرَّر الأسئلة ذاتها لكن بصيغ مُختلفة. أغلق أمجد هاتفه المحمول, ووضعه على الشَّاحن وهو منغلق.

بحث في شَقَّته على طعام. لكن لم يجد. لِحسن الحظ أن لم يبدِّل ملابسه بعد. نزل مِن شَقَّته. وذهب إلى أحد المطاعم لِيشتري طعاماً. تناول العشاء في أحد المطاعم القريبة مِن شَقَّته. وقف في أحد الإشارات الخانقة في شوارع القاهرة. وأثناء استمتاعه بالهواء المنعش الذي يرتطم بوجهه, وهو واقفاً بسيَّارته في الإشارة. دسَّ أحد الأولاد رأسه داخل سيَّارته, وقال إليه: "فل يا بك؟ فل يا بك؟"

نظر إليه أمجد وقال إليه أنَّه لا يريد شيئاً. وعندما بدأ الولد في السَّير عن السَّيَّارة, وهو يُغمغم, أشار إليه أمجد مرَّة أخرى وسأله: "هل معك ياسمين؟" فأجاب الولد سريعاً: "وما هو الفل إلا ياسمين مِن نوع آخر يا بك!"

ضحك أمجد. واشترى مِنه عقدين مِن الفل. علّق أحدهما في السَّيَّارة. والآخر وضعه على المقعد المجاور له. تعمَّد أن يعبر مِن أمام المَصَحَّة عندما كان عائداً. ودفعه شعور غريب لأن يوقف السَّيَّارة بعيد بعض الشَّيء عن المَصَحَّة, حيث كان قد جاوز المَصَحَّة بسيَّارته بالفعل. ركنها في جانب الطَّريق. وعاد إلى المَصَحَّة مرَّة أخرى سيراً على الأقدام. لاحظ أن عادل وهيمة مشغولَين بالحديث فيما بينهما, جالسَين أمام نار راكية الشَّاي. كان بداخل أمجد شعور مؤكد, أن ياسمين جالسة في الخلف. عند شجيرة الياسمين. لكن كيف سيعبر إليها مِن أمام الرَّجُلان اليقظان دون أن يلاحظاه بسهولة.

اضطرَّ أمجد أن يلتف مِن الشَّارع الخلفيّ للمَصَحَّة. وكان شعوره في محله. كانت ياسمين جالسة بجوار شجيرة الياسمين. قفز مِن على القضبان الحَديدِيَّة. وتسلل إلى الحديقة سِرّاً. سار نحوها ببطء, دون أن تشعر. لكنها شعرت به عندما اقترب مِنها فنهضت وسألت بصوتاً مرتفعاً بعض الشَّيء: "مَن أنتَ؟"

كان الظَّلام حالكاً بالفعل. بالكاد تستطيع أن ترى راحة يدها. فسألت مرَّة أخرى بنبرة خوف وفزع وصوت أعلى: "مَن أنتَ؟"

"ششششش. اخفضي مِن صوتكِ. أنا أمجد". وذهب إليها.

وقفت ياسمين متحجِّرة في مكانها. وسألته عن سبب وجوده هُنا هذا المساء. أخبرها أنَّه قلق للغاية على حالتها الصِّحيَّة. وعاد حَتَّى يطمئن عليها. وأخبرها أيضاً أنَّه كان متأكِّداً مِن وجودها في هذا الوقت بجانب شجيرة الياسمين. قالت إليه: "لا تخاف. أنا بخير. لقد تعوَّدتُ على هذا الظُّلم منذ زمن".

أخرج أمجد مِن جيبه عقد الفل الذي اشتراه مِن الولد في الإشارة. وأعطاه إياه. فأخذته ووضعته حول عنقها. فكان عنقها والعقد عليه, كعمود مِن الرُّخام الأبيض النّاصع, مُكللاً بحلي مِن الدُّرر البيضاء, وأرسل القمر ضوئه على شجيرة الياسمين, فكانت زهور الياسمين كالجواهر البيضاء المُضاءة التي تعكس ضوء القمر الفضيّ, على وجه ياسمين. نهض أمجد وسار نحو الشُّجيرة. وقطف زهرة أخرى كانت

بالضبط بجانب الزَّهرة التي قطفها مِن قبل. فتأوَّهت ياسمين مرَّة أخرى, وظهر جرح آخر في ظهرها بالضبط بجانب الجرح القديم. عاد أمجد, وجلس بجانبها على الأرضيَّة. وقال إليها: "اخبريني يا ياسمين. ما هو أكثر شيء تحلمين به وتريدنه بشدة الآن؟" قالت إليه كلمة واحدة فقط وكأنَّها تسأله: "العَدْو؟" قال أمجد مُتعجِّباً: "العَدْو؟!"

تنفَّست ياسمين عميقاً, وزفرت الهواء وقالت: "الرَّمحُ في الشَّوارع... بجانب النِّيل... أن أجري طيلة الليل حَتَّى تنفجر الدِّماء في عروقي", ثُمَّ ابتسمت إليه وقالت: "أنا أعرف لمَ سألتني هذا السُّؤال". فاندهش وقال: "حقاً. لماذا سألتُك هذا السُّؤال؟"

فكَّرت ياسمين ملياً ثُمَّ قالت بابتسامة وهي تميل برأسها ناحية اليمين: "حَتَّى أسألك السؤال نفسها بعدما أجاوب... حسناً, ما هو أكثر شيء تريد فعله الآن؟"

قال إليها: "أريد أن أحتسي معكِ كوباً مِن الشَّاي بالياسمين".

ضحكت ياسمين. ثُمَّ نظرت إلى شجيرة الياسمين أمامها وقالت: "لدينا الياسمين, لكن لا نملك الشَّاي". لا إرادياً, أمسك أمجد يد ياسمين وسألها: "أتحتسين معي كوباً مِن الشَّاي بالياسمين؟"

ضحكت ياسمين مرَّة أخرى وقالت: "بلى. إن كان هذا سيجعلك سعيداً". نظر أمجد في ساعة يده, لكن كان الضَّوء قليل. عندها نظرت ياسمين إلى شجيرة الياسمين, وكأنَّها طلبت مِنها بعينيها أن تعكس ضوء القمر على ساعة يد أمجد. فانعكس الضَّوء على السَّاعة. فقال أمجد: "إنّها العاشرة. انتظري هُنا. نصف ساعة بالضبط وسأعود بكوبين مِن الشَّاي". لم ينتظر أن تجاوبه بالرفض أو الموافقة. قفز مِن على القضبان الحَديدِيَّة, وهرول كالمعتوه إلى سيَّارته. ثُمَّ استقل السَّيَّارة قاصداً شَقَّته. للأسف لم يكْ هُناك إلا كوباً زجاجيَّاً واحداً. أوقد الموقد. الماء يغلي. وضع الشَّاي الجاف والسُّكر في الكوب. صَبَّ الماء في الكوب ووضع فيه ملعة صغيرة. ونزل إلى سيَّارته مرَّة أخرى مهرولاً. عاد بعد عشرة دقائق بالضبط, ناولها الكوب عن طريق الفتحات الواسعة في القضبان الحَديدِيَّة وهو يقول: "آسف ليس لديّ

إلا كوباً واحداً فقط. سنحتسي الكوب سوياً". قفز مِن على القضبان. وذهب لِيجلس بجانبها على الأرضيَّة مرَّة أخرى. نظر بالضبط في وجهها عندما كانت تبتسم وقال كأنَّه يتحدَّث إلى نفسه فاغراً فاه: "يا إلهي. وجهك كقطعة مِن القمر". ابتسمت ياسمين حيائاً, ووضعت يدها اليمنى على رقبتها, فيما كانت تمسك كوب الشَّاي باليد اليسرى. نهض أمجد وقطف زهرة ياسمين مِن الشُّجيرة. لكن هذه المرَّة مِن أعلى الشُّجيرة, فتأوَّهت ياسمين ألماً. استدار إليها أمجد وجلس بجانبها, وهَمَّ بسؤالها عن هذه التَّأوّهات. لكنه صُدم عندما وجد جرح صغير في وجنتها اليمنى فقال مذعوراً: "ما هذا؟ هل هذه دماء؟" ولمس وجنتها النّاعمة. أمسكت ياسمين يده, وقالت إليه: "أمجد. قد تعتقد أنَّني مجنونة, بسماعُك هذا الحديث الذي سوف أخبرك به الآن". رفع أمجد حاجبه الأيسر فيما كان الحاجب الأيمن متصلّباً, كأنَّه يقول: لا أنتِ لستِ مجنونة. لكن أتبعت ياسمين وقالت: "هذه الشُّجيرة هي أنا. أشعر بما تشعر هي به. وتشعر بما أشعر أنا به. إذا قُطعت زهرة مِن الشُّجيرة, أُصاب بجرح في جسدي, إما في

ظهري أو بطني أو وجهي, هذا يعتمد على المكان الذي تنقطع مِنه الزَّهرة".

أمجد فاغراً فاه: "أنا أرى العجب هُنا". ثُمَّ ضحك ووضع زهرة الياسمين في كوب الشَّاي, الذي في يد ياسمين. عندما كان يضحك بصوت منخفض على حديثها, كانت هي جامدة الملامح. فقال إليها: "هل تريدين مِني أن أصدق هذا؟"

وضعت ياسمين كوب الشَّاي جانباً. نهضت, فنهض أمجد سريعاً. قالت إليه: "انظر إلى وجهي". ثُمَّ مدت يدها وقطفت زهرة أخرى مِن أعلى الشُّجيرة, فظهر جرح صغير في وجهها مِن العدم. كتم أمجد فاه بكلتى يداه, محاولاً كبت صرخة كادت أن تنفجر, حدقتيّ عيناه متسعتَين للغاية. يداه ما تزالان على فاه. تنفَّس بعمق, ثُمَّ أزال يداه مِن على فاه, وزفر الهواء مِن الفم. رفع حاجبه الأيسر مرَّة أخرى, فيما ظلَّ الحاجب الأيمن جامداً في مكانه, فضحكت ياسمين وقال: "أحبك عندما تقوم بهذا". وحاولت تقليده, ورفعت الحاجب الأيسر مثله, وتبقي الأيمن في مكانه.

قال أمجد بشيء مِن الدُّعابة: "أصبح الشَّاي بارداً".

ضحكت ياسمين, وكشفت عن أسنانها البيضاء مرَّة أخرى. ثُمَّ جلس معها, يُمطرها أسئلة كثيرة للغاية عنها وعن الشُّجيرة. قالت إليها إنَّها لا تريد التَّحدث عن هذا الأمر, لكن هُناك فقط أمران مهمان وحيدان يجب على أمجد أن يفهمهما ويدركهما جيِّداً. الأمر الأول: أن لا أحد يعلم بأن ياسمين والشُّجيرة يتشاركان روحاً واحدة إلا ياسمين وأمجد فقط, حَتَّى أبيها لا يدري (في الحقيقة هو لا يدري أشياء كثيرة). والأمر الثّاني: إذا تعرَّضَتْ الشُّجيرة لأيّ أذى سوف تتعرَّض ياسمين أيضاً لِنفس الأذى. حاول أمجد جاهداً أن يعرف سِرّ مشاطرتها روحاً واحدة مع شجيرة, لكنها رفضت. حَتَّى أنَّها هددته بالذهاب, إن استمر على إصراره. فسألها أمجد: "إن كان الأمر خطيراً لهذه الدَّرجة, لماذا أخبرتيني بسِرّ وجود علاقة بينك وبين الشُّجيرة؟"

قالت وفي عينيها نظرة ناكصة: "ماذا؟"

قال: "أقصد لماذا لم تخبري أيّ أحداً بهذا إلا أنا؟"

تنفَّست ياسمين بعمق ثُمَّ قالت: "لأنّك مختلف عنهم جميعاً. أنت تهتم لِمشاعر كل الموجودين في هذه المَصَحَّة,

فضلاً عن أنَّني أعرف أنّك لن تفشي سِرِّي أبداً". سألها عن هذه الثِّقة غير المبررة.

قالت إليها: "ومَن أخبرك أنَّها ثقة غير مبررة؟ لقد لمستُك. أستطيع أن أعرف الكثير عن طباع المرء عندما ألمسه". فقال أمجد بنبرة المرح مرَّة أخرى: "إنَّني أرى العجب هُنا أقسم إليكِ بالله". فضحكت ياسمين مُجَدَّداً. وظلَّ بينهما السَّمر طيلة الليل, حَتَّى دقت السَّاعة الثّانية عشر. أخبرته ياسمين أنَّها يجب أن تخلد إلى النَّوم الآن. أومأ إليها برأسه. نهض مِن على الأرضيَّة وأنهضها برفق, كان هُناك بعض مِن أوراق الشَّجر على ملابسها. فنفض أوراق الشَّجر عنها واقترب بيده لِينفض أوراق الشجر بالقرب مِن ردفيها, فدفعت يده برفق, وببسمة لطيفة. فأدرك الطَّبيب الشَّاب أنَّه كان على وشك أن يصفعها على مؤخرتها, فاحمر وجهه خجلاً كالفتايات, ووضع يده اليمنى على رقبته. عندها, قبَّلته ياسمين قبلة رطبة على وجنته الحمراء, فاستدار خجلاً وسار ببطء عنها. لكنه عاد إليها سريعاً وسألها: "كيف تدخلين وتخرجين مِن المَصَحَّة والعنبر؟" وأغلق عيناه نصف انغلاق كأنَّه نزيل زميلاً لها في نفس العنبر. تنفَّست

بعمق ثُمَّ قالت إليها سِرّاً آخراً: "يوجد نفق صغير هُناك. بجانب صنبور المياه, يؤدي هذا النَّفق إلى فتحة أسفل سريري في العنبر". فقال إليها: "الآن عرفتُ لماذا يدعونك بالنَّداهة".

ضحكت ياسمين وقالت: "لكنهم لم يدعوني بشيء. أنا هي مَن ابتدعت هذا الاسْم لِنفسي, حَتَّى أحمي نفسي مِنهم. لماذا برأيك لا يحاول أحد مِنهم أن يغتصبني. لا أحد مِنهم يجرؤ فقط على الاقتراب مني, لقد نسوا أني أنثي منذ زمن. باستثناء الكلب السَّعِر الذي يُدعى سعيد".

قال أمجد بجدِّيَّة تامة وبشيء مِن الغيرة: "هل حاول هذا الخسيس أن يلمسكِ؟". فقالت إليه وعلى وجهها بسمتها الرَّائعة التي لا تفارق وجهها أبداً عندما تكون قريبة مِن شجرتها: "لكنتُ قطعتُ له يده". ثُمَّ تبدَّلت ملامحها وقالت: "إنّه يختلس النَّظر إليَّ وأنا جالسة في العنبر أو عندما أكون نائمة, وأحياناً وأنا أستحم". أمسكت يده اليمنى وقالت: "هل يمكنك أن تفعل شيء حِيال هذا الأمر؟" نظر إليها أمجد نظرة جادة وقال: "بالطبع يمكنني. لا تحملي هَمّاً".

بعد ذلك نزلت إلى النّفق وأغلقته خلفها. سحبت حبلاً رفيعاً مِن داخل النّفق, فسقطت بعض أوراق الشّجر على غِطاء النّفق الصَّغير, فاختفى تماماً عن الأنظار. تعجَّبَ أمجد مِن ذكاء هذه *المجنونة*! ثُمَّ قفز مرَّة أخرى مِن على القضبان وأخذ كوب الشّاي بارداً كما هو, لم يرتشف أيّ مِنهما ولو رشفة واحدة فقط مِنه. ثُمَّ دلف إلى سيَّارته وعاد إلى شَقَّته, ويدور في رأسه ألف سؤال, ناهيك عن إعجابه الشَّديد بالنَّزيلة الحسناء, ذات رائحة الياسمين الدَّائمة.

الفصل السَّادِس.

انتحار

مع سَبْق الإصرار والتَّرَصُّد.

بعد ليلة نوم هادئة, خالية مِن الكوابيس. نهض أمجد في الصَّباح الباكر كعادته. نظر في ساعة يده, التي كان لا يزال يرتديها منذ البارحة, إنَّها السَّابعة صباحاً. نهض مِن السَّرير. حظى على حمَّاماً بارداً, فطر سريعاً ونزل إلى الشَّارع مُفعماً بالحيويَّة, أو يتصنَّع الشِّعور بالحيويَّة. دلف إلى سيَّارته الأكسنت, وتحرَّك بها إلى الأمام مُسرعاً. لم يقصد المَصَحَّة, إنَّما ذهب إلى إحدى المحال في وسط البلد, لِيشتري تُرْمُسَاً للشاي, وأكواباً زُجَاجِيَّةً, وشاياً جافاً بنكهة الياسمين. بدأ يفقد عقله وقلبه عِشقاً لِهذه النَّداهة التي تفوح مِنها رائحة الياسمين. أحمق.

انتهى مِن التَّسوق سريعاً. وعاد إلى شَقَّته مرَّة أخرى, وضع المشتريات في المطبخ. كان هاتفه المحمول لا يزال مُتصلاً بالشاحن وهو مغلق. فَصَلَ أمجد الهاتف عن الشَّاحن. ترك رأس الشَّاحن مُعَلَّقة كما هي في مكانها. فتح هاتفه ذو الشَّاشة الواسعة والإضائة البيضاء الشَّديدة, وَبِمُجَرَّد أن فتحه وصلته العديد مِن الرَّسائل الهاتفيَّة. معظمها مِن أمّه وأخيه وخطيبته التي فُرِضَتْ عليه قهراً. اتصل بأمه, التي نهرته وتشاجرت معه كالعادة, بسبب تجاهله إليها وإلى هند

خطيبته. استطاع أمجد أن يمتص غضب أمّه سريعاً, وأغلق معها. ألقى الهاتف على الكومدينو الصَّغير بجانب السَّرير. وهَمَّ بالذهاب إلى عمله. لكن استوقفه صوت رنين هاتفه قبلما يخرج حَتَّى مِن غرفة النَّوم.

(هند يتصل بك...)

تحدَّث معها سريعاً, وأخبرها أنَّه مشغول للغاية وفي وسط العمل, وأخبرها أيضاً أن هُناك حالة نزيف داخلي عند المريض الممدَّد أمامه على سرير المَصَحَّة. أغلق معها, ثُمَّ أغلق هاتفه تماماً هذه المرَّة. وضعه في جيب بنطاله. ونزل إلى عمله.

وصل أمجد إلى المَصَحَّة في السَّاعة العاشرة بالضبط. هُناك حركة خفيفة اعتياديَّة في المَصَحَّة. لم يصل المدير بعد. كل شيء في مكانه الطَّبيعيّ, الكل يسير في هدوء, خطواتهم اعتياديَّة وطبيعيَّة للغاية. دخل أمجد مِن البوابة الرَّئيسيَّة للمَصَحَّة, وما أن اعتادت عيناه على الظُّلمة داخل الطُّرقة, حيث أن الشَّمس كانت تزعج عيناه في الخارج, نظر أمجد فوجد سعيد واقفاً بالقرب مِن نافذة العنبر, ومرَّة أخرى

يختلس النَّظر على ياسمين وهي نائمة. سار نحوه ببطء, لاحظ أنَّه يضع يده اليمنى في جيب بنطاله القماش, ويحرِّك يده بهدوء, وتصدر مِنه أصوات أنين وتأوَّهات خفيفة. عندها استشاط أمجد غضباً, وشعر بغيرة لم يتداركها. فخطى سريعاً نحو سعيد, وصدمه في ظهره مِن الخلف, كان أمجد أطول وأعرض مِن سعيد الذي كان قصيراً وهزيلاً, وتبدو عليه البلاهة والشُّعور بالضعف طيلة الوقت, فسقطت المكنسة مِن يده اليسرى واستدار مفزوعاً لِيجد أمجد الغاضب يصرخ فيه ويأمره بألا يقف بجانب النَّافذة مُجدَّداً. بلع سعيد ريقه, وقد تملَّكه الخوف, فالتقط المكنسة التي وقعت على الأرضيَّة الصَّلبة, وخرج مُسرعاً مِن البوابة الرَّئيسيَّة. عندها ذهبت إحدى الممرِّضات إلى أمجد وقالت إليه: "تسلم يدك يا دكتور. أخيراً ظهر أسد ليُلجِّم الضِّبَاع". ثُمَّ سارت نحو قاعة الاستقبال بجوار البوابة الرَّئيسيَّة. ظلَّ أمجد يتتبَّعها بعينيه حَتَّى اختفت خلف جدار غرفة الاستقبال. لم يكْ هُناك أيّ شخص في الطُّرقة, فاستدار أمجد إلى النَّافذة, فوجد ياسمين واقفة بالضبط خلفها, ففُزع مثل كل مرَّة يقف فيه بالقرب مِن هذه النَّافذة, لكن هذا المرَّة, وعلى عكس كل

مرَّة, أسرعت ياسمين في طمئنته مِن الفزع وهي تقول: "لا تخف. إنَّها أنا". ثُمَّ ضحكت وقالت إليه بشيء مِن الوِدُّ: "صباح الخير".

اقترب أمجد مِن النَّافذة, حيث كان قد ابتعد عنها خطوتين عندما فُزع, وقال إليها: "صباح النُّور". ووقف ينظر في عينيها الواسعتين للحظات, لكنها أدركت خطورة أن يراها أحدهم تتحدَّث معه, فأخبرته أن يذهب لئلا يراهما أحداً. أومأ أمجد برأسه موافقاً على حِكْمَة كلامها, وذهب إلى غرفة الأطباء.

كان مشغولاً للغاية بكتابة تقارير طبيَّة عن حالات المرضى الصِّحيَّة, قبل وبعد جلسات الكهرباء, وقبل وبعد الدِّخول والخروج مِن غرفة الحجز. لا يقطع تركيزه إلا رشفات مُتباعدة مِن فنجان قهوة داكنة, أعدها إليه عَمّ صابر. وإذ بكاظم يقتحم الباب فجأة كالخنزير الصَّارخ, ودون حديث, فقط تأوَّهات صاخبة, جلس على مكتبه بجوار مكتب أمجد, أخرج مِن جيبه شريط به حبوب لم يستطع أمجد أن يُميِّزها بسبب قِلَّة الضَّوء, تناول مِنها حبَّة واحدة, ثُمَّ وضع رأسه الثَّقيل على مكتبه ونام لحوالي نصف ساعة. نصف ساعة,

انتهى فيها أمجد مِن كتابة تقاريره. وتمدَّد وهو جالساً على المقعد الخشبيّ, عندما دخل عَمّ صابر وسأله إن كان يريد فنجان قهوة آخر, فأخبره أمجد أنَّه لا يرغب, وَرُبَّمَا سيتناول واحداً أخراً بعد ساعة أو ساعتين. نهض كاظم مِن قيلولته وقال إلى عَمّ صابر وهو لا يزال في سِنة نومٍ ثقيلة: "اِجلب لي فنجان قوة يا عَمّ صابر".

قال إليه عَمّ صابر: "مِن عيناي يا دكتور كاظم". ثُمَّ خرج وأغلق الباب خلفه. عندها نهض كاظم ووقف منتصباً, وتمدَّد وهو يصدر أصوات صاخبة كأنَّه كان يحمل صخوراً ثقيلة ليلة أمس. ثُمَّ جلس مرَّة أخرى على المقعد. نظر إلى أمجد, سأله وملامح الاندهاش على وجهه: "متى وصلتَ إلى هُنا؟"

عندها طُبِعَتْ ملامح أكثر اندهاشاً على وجه أمجد وقال: "أنا هُنا منذ حوالي ساعتين على الأقل. ألم تراني وأنتَ تدخل الغرفة؟"

كاظم بنظرته البلهاء: "حقاً". ثُمَّ تمدَّد مرَّة أخرى وقال: "لا لم أرْ شيئاً".

فقال أمجد بصوتاً هامساً لم يسمعه كاظم: "ذكر الفيل".

تسائل كاظم: "ماذا قلتَ؟"

أمجد بابتسامة: "آه. لا شيء. يبدو عليك الإرهاق. ما خطبُكَ اليوم؟"

"مُرهقاً مِن فرط النَّشْوَة. وأنت؟"

فضَّل أمجد الابتسامة الصَّامتة.

سأل كاظم: "هل أنت بخير؟"

"بلى".

"بلى؟!"

"بلى, بلى. وأنت؟ تبدو عليك مظاهر الإرهاقة جليَّة!"

صمتا كلاهما للحظات حَتَّى قال كاظم وهو يبتسم: "لا شيء. سأكون بخير الآن. فقط العتاقيَّة سعاد طماطماية. لقد أرهقتني أمس". لم يهتم أمجد كثيراً بما قاله. وظلّا يتحدَّثا سوياً لِحوالي عشرة دقائق, حَتَّى دخل العَمّ صابر بفنجان القهوة الدَّاكنة. فخرج أمجد, حَتَّى يفحص أستاذ محود

العربي قبل أن يُدخله هاني في غرفة الحجز الانفراديّ بعد قليل.

لا يوجد غرفة خاصة للفحص الطبيّ في هذه المَصَحَّة. لذلك يضطر أمجد إلى مباشرة عمله إمَّا في العنبر وإمَّا في غرفة الحجز الانفراديّ نفسها. تعجَّبَ أمجد مِن كمية الجروح التي كانت في جسد أستاذ محمود العربي, عندما كان يتفحَّصه في غرفة الحجز. بعد ذلك, خرج أمجد وأغلق هاني غرفة الحجز وضغط على زِرّ خارج الغرفة, فأضاء النّور داخلها. وظلَّت الأحداث تسير في مجرى طبيعيّ طيلة اليوم, بالرغم مِن غياب تام لِسعيد منذ أن نهره أمجد هذا الصَّباح.

بعدما تأكَّد أمجد أن المَصَحَّة باتت خالية مِن الجميع, بالطبع إلا مِن العَمّ صابر الذي دخل إلى غرفة نومه اللاصقة بالبوابة الرَّئيسيَّة, والحاج أحمد الأعرج الذي كان داخل غرفة نوم العُمَّال, ذهب إلى نافذة العنبر وظلّ يبحث بعينيه على ياسمين, التي كانت متخفِّية أسفل النّافذة, ثُمَّ ظهرت إليه فجأة حَتَّى تفزعه مرَّة أخرى, ففُزع مرَّة أخرى. لكن هذه المرَّة لم تُسرع في تهتئته بل ظلَّتْ تضحك بصوتاً. تنفَّس أمجد الصُّعَداء, وسرعان ما اختفت ملامح الفزع والغضب

مِن على وجهه, وارتسمت بدلهما ابتسامة عريضة عندما رأى ياسمين تضحك بهذه القوة المُفرطة. انتاب أمجد شعوراً بالسعادة, كأنَّه يرى لأول مرَّة أحداً يضحك أمامه. قال أمجد إلى الفتاة الضَّاحكة: "سأنفِّذ إليكِ رغبتكِ وأمنيتكِ هذه اللَّيلة".

توقَّفت ياسمين عن الضَّحك وانتبهت إلى حديث الطَّبيب الشَّاب وقالت في جدِّيَّة: "عن أيّ أمنيَّة تتحدَّث؟"

"سآخذك لِنهرول قليلاً على كورنيش النِّيل, حَتَّى تنفجر الدِّماء في عروقنا". وغمر إليها.

سألته ياسمين في اهتمام ممزوج بالفضول والسَّعادة في الوقت ذاته: "هل تتحدَّث بجدِّيَّة؟"

"نعم لكن هذا سوف يُكلِّفكِ".

استفسرت ياسمين وهي ترجع إلى الخلف خطوتين: "وماذا سوف يُكلِّفني؟"

"أن تحقِّقي لي أمنيتي. أن تحتسي معي كوباً مِن الشَّاي بالياسمين. ولا تخافي لن نضطرّ لِقطف أيّ زهور أخرى, لقد اقتنيتُ شاياً جافاً بالياسمين هذا الصَّباح".

اطمئنت ياسمين وعادت الابتسامة على وجهها مرَّة أخرى, وقالت وهي تقترب مِن النَّافذة: "حسناً. هذه أمنية سهلة", وجذبت كتفيها إلى أعلى.

سَمِعَ أمجد صوت عَمّ صابر فأشار إلى ياسمين حَتَّى تذهب إلى سَرِيرَها. واصطنع انشغاله في النّظر إلى هاتفه المحمول, ثُمَّ فتحه عندما عندما كان عَمّ صابر يمر مِن جانبه, وعندها سأله: "هل سترحل الآن يا دكتور أمجد". استدار أمجد وقال: "نعم يا عَمّ صابر, لقد انتهت السَّاعات الرَّسميَّة للعمل". ثُمَّ ضحك ضحكة سريعة وقال: "سلام".

فقال عَمّ صابر بدوره: "سلام".

خرج أمجد مِن المَصَحَّة. وَجَدَ سعيد جالساً مع عادل وهيمة, فقال أمجد أثناء سيره نحو بوابة الحديقة: "السَّلام عليكم يا رجال". وسار عابراً البوابة. فردَّ عليه عادل وهيمة: "وعليك السَّلام". فيما تجاهل سعيد وآثر أن يصمت.

دلف أمجد إلى سيَّارته, وتحرَّك سريعاً إلى شَقَّته. وأثناء قيادته السَّيَّارة رنَّ الهاتف.

(إيهاب يتصل بك...)

ضغط أمجد على زِرّ الرَّد في هاتفه المحمول, وتحدَّث مع أخيه قليلاً. وعرف أن إيهاب في حاجة إلى المال مِن أجل الدِّروس الخُصوصيّة, لكن أمّه ترفض أن تعطيه. فأخبره أمجد أنَّه سوف يعطيه ما يريد بِمُجَرَّد أن يصل يوم الخميس ليلاً. ثُمَّ أغلق معه. وصعد إلى شَقَّته.

ما أن دخل شَقَّته, رنَّ هاتفه المحمول مرَّة أخرى. أخرج الهاتف مِن جيب بنطاله. ونظر فيه.

(أمّي يتصل بك...)

تذمَّر أمجد: "أظنَّني سأفقد عقلي حقاً, وأُصْبِحُ النّزيل الطَّبيب". ضغط على زِرّ الرَّد. أمّه تصرخ بذعر وغضب وتتمتم بكلمات حانقة وغير مفهومة ومتداخلة, لم يستطع أمجد أن يُميِّز مِنها سوى كلمة "مُخدِّرات". حاول أمجد أن يستفسر بهدوء مِن أمه. وبعد أكثر مِن دقيقة كاملة مِن الصُّراخ والذُّعر, هدأت الأم وقالت: "يجب أن تعود إلى هُنا, أنتَ الآن تمثِّل الأب في هذه الأسرة, إنَّ أخوك بحاجة ماسة إليك يا ابني". حاول أمجد مذهولاً أن يستفسر عن أيّ

مُخدِّرات تتحدَّث مدام منال: "اِهدئي يا أمّي. عن أيّ مُخدِّرات تتحدَّثين؟" وضغط على زِرّ المكالمة الصَّوتية ووضع الهاتف المحمول على منضدة في الصَّالة, وتناول قنينة ماء, وبدأ يشرب مِنها. لكنه بصق الماء عندما سَمِعَ أمّه تقول: "إن أخيك يتعاطى المُخدِّرات, لقد وجدتُ سجائر ملفوفة بورق المُخدِّرات الخفيف هذا في علبة سجائر يُخفيها أسفل وسادة سريره".

اضطرَّ أمجد أن يتناول الهاتف المحمول مِن على المنضدة, ووضع الهاتف على نظام المكالمة العاديَّة وصرخ: "أيّ ورق مُخدِّرات؟ أتقصدين ورق البَفْرَة؟"

الأم بعصبيَّة مُفرطة: "هل هذه هي مشكلتك؟ اسْم الورق؟ أنا أُخبرك أنَّني وجدتُ مُخدِّرات أسفل وسادة سرير أخيك الصَّغير, وأنتَ تهتم باسْم الورق؟"

قال أمجد على مضض: "لا يا أمّي. أنا أقصد, هل أنتِ.. هل أنتِ متأكِّدة مِن أن ما وجدتيه هو مُخدِّرات فعلاً؟"

صرخت الأم: "الله يرحمك يا أحمد, وَلَدَيكَ الأثنين, أحدهما سيصبح مُدمناً ويفسد عقله, والآخر أخرقاً بالفعل".

سأل أمجد: "هل إيهاب عندكِ؟ أريد أن أتحدَّث معه".

الأم: "لا. لقد خرج منذ أن واجهته بالسجائر. ولا أدري أين ذهب, حَتَّى لا تتذاكى وتسألني عن مكانه".

قال أمجد إلى أمّه محاولاً تهدأتها: "اِنتظري قليلاً يا أمّي. سأتحدَّث معه, ثُمَّ سأعاود الأتصال بكِ مِن جديد". أغلق. واتصل بأخيه.

(جارٍ الاتصال بإيهاب...)

فتح إيهاب بسرعة كأنَّه كان ينتظر هذه المكالمة قائلاً: "أقسم إليك بالله أن هذه السَّجائر ليست ملكي. لقد نساها صديقاً لي على الكافيه شوب فاضطرَّرتُ أن آخذها, ونسيتُ أن أعطيها إليه فيما بعد".

أخبره أمجد أن يعود إلى المنزل. ولا يتحدَّث مع أمّه ولا يطلب مِنها مالاً, وأنّه سوف يُعطيه ما يريد عندما يعود يوم الخميس. وأثناء الحديث حاول كاظم الاتصال بأمجد, لكن أمجد تجاهل هذا حَتَّى أنهى الحديث القصير للغاية مع أخيه. ثُمَّ أغلق. ووضع الهاتف على المنضدة لِيشرب الماء. بِمُجَرَّد

أن وضع قنينة الماء على شفتاه صاح هاتفه رنيناً. أنزل القنينة. تناول الهاتف بغضب مكظوم. نظر فيه.

(كاظم يتصل بك...)

صرخ أمجد. ضغط على زِرّ الرَّد. صاح الهاتف المحمول بصوت كاظم, كأنَّه يتعرَّض لِمحاولة اغتصاب أو ما شابه: "أمجد. يجب أن تعود إلى المَصَحَّة في الحال. لقد حاول أستاذ محمود العربي أن ينتحر في غرفة الحجز الانفراديّ مرَّة أخرى. عُد إلى المَصَحَّة في الحال, إنَّني أنتظرُك".

فُزع أمجد وهرول إلى خارج الشَّقَّة. خطى الدَّرج بسرعة بالغة حَتَّى أن قدمه زَلَّتْ على إحدى الدَّرجات وجُرِحَتْ. لكنه تماسك في الدَّرابزين وأكمل نزولاً إلى سيَّارته. دلف إلى السَّيَّارة وانطلق بها سريعاً, مُحدثاً صوت صرير مرتفع. في غِضوض دقائق قليلة للغاية وصل إلى المَصَحَّة, اقتحم باب المَصَحَّة الرَّئيسيّ, كان هُناك حشداً صغيراً بجانب البوابة. أشاروا إليه حَتَّى يدخل إلى غرفة العمليات, المجاورة مباشرةً للبوابة الرَّئيسيَّة. دخل إلى غرفة العمليات الضَّيِّقة. وجد أستاذ محمود مُستلقي على سرير حديديّ صدأ. لون

وجهه باهت وشاحب للغاية. جسده في حالة سُكُون تامة, وقطع بطول حوالي ستة سنتيمتر في معصم يده اليسرى, بالضبط في نفس مكان الجرح القديم. أرضيَّة الغرفة مُغطاه بدماء داكنة تميل إلى القطع المتجلِّطة بعض الشَّيء. يرتدي أستاذ محمود قميصاً أبيضاً خفيفاً تحوَّل لونه إلى الأحمر. حاول أمجد عبثاً أن يوقف النَّزيف. خرج كل مَن في الغرفة وأصبحت خالية تماماً إلا مِن الطَّبيب والمنتحر. ثوانٍ ووصلت سيَّارة إسْعَاف لِتنقله إلى المشفى. صوت صياح السَّيَّارة كأنَّه عواء. زاد الصَّخب للغاية. أصبحت الأجواء خانقة, والطَّبيب الشَّاب يتعرَّق بشدة, يداه ترتعشان, وتركيزه مُشتَّتاً, يتنفَّس بصعوبة بالغة, الهواء ثقيلاً في صدره. فجأة تذكَّر ما حدث لوالده, لأول مرَّة يهاجمه هذا الكابوس وهو مُستيقظاً, الكابوس الذي لطالما راوده على سريره في الإسْكَنْدَرِيَّة. الثَّلاث رصاصات التي تخرج مِن مسدَّس ساقية وتخترق صدر أستاذ أحمد الإسكندراني المحامي, والشَّاب المُلَثَّم ذو جرح المُثلَّث الصَّغير في معصم يده اليسرى. يكبر هذا المُثلَّث ويكاد أن يبتلع أمجد, يتذكَّر كيف كان مُجَرَّد فتى صغير ساقطاً على الأرض بجانب والده الغارق في دمائه,

حَتَّى استفاق أمجد الطَّبيب مِن هذا الكابوس وأكمل محاولته البائسة. لكن, لا نبض. فقط صراخ وصيحات مِن رجال الأسعاف وهُم يحملون القتيل ويدخلون به إلى عربة الإسْعَاف. فجأة ساد الصَّمت المكان. صمتاً طويلاً صريراً, لا يَسِمَعُ أمجد سوى خطواتها المُتفتِّتة, وأنينها المكتوم. إنَّها الشَّابة الواقفة خلف نافذة عنبر الرِّجال, تكتم أنينها بكلتى يداها. هرع الكل خلف سيَّارة الإسْعَاف. وتبقَّى أمجد وحيداً, جالساً على عتبة باب المَصَحَّة الرَّئيسيّ, مُستنداً إلى أحد قوائمه العريضة. ولا يَسِمَعُ سوى صَمْتٌ ينخر في أذنيه, صَمْتٌ ذو طنين مُرْعِب يُمزِّق تلك الطَّبقة الرَّقيقة في أذنيه. طبقة خفيفة مِن غبار أرضيَّة الحديقة, ذلك الغبار المتطاير في أثر الرَّاكدون خلف سيَّارة الإسْعَاف, الغبار الذي تتخلَّله أشعة ضوء زرقاء وحمراء تصدر مِن مصباح مُستطيل أعلى سيَّارة الإسْعَاف.

ما هي إلا دقائق معدودة, وعاد الجميع بصخبهم مرَّة أخرى إلى المَصَحَّة. مازال أمجد جالساً عند العتبة, صامتاً لا يتحرَّك, ولا يصدر أصوات. انقضت ساعات في هذا الصَّخب والصُّراخ. مرَّت هذه السَّاعات على الطَّبيب كأنَّها ثوانٍ

معدودة سقط فيها خارج الزَّمن. بعد هذا عاد الكل إلى مكانه. أُغلق باب المَصَحَّة الرَّئيسيّ. عادل وهيمة صامتان بجانب نار راكية الشّاي. نهض أمجد وسار حَتَّى وصل إلى شجيرة الياسمين في الحديقة الخلفيَّة, خلف مبنى المَصَحَّة. لم يجد ياسمين. لمس الشُّجيرة بيده لمسة خفيفة. ثُمَّ عاد إلى سيَّارته. دلف إليها وقادها إلى شَقَّته. أخرج الهاتف مِن جيبه. نظر فيه.

(8 مكالمات لم يرد عليها أحد)

أغلق الهاتف. أوصله بالشاحن الذي كان لا يزال مُتصلاً بالكهرباء. وخلد إلى النَّوم, كأنَّه صريع حرب.

لم تنمْ ياسمين هذه اللَّيلة. أخذت وضع القرفصاء راقدةً على الأرض, جسدها أحمراً مِن شِدة الخوف, نحيفة للغاية, بدت كأحد المومميوات المُكتشفة حديثاً في شمال بلاد فارس. تكوَّمَتْ على الأرضيَّة بجانب نافذة العنبر. بالصمت والسُّكُون قضت ليلتها الطويلة. حَتَّى تنفَّس الصَّباح, وما الإصباح مِن الليل بأمثلِ. بالكاد تماسكت حَتَّى وصلت مُرهَقةً إلى سريرها, تُعيها أضواء المصابيح النِّيون الصَّاخبة, التي تُهاجم عينيها

بلا رحمة أو شفقة. تُغمض عينيها بقوة, إلا أنّ الضَّوء كان قوياً, يخترق طبقتي جفنيها المُرهقتين, يؤلمها الضَّوء, كأنَّه موسي حلاقة يُقطع شرايين مقلتيها النَّاعستين, كما قُطِعَتْ الشَّرايين والعروق في معصم أبيها. كلما أغمضت عينيها أكثر, كلما شاهدت الدِّماء أكثر وأكثر. غير مُنتبهة تماماً, للطبيب الشَّاب الذي يقضي يومه بطوله, إمَّا ماراً مِن أمام نافذة العنبر, وإمَّا واقفاً أمام النَّافذة بالدقائق الطَّويلة كلما أرهقه خوفه عليها. لا تُلقي بالاً إلى الوجوه الجديدة التي جائت واقتحمت المَصَحَّة, يرتدون بذات أنيقة, وآخرون يرتدون ملابس بوليسيَّة, يُحقِّقون, ويطرحون الأسئلة, يُدوِّنون, ويُصوِّرون المَصَحَّة برمتها, ويرفعون الأدلة مِن غرفة الحجز حيث الدِّماء الغزيرة الجافة, مروراً بالطُّرقة التي تساقطت فيها بعض قطرات الدِّماء, وحَتَّى آخرها بالقرب مِن البوابة الرَّئيسيَّة وداخل غرفة العمليات الرَّثة. يُصوِّرون نقاط الدِّماء التي تطايرت على السِّيراميك الأبيض ذو المربعات الضَّيِّقة.

أسئلة صارخة تتطاير في الأجواء:

- كيف حصل أستاذ محمود العربي على موسي الحلاقة؟

- مَن الذي مرَّر إليه موسي الحلاقة؟
- هل هذه هي المرَّة الأولى التي يحاول فيها الانتحار؟

وفجأة, خيَّم الهدوء, هربت الوجوه سريعاً, هدأت الأجواء, اختفى الطَّبيب الشَّاب وكفَّ تماماً عن المرور مِن أمام النَّافذة, عاد كل شيء إلى حاله الأول, عادت وَحشة السُّكُون بأنيابها, وطنين الصَّمت أصبح أكثر صريراً. أُغلقت القضية. بموسي حلاقة, التقطته أستاذ محمود العربي مِن الحمَّام الكائن خارج المَصَحَّة. قتل نفسه بيديه. انتحر. انتقل إلى بُعْداً آخراً. أصبح عدماً. وأمست النَّداهة يتيمة الأب والأم, حَتَّى إشعار آخر.

إنَّه يوم الخميس الذي ينقضي سريعاً دون جلل. لكن هيهات ينقضي اليوم سريعاً دون جلل, حُضِّرَتْ ياسمين لِجلستها الكهربائيَّة. كانت تصرخ بعُنف. تُحاول الإفلات مِن بيد أيادي الممرِّضات والعاملين. لكن لا جدوى مِن محاولاتها البائسة. سَمِعَ أمجد صوتها يأن في آخر الرُّواق. هرول نحوها بدافع المُساعدة. عندما رأته... كأنَّها رأت ملاكاً مُنقذاً, كأنَّه المسيح المُخلِّص بنفسه جاء على حماره دون بَرْدَعَة,

ودون سيف. أخذت تصرخ اسمه وتستنجده: "أمجد. أرجوك ساعدني. لا تجعلهم يأخذوني هُناك. أرجوك".

اندفع الشَّاب نحوهم لِيُثنيهم عمَّا يصنعون. لكن تصدَّى له هاني مطر, ودفعه في صدره قائلاً: "اهدئ أيُّها الطَّبيب... هذا لِمصلحتها, هذا هو عِلاجُها".

تراجع أمجد واستدار, حاول عبثاً أن يَصم أذنه عن صراختها البريئة التي كانت تُمزِّق عضلة قلبه. لكن *"هذا لِمصلحتها"* كما قال المُتخصصِين النَّفسيين.

أغلق العَمّ صابر البوابة. دلف المدير هاني مطر إلى سيَّارته وذهب في طريقه, بدأ الليل في بسط جُنحه. أوقف كاظم سيَّارة أجرة وذهب إلى منزله. دلف إلى سيَّارته, ذهب إلى شَقَّته, أخذ حقيبة الملابس ووضع بها بعض الملابس غير النَّظيفة التي استخدمها طيلة الأُسبوع, نزل مِن الشَّقَّة إلى سيَّارته مرَّة أخرى, قادتها حَتَّى وصل إلى الشَّارع الخلفيّ للمَصَحَّة, نظر وهو في جالساً في السَّيَّارة إلى شجيرة الياسمين, لا أحد بجانبها, استسلم أمجد. زفر الهواء ثقيل إلى خارج صدره, وسافر إلى منزله في الإسْكَنْدَرِيَّة.

بعد أربع ساعات مِن السَّفر الممل, وصل إلى منزله في منطقة المعمورة. مُرهَقاً صعد الدَّرج إلى الشَّقَّة, فتحها ظاناً أنَّه سوف يستلقي على السَّرير دون حركة, مجهداً مِن السَّفر. إلا أنّ ظنونه التي لا تشتهي شيئاَ إلا السُّكُون, لم تكْ في محلها. نشب شجار آخر جديد مع أمه. يحاول أمجد أن يُقنعها بفكرة استكمال الشِّجار في الغد, إلا أنّ أمّه تأبى ذلك. تتحسَّر مدام منال على موت زوجها الذي كان يُدير الأسرة بحكمة وانضباط شديدين, وتُواسي نفسها في حظها السَّيء مع ابنها الكبير الذي يحاول جاهداً أن يهرب مِن مسؤوليَّة تحمل أعباء الأسرة المنكوبة منذ اليوم الأول الذي مات فيها ربَّها, وتندب حظها في ابنها الأصغر الذي شقَّ لِتوه طريقاً إلى الإدمان. قالت الأم وعينيها تختلجان بالعبرات, وصوتها يختنق بالأنين: "لقد اتصلتُ بالمُعلمين, وأخبروني جميعاً أن أخيك إيهاب لا يحضر دروسه ولا يدفع الشَّهريَّة منذ حوالي شهرين". ثُمَّ بدأت عينيها تدمعان بالفعل.

إلا أنَّ دُمُوع منال لم تؤثِّر في ابنها, الطَّبيب أمجد, ولم تُحرِّك فيه ساكناً. فسألها بشيء مِن البرود: "أين إيهاب؟"

جلست منال على مقعد السُّفرة الكائنة في المطبخ, وقالت بتنهيدة: "إنَّه في غرفته". وأشارت بيدها نحو الغرفة قاصدةً أن يدخل إليه أمجد لِيتحدَّث معه, ثُمَّ وضعت رأسها بين راحتيها.

دخل أمجد الغرفة. فوجد أخيه جالساً على مقعد بجانب مكتب خشبيّ صغير, ثُمَّ نهض منتصباً عندما خطى أمجد نحوه عِدَّة خطوات. وسأل أمجد بصوت خشن بعض الشَّيء: "هل ما تقوله أمّك صحيح؟"

قال إيهاب باحترافيه, كأنَّه تدرَّب على إجابة هذا السّؤال لِساعات طويلة: "أقسم لك أنَّني لا أتناول أيّ مُخدَّرات, إن علبة السَّجائر تلك تعود إلى أحد أصدقائي وقد نساها معي". ملامح وجه أمجد جامدة ومُرّهَقة, فقال إلى إيهاب: "أنا لا أسألك عن علبة السَّجائر أو المُخدِّرات. أنا أسألك عن هروبك مِن الدِّروس الخُصوصيَّة التي أخذتَ المال مِن أمّك مِن أجلها".

بلع إيهاب ريقه وقال سريعاً: "لا. بالطبع لا... أناا... أنا أذهب إلى كل دروسي".

نظر أمجد للحظة إلى عيناه المتوتِّرتان, ثُمَّ لطمه فجأة وبقوة على وجهه. وأمسكه مِن ياقة قميصه وصرخ فيه: "هل أنا فتى صغير مثلك حَتَّى تكذب عليّ", ولطمه على وجهه مرَّة أخرى. فدفعه إيهاب في صدره صارخاً فيها: "أنتَ لستَ أبي. أبي تركني منذ زمن طويل, حَتَّى قبل أن أدرك معنى وجوده في هذا البيت. والآن, وبعد هذه المُدَّة الطَّويلة, تأتي أنتَ اليوم حَتَّى تلعب دور الأب في هذه الأسرة المحطمة؟! لا. لا لن أسمح لك أن تُدمِّر حياتي مثلما فعلتَ في حياتُك". ثُمَّ صدم أخيه مرَّة أخرى عندما كان يندفع سريعاً نحو الصَّالة. فاستوقفته أمه, لكنه أبى أن يقف, وفتح باب الشَّقَّة ونزل إلى الشَّارع مُهرولاً, فيما كانت الأم الخائفة تُنادي بحرقة على ولدها الطَّائش.

أغلقت الأم باب الشَّقَّة. عادت إلى أمجد الذي جلس ساكناً على سريره. غمغمت ببعض الجُمَل التي لم ينتبه عليها أمجد ثُمَّ خرجت وأغلقت باب الغرفة وتركته جالساً في صمت.

عادت الأم بعد خمس دقائق بالضبط, وصاحت في أمجد بنفس النَّبرة الحادة التي تُحاول بها أن تتغلَّب على خوفها: "ألن تذهب حَتَّى تبحث عن أخيك؟ لقد اتصلتُ به لكن هاتفه

المحمول مغلقاً". نهض أمجد برويَّة, مُتعباً مِن إرهاق العمل والسَّفر. نزل مِن الشَّقَّة قاصداً الذَّهاب للبحث عن أخيه وأغلق باب الشَّقَّة خلفه. ثوانٍ معدود وطُرِقَ باب الشَّقَّة ففتحت مدام منال. عاد أمجد سريعاً وأخيه- الذي ظلَّ واقفاً على الدَّرج- في يده. فاختطفته الأم مِن أسفل يد أخيه وحضنته كما لو كان يعمل في إحدى دول الخليج منذ زمن وعاد على غير موعد. وقف أمجد فاغراً الفم يُشاهد انفعالات الأم الغريبة ثُمَّ قال بنبرة مُرهَقة على نحوٍ مفرط: "هل يمكنني أن أنام الآن؟" لم تجبه الأم وتجاهلته تماماً. استغل أمجد تلك الفرصة السَّانحة, أحياناً يكون تجاهلك ميزة, ودخل إلى غرفة نومه واستلقى على السَّرير. ما هي إلا لحظات وأصبح في سُبات عميق, كأنَّه إحدى القوارض البرِّية التي دخلت في بياتها الشِّتويّ.

فتى أمرداً, يسير مع أبيه في إحدى شوارع الإسْكَنْدَرِيَّة ليلاً. لا يوجد إلا هُما في الشَّارع الجانبيّ الذي احتلته الظُّلمة بعض الشَّيء. يحمل الفتى عِدَّة حقائب بلاستيكيَّة مملوءة بملابس العيد الجديدة. وارتسمت على وجه الأب ابتسامة صافية, ابتسامة رجل مُتصالحاً مع نفسه, بجسد طويل نحيف

لا يشوب نحافته إلا بطناً منتفحة دهنية كحال جميع أرباب الأسر. فجأة يختطف أحد الملثَّمين الذي ظهر مِن العدم الحقائب البلاستيكيَّة مِن يد الفتى الذي كاد أن يسقط على الأرض. هدَّدَ الأب وابنه بمسدَّس ساقية وعينان حمروان تشعان غضب في العتمة. يكاد يُقسم أمجد أنَّه شاهد ضوء أحمر ينبعث مِن عينيه, نظر المُلَثَّم نظرة سريعة داخل الحقايب, لا شيء فيها ذو قيمة, فألقى الحقائب على الأرض, وصرخ في الأب أن يُعطيه محفظته. أخرج الأب المحفظة مِن جيب بنطاله الخلفيّ, ومرَّرها إليه على الفور. انشغل المُلثم الفتيّ بالنظر داخل المحفظة, فقفز الأب عبثاً نحوه, قفزة غير صائبة, فأطلق المُلثَّم الفتيّ ثلاث رصاصات في صدر الأب, فأرداه قتيلاً. في هذه اللَّحظة, نهض أمجد مفزوعاً مِن نومه. نظر في هاتفه المحمول, السَّاعة الثَّالث فجراً. أخيه نائماً في السَّرير المجاور إليه. نهض وأنامل أصابعه ترتعش رعشة خفيفة. خرج إلى الصَّالة. ثُمَّ إلى الحمَّام. حصل على حمَّامه البارد, وعاد للنوم مرَّة أخرى.

نهض مِن النَّوم مع أصوات قرآن صلاة الجمعة. توضَّأ وهَمَّ بالنزول للصلاة في المسجد. أخبرته أمّه ألا يذهب إلى

أيّ مكان لأنَّهُم معزومون اليوم عند خطيبته. تمتم أمجد بصوتاً مُغْمِغَماً وأغلق باب الشَّقَّة خلفه كاظِمَاً غَيظه.

بعدما تناول الغذاء مع خطيبته في منزلها. جائت هند بصينيَّة الشَّاي ووضعتها على المنضدة الصَّغيرة الأنيقة. ناولت أمجد كوباً مِن الشَّاي, فتذكَّر أمنيَّته لِشرب كوباً مِن الشَّاي بالياسمين مع النَّزيلة الحسناء بجوار شجيرة الياسمين. فضحك بصوت قائلاً إلى نفسه بالهمس: "ياسمين". نظرت إليه هند وسألته في حضرة أمّها وخالتها: "مَن هي ياسمين؟" وابتسمت ابتسامة تنطوي على اهتمام وقلق شديدين. انتبه أمجد إلى حديثه وقال: "ماذا؟ مَن ياسمين؟"

قالت هند بشغف حاولت جاهدةً أن تكتمه فأبدت ملامح التَّعجب: "أنتَ مَن قلتَ ياسمين!"

تنفَّس أمجد محاولاً الفكاك خجلاً: "لا. لا أنا قلتَ شاياً بالياسمين".

اطمئنت هند وعادت إلى حيائه اللطيف مُجدَّداً. وضع أمجد وجهه في الأرض, وابتسم ابتسامة جانحة إلى الخلف

بالذكرى اللطيفة أسفل شجيرة الياسمين. فصدمته أمّه بكوعها دون أن يلاحظها أحد, وأشارت إليه بحاجبيها أن يبدأ في التَّحدُّث إلى خطيبته التي بدأت تشعر بالضَّجر. أومأ أمجد برأسه: "حاضر... حاضر". ثُمَّ التفَّ إلى هند وقال إليها: "تسلم يداك".

نظرت إليه هند وابتسمت بحذر وقالت: "نعم. هل أعجبك الشَّاي؟"

أومأ أمجد برأسه: "بالتأكيد". ثُمَّ صَمَتَ.

هند بنبرة مُتوتِّرة قليلاً: "آسفة ليس لدينا شاياً بالياسمين".

ابتسم إليها أمجد وقال في رفق: "لا يهمكِ. كفى أنَّه مِن صنع يداكِ". وأومأ برأسه في مُحاولة لإرضائها.

أشارت أمّها ميار إليها بحاجبيها. فنهضت هند ودخلت غرفتها ثُمَّ خرجت سريعاً بعلبة صغيرة في يديها. وناولتها إلى أمجد وعينيها في الأرض. تناولها أمجد بحذر ونظر إلى مدام منال التي أشارت إليه بعينيها حَتَّى يفتحها. كانت الاجتماع يعتمد بشكل أساسي على الهمزات واللَّمسات,

حاول أمجد أن يفتح العلبة, لكن أعاقته العقدة الظَّريفة التي كانت ملفوفة حولها. فأسرعت إليه هند: "دعني أساعدُك". وتناولت العلبة وفتحتها سريعاً ثُمَّ ناولتها إليه مرَّة أخرى. إنَّها دبلة فضيَّة ظريفة وأنيقة, حُفر عليها الشّهادتين بخطاً فارسيَّاً مُتقناً. في البداية تلعثم أمجد لكنه تمالك مخارج ألفاظه وشكرها على الهدية غير المتوقعة, أو المتوقعة بالنسبة إلى أيّ شخص آخر. انتبه إلى صوت والدته منال وهي تقول بضحكتها الخاصة بالمناسبات شبه السَّعيدة: "وأمجد أيضاً أحضر إليكِ هديَّة". ونظرت إليه منتظرة أن يعطيها هديتها المزعومة. انتبه أمجد إلى السِّتة أعين المنتبهة بشغف وحِرص, أعين أمّه وخالته وخطيبته. تصلَّبت ملامح وجهه, وفغر فمه كعادته في مثل هذه المواقف. ضحكت أمّه وأخبرته أن الهدية في جيب البلزر الذي يرتديه, ثُمَّ نظرت إلى هند التي بدت عليها ملامح الصَّدمة وقالت: "آه آسفة. لقد نسى أين وضع الهدية ليس أكثر. لكنه بالطبع لن ينسى خطيبته الجميلة".

وضع أمجد يده في جيب البلزر الذي يرتديه وأخرج علبة شبية تماماً بالعلبة التي أعطتها إليه هند. فأدرك أن أمّه

وضعتها في جيبه عندما كان في السَّيَّارة, بل والأكثر مِن هذا, أدرك أن العلبة بها دبلة نسائيَّة رقيقة للغاية عليها الشَّهادتين وَرُبَّمَا الحرفين الأولين مِن اسميهما "ميم أمجد, هاء هند". وَرُبَّمَا أيضاً يكونان بالانجليزيَّة. يا للهول. وظلَّ ينظر إلى العلبة التي أخرجها مِن جيبه فاغراً الفم, يتصوَّر ما قد تجده هند في داخلها, حَتَّى صدمته أمّه بكوعها لكن هذه المرَّة لاحظها الجميع وهي تصدمه. فناولها أمجد إلى هند على عجل. تناولتها هند بسرعة وفتحتها بسرعة, لقد كانت خبيرة في فتح الهدايا, إنَّها دبلة ذهبيَّة, بالضبط كما توقعها أمجد, لكن مِن دون الحرفين الكبيرين باللغة الانجليزيَّة.

عاد أمجد في المساء مع أمه, مُستسلماً إلى الأمر الواقع. تناول العشاء مع أمّه وأخيه, الذي أخذ وقتاً طويلاً حَتَّى يقنعه بأن يتناول معهما الطَّعَام. ثُمَّ دخل إلى غرفته وخلد إلى النَّوم. وككل ليلة اِستيقظَ أمجد في تمام السَّاعة الثَّالثة على ثلاث رصاصات صاخبة.

إنَّه يوم السَّبت. قضاه أمجد على كورنيش الإسْكَنْدَرِيَّة, يُفكِّر في ياسمين وشجرتها. يتذكَّر كيف مات أستاذ محمود العربي ودمائه التي خَضَّبَتْ الأرضيَّة. بالرغم مِن قضائه

اليوم بطوله على الكورنيش بين المارة, إلا أن اليوم ذهب سريعاً, عاد أمجد إلى منزله في المعمورة مع صلاة المغرب. جَهَّزَ حقيبته. ودَّع أمّه وأخيه. ثُمَّ سافر مرَّة أخرى عائداً إلى القاهرة, إلى عمله. عائداً إلى ياسمين.

ثلاث ساعات مِن السَّفر المُرهِق, كانت كفيلة بأن تُقنع الطَّبيب الشَّاب أن يذهب إلى شَقَّته ويرتمي على سريره دون حراك, لكنه فَضَّلَ أن يمرَّ أوَّلاً على شجيرة الياسمين في الحديقة الخلفيَّة للمَصَحَّة. كان الظَّلام شِبه حَالِكَاً, تَرَجَّلَ مِن السَّيَّارة. نظر نظرةً فاحصة وهو واقف خلف قضبان السُّور الحديديّ, لا أحد بجانب الشُّجيرة, ويُخَيِّم الهدوء الذي لا يشوبه سوى صوت حفيف الهواء بأوراق النَّخيل والشَّجر. دلف مرَّة أخرى إلى سيَّارته وقصد شَقَّته لِينال قِسط مِن الرَّاحة.

وضع أمجد رأسه على الوِسَادة الباردة كلوحاً مِن الثَّلج, اِستمتعَ بلمستها النّاعمة, فغاص سريعاً في نوماً عميقاً. بعد ساعة مِن النّوم العميق, تَحوَّلتْ الوسادة البّاردة إلى جمراً مُشتعلاً. رأسه يسكب عرقاً غَزِيرَاً, ارتفعد درجة حرارة جسده الأسمر. أصبح النَّوم ثقيلاً فجأة, وكأنَّ هُناك صخرة

كبيرة جاثمة فوق صدره, وألماً ضاغطاً يُوغِرُ حنجرته. فنهض مِن النَّوم رويداً رويداً, الغرفة حالكة الظَّلام, بالكاد يرى راحة يده. جلس على السَّرير, مُصاباً بدواراً خفيفاً. نهض عن السَّرير وسار حَتَّى باب الغرفة, ثُمَّ ضغط على زِرّ إضاءة المصباح. فهجم ضوء المصباح الأصفر على عيناه الواهنتين, ظلَّل بيده علي عيناه, وما هي إلا ثوانٍ وأدرك أنَّه يُفضِّل الظَّلام على آلام الضُّوء الأصفر, فأغلق المصباح مرَّة أخرى, وعاد حَتَّى يجلس على سريره. ما هي إلا لحظات معدودة وعاد إليه هذيانه الحلو: *تَخَيَّلَ أنَّه في منزل مُرِيح, تحديداً في المطبخ. جَالِسَاً على منضدة السُّفرة. وياسمين, صاحبة الوجه الخمريّ, طويلة القامة بشعر أصفر داعبته أشعة الشَّمس فلمع كالذهب المضآء, واقفة مِن خلفه, تمسِّج له رقبته المُرْهَقة, وطَبَعَتْ قُبلة حارة عليها. عندها دخلت فتاة صغيرة حوالي أربع سنوات, نُسخة كربونيَّة مِن ياسمين, أسرعت إليه قائلة بصوت ملائكيّ ليس مِن عالَمنا: "بابي, بابي". فحملها ووضعها على رجله اليمنى. عندها طُرِقَ الباب. فالتفت إليه ياسمين, وسارت حَتَّى تفتحه. خرجت مِن المطبخ وما هي إلا ثوانٍ, وسُمِعَ صوت صراخها*

عالياً. فنظر إلى ناحية قدوم صوتها, وضع ابنته على الأرضيَّة, وهَمَّ بالوقوف. وسار حَتَّى وقف على العتبة بين المطبخ والصَّالة, ثُمَّ هرول بقوة خارجاً إلى الصَّالة. وظلَّت الفتاة الصَّغيرة واقفة وحدها في المطبخ وهي تنادي: "بابا أمجد". لكنه لم يهتم بنداء ابنته, عندما وجد ياسمين رازحة على أرضيَّة الصَّالة, وبجانبها زُهْريَّة مِن الفُخَّار الصِّينيّ, مُحطمة إلى شظايا ومُتناثرة حولها, فهَمَّ مُسرعاً نحوها, إلا أن صوت الطَّرق العنيف على باب الشَّقَّة قد استوقفهُ ــ

اِستيقظَ أمجد مِن هذيانه الحلو ــ على صوت طرق عنيف على باب شَقَّته. فهرع إلى باب الشَّقَّة, الذي سَكَتَ الطرقُ عنهُ فجأة. فَتَحَ الباب بزخم, فوجد هيمة يستدير حَتَّى ينزل سريعاً على الدَّرج. لكنه عاد ونظر إلى باب الشَّقَّة مرَّة أخرى عندما سَمِعَ صوت الطَّبيب أمجد يسأل بشيء مِن الاندهاش: "هيمة؟!". ثُمَّ خطى خطوتين إلى خارج الشَّقَّة وسأل باهتمام شديد عندما رأى ملامح الذُّعر على وجه هيمة: "ما الذي حدث؟ وكيف عرفتَ مكان شقَّتي؟"

قال هيمة مُضطرباً بشدة وقد اختلج الذُّعر بحديثه فحَطَّمَ مبنى جُمَلِه تماماً: "أنت.. تأتي معي. يجب أن تأتي إلى

المَصَحَّة. الجميع ينتظرك, ياسمين, أظنَّني رأيتُ دماء على جسدها". انفعل أمجد عندما سَمِعَ الكلمتان "ياسمين ودماء". اتسعت حدقتيّ عيناه ودلف بظهره إلى الشَّقَّة مرَّة أخرى. هيمة واقفاً في مكانه لا يزال مُشتَّتاً, يستمع بذعر إلى صوت أشياء تتساقط داخل الشَّقَّة. ثُمَّ نزل سريعاً, قاصداً المَصَحَّة. خرج أمجد مِن الشَّقَّة, لم يَجِدْ هيمة, فأغلق باب الشَّقَّة وخطى الدَّرج سريعاً. لا أحد في الشَّارع, إنَّها الثّانية قبل الفجر, هذا ما تقوله ساعة يد أمجد, الذي دلف إلى سيَّارته وهرول بها نحو المَصَحَّة.

وصل سريعاً, ومنفعلاً بما تصوره. زاد الصَّخب الذي لم تُعرف به المَصَحَّة ليلاً مِن اضطرابه, دلف سريعاً إلى باب المَصَحَّة المفتوح على غير عادته في الليل, نظر نظرة سريعة داخل غرفة العمليات, ظانٍ أنَّه سيجد ياسمين مُقطَّعة الأوردة مثل أبيها. لكنه وجد غرفة العمليات فارغة. ثُمَّ لمح الجميع يقفون في آخر الطُّرقة الطَّويلة, أسرع إليها. اِتسعَتْ حدقتيّ عيناه عندما وجد ياسمين ملقاه على الأرضيَّة بالضبط بنفس الوضعيَّة التي رآها منذ قليل أثناء هذيانه, ويقف الجميع حولها ويصرخون فيما بينهم بصوتاً صاخباً.

هرع أمجد إليها, تفحَّص معصميها, لا أثر لِمحاولات انتحار, فقط جرح صغير في كتفها الأيمن, وقطع في ملابسها. فحملها سريعاً إلى غرفة استقبال الزُّوَّار, أجلسها على مقعد, ثُمَّ خاط الجرح برفق بعد أن نظَّفه.

بعدما استفاقت ياسمين مِن حالة الإغماء, ظلَّت تبكي خائفة وملامح الذُّعر على وجهها. حاول أمجد جاهداً أن يُهدِّأها, وبعد أكثر مِن نصف ساعة هدأت أخيراً, وارتمت نائمة في صدره, تروي إليه ما حدث بصوت يشوبه التَّنهيدات المؤلِمة.

بعد أن هدأت تماماً. خلدت إلى النّوم على أريكة جلديَّة صغيرة. تركها أمجد على الأريكة وخرج إلى الطُّرقة, يسأل عن سعيد بصوت غاضب. فأخبره هيمة أنَّه حبسه داخل غرفة نوم العُمَّال. بعد أن أوقف هيمة وعادل الجريمة التي كاد أن يفعلها. سار أمجد في الطُّرقة, يخطوها سريعاً, فاستوقفه هاني مطر الذي وصل لِتوه, لكنه أبى أن يقف, ومرَّ بجوار الحاج أحمد الأعرج الذي لم ينهض على النَّظر نحوه, وقبل أن يصل إلى باب غرفة العُمَّال خرج سعيد مِن الغرفة, فقابله أمجد بلكمة قوية أسقطته على الأرض. وقال

إليه بصوت صارخاً: "يا كلب, يا خسيس, إنَّها فتاة يتيمة, يا كلب. كيف تجرؤ على التَّهجُّم عليها, أيّ نوعٍ مِن البشر أنت؟" وسار نحوه لِيكمل شجاره, فنهض سعيد سريعاً وقال بصوت مرتفع يُظهر ضعفه: "إن كنتُ أنا كلب وخسيس فأنتَ خائن". فوقف أمجد منتبهاً, وانتبه الجميع كذلك, فأكمل سعيد: "لقد رأيتُك معها ليلاً في الحديقة الخلفيَّة, أليست هذه خِسة وخيانة أيضاً؟" عندها صرخ فيه عَمَّ صابر أن يصمت ولا يتفوه بهذه الكلام الكاذب. صرخ سعيد مرَّة أخرى مُحدِّقاً في عينيّ العَمّ صابر: "وأنتَ أيضاً. أنتَ قاتل, لقد رأيتُك أنتَ أيضاً, رأيتُك وأنتَ تُمرِّر موسي الحلاقة إلى أستاذ محمود العربي, مِن أسفل عتبة باب الحجز الانفراديّ". عندها لطمه أبيه الحاج أحمد الأعرج وصرخ فيها أن يصمت. فهرع سعيد في الطُّرقة خارجاً مِن البوابة الرَّئيسيَّة, واختفى تاركاً الجميع في ذهول تام, يُرسِلون النَّظرات المُتسائلة إلى بعضهم البعض.

حَتَّى قطع عادل هذا الصَّمت وقال: "حسناً. على الأقل ياسمين ليست نداهة". ثُمَّ ذُعِرَ عندما وجدها واقفة بجانبه عند باب غرفة استقبال الزُّوَّار.

بعد دقائق قليلة, اختفى الجميع بهدوء. دخل العَمّ صابر إلى غرفته. أخذ عادل وهيمة مكانهُما أمام البوابة الرَّئيسيَّة وافتتحا الاستديو التَّحليليّ للواقعة فيما بينهما, خرج الحاج أحمد الأعرج خلف ابنه. حَتَّى هاني مطر كان تحت تأثير الكحوليات فذهب حَتَّى يغسل وجهه ويحتسي فنجان قهوة داكنة. أُدخلت ياسمين إلى سريرها في عنبر النّزلاء... ظلَّ أمجد واقفاً في الطُّرقة المظلمة يراقب ياسمين حَتَّى غاصت في النَّوم.

دعاه هاني مطر إلى مكتبه. فدخل أمجد.

كانت هذه هي المرَّة الأولى التي يدخل فيها أمجد مكتب مدير المَصَحَّة, على الرَّغم مِن مُلاصقتها لِغرفة الأطباء, وموقعها الكائن أمام نافذة العنبر بالضبط.

كانت غرفة عاديَّة, مكتب خشبيّ, يتقدمه مقعدان أصابتهما الرَّتامة, نافذة ضيِّقة مكتومة بسلك حديديّ ضيِّق الثِّقوب, وثلاجة صغيرة أكلها الصَّدأ, لا شيء مميَّز إلا سرير ضيّق قديم, تعلو قوائمه الأربعة دلافين نُحاسيَّة مرحة. ويتدلى مِن فوق السَّرير, صورة فوتوغرافيَّة قديمة للدكتور هاني تجمعه

بعدد مِن الأطباء والشَّخصيَّات غير المعروفة, لاحظ أمجد أن عوض العارِف يقف بجانب هاني, كانت الصُّورة بعيدة عن عينيّ أمجد فلم يستطع تمييز كل مَن فيها, فاقترب مِنها بعض الخطوات, لكن تركيزه شُتِّتَ عندما سأل دكتور هاني مُخاطباً إياه: "شاي أَمْ قهوة؟ أَمْ رُبَّمَا مشروباً بارداً؟"

استدار إليه أمجد ويدور في رأسه ألف سؤال, لكنه آثر أن يبدأ بأهمها: "بخصوص موسي الحلاقة, هل سعيد على حق؟"

ابتسم هاني بتكلّف وقال: "هل أنتَ حقاً تُضاجع ياسمين؟"

تجمَّدت ملامح وجه أمجد وقال بشيء مِن العصبيَّة: "سعيد لم يقلْ أنَّني أضاجعها!"

أشار هاني مطر إلى أمجد أن يجلس. فجلس. ثُمَّ ضغط على زِرّ صغير على المكتب الخشبيّ, فرنَّ جرس بصوت خافت للغاية صَدَرَ مِن الزِّرّ ذاته. فدخل العَمّ صابر على وجه السُّرعة. فقال إليه هاني مطر: "فنجانين قهوة داكنة لو

سمحت يا صابر". خرج العَمّ صابر وأغلق الباب خلفه, دون كلام.

(ملامح الحيرة والدَّهشة على وجه أمجد وتَشِعَّان مِن عينيه)

نظر إليه هاني وضحك بصوت منخفض وقال إليه: "ماذا؟ تريد أن تعرف؟ كيف عَرِفَ صابر أنَّني ضغطتُ على الزِّرّ؟"

لم يجبه أمجد وظلَّ صامتاً بنظرات الفضول.

أخبره هاني أن الزِّرّ مُتصلاً بمصباح أحمر صغير في غرفة عَمّ صابر. فنهض أمجد بزخم, حيث أنَّه شعر أن سؤاله أصبح في طي النِّسيان. سأل مرَّة أخرى بِجَلَد: "هل سعيد مُحقاً في أمر موسي الحلاقة؟"

أخرج هاني غليوناً مِن درج المكتب. حشاه بالتبغ الهولنديّ الفاخر, ثُمَّ أشعله. وزفر الدُّخان سميكاً مِن فتحتي أنفه. وأشار إلى أمجد بيده اليمنى أن يذهب إلى الصُّورة المتدلِّية على الحائط فوق السَّرير. وقال إليه: "أريدك أن تُدقِّق النّظر في هذه الصُّورة جيِّداً. وتخبرني إن تعرَّفتَ على أحدهما".

لم ينظر أمجد إلى الصُّورة وقال على مضض بشكل تلقائيّ: "عوض العارِف".

أومأ هاني برأسه. انطفأ الغليون. لا دخان يخرج مِنه. أشعل هاني مطر الغليون مرَّة أخرى. ثُمَّ قال وهو ينفخ الدُّخان سميكاً مِن فاهه: "ومَن أيضاً؟"

ارتخت التَّجَاعِيد التي حول عينيّ أمجد, سار ببطء نحو الصُّورة. دقَّق النَّظر فيها جيِّداً, وبعد حوالي خمسة عشر ثانية, لَعَنَ بصوت. ثُمَّ خطى خطوتين ناكصين إلى الوراء بظهره, وقال في ذهول وفضول شديدين: "أستاذ محمود العربي؟!" ثُمَّ نظر إلى هاني الذي كان مشغولاً بنفض غليونه نبيتيّ اللَّوْن في منفضة السَّجائر.

في هذه اللَّحظة دلف عَمّ صابر وبيده صينيَّة صغيرة عليها فنجانين مِن القهوة الدَّاكِنة, برائحتهما الفوَّحَة. وضع الصِّينيَّة على المكتب وخرج دون كلام.

أشار هاني إلى أمجد الواقف في منتصف المكتب أن يجلس, فجلس. وبدأ يشرح إليه الأمر في هدوء: "لقد كُنَّا جميعاً أصدقاء. كُنَّا لا نزال شباباً حينها, أنا و عوض

العارِف, حَتَّى قابلنا المُحامي الفذ الأستاذ محمود العربي. لقد كان أستاذ محمود المحامي الخاص بي وبعوض, هو مَن استخرج لنا كل الموافقات على بناء هذه المَصَحَّة". وفتح يده واسعتين, ثُمَّ أتبع بصوت حزين للغاية: "حَتَّى أصبح هو مِن أوَّل نزلائـها".

اقترب أمجد برأسه إلى هاني, كأنَّه يطلب تفاصيل أكثر دقة. لكن هاني أشاح بنظره إلى الصُّورة المتدلِّية على الحائط, وَصَمَتَ. فقطع أمجد صمته سائلاً: "وكيف دخل إلى هذه المَصَحَّة؟"

قال هاني مطر بأسى: "دخلها بعدما دخلتها زوجته بأُسبوعاً واحداً فقط".

قال أمجد مؤكداً على حديثه: "مدام عِصمت".

"بلى. مدام عِصمت. كانت ياسمين حينها لا تزال ابنة ثمانية أو رُبَّمَا عشرة أعوام لا أتذكَّر جيِّداً. وقد شاهدتْ أبيها سكيراً, يغتصب أمّها بعنف وشراسة أمام عينيها".

قال أمجد مُتعجِّباً: "زوجته؟ يغتصب زوجته؟"

تنفَّس هاني بعمق, ثُمَّ قال: "كانت زوجته تكره, لم ترغب أبداً في الخنوع إليه جنسيَّاً أو حَتَّى نَفسيّاً. وكان هو شاباً, جسوراً لديه مِن الرَّغبات ما قد يكفي امرأة عطشة. وفي ليلة رأس السَّنة, شرب أستاذ محمود العربي وأثقل الشَّراب, وأخذ زوجته غصباً, حَتَّى أنَّها كادت تموت, إلا أن المشفى استطاعت إنقاذها في آخر لحظة. وبعدما استفاقت, لم تتحدَّث, فقدت القدرة على الكلام. بالطبع, لم يُسجن الأستاذ محمود, لأنّه هو الآخر فقد عقله تماماً, وفقد القدرة على الكلام, ودخل المَصَحَّة بعدما دخلت زوجته عِصمت بحوالي أُسبوع واحد فقط".

سأل أمجد: "وياسمين؟ وماذا عن ياسمين. ما الذي حدث إليها؟"

قال هاني بعدما ارتشف رشفة مِن فنجانه: "لقد عاشت مع خالتها, أخت أمّها غير الشَّقيقة, لكن ما رأته ظلَّ يُطارد مخيِّلتها الصَّغيرة التي انغلقت على ذاك المشهد دون غيره, فدخلت المَصَحَّة بعدهما بحوالي سنتين. ثُمَّ خرجت سريعاً, وظلَّت تعيش مع خالتها حَتَّى سن العشرين تقريباً, كانت حينها في الفرقة الثَّانية في دار العلوم, لكن المسكينة, آه يا

الله. لكن المسكينة عادت إلى هُنا مرَّة أخرى بعدما توفَّت والدتها هُنا في المَصَحَّة, لم تستطع ياسمين أن تعيش حياة طبيعيَّة, فعادت إلينا بنفسها. في البداية كانت تنام في عنبر النِّساء, لكن العنبر أُغلق الآن وتحوَّل إلى مخزن مهجور, وبقيت في عنبر الرِّجال, في السَّرير المجاور إلى أبيها". ثُمَّ ارتشف رشفة مرَّة أخرى وأتبع قائلاً قبل حَتَّى أن يبلع: "وأنصحك بأن تبتعد عن ياسمين, إنَّها مُحطَّمة, وأنتَ رجل خاطب", وأشار إلى الدِّبلة في يده ثُمَّ أتبع: "وهي لن تستحمل صدمة جديدة".

تنفَّس أمجد بعمق, وضع رأسه بين يداه ثُمَّ تذكَّر السُّؤال الأهم, فرفع رأسه مرَّة أخرى وسأل: "وموسي الحلاقة؟ مَن الذي مرَّره إلى أستاذ محمود العربي؟"

هزَّ هاني مطر رأسه يميناً ويساراً وقال: "لم يمرِّره إليه أحد. إن سعيد يهزي بحديث تافه حَتَّى يهرب مِن الموقف الذي سقط فيه. وأبسط مثال على صحة حديثي, أنَّه قد اتهمك أنتَ أيضاً باتهام خطير, وأنا متأكِّد أنَّك لم تلمس ياسمين أبداً".

قال أمجد بقوة: "بالطبع لم أمسسها أبداً".

جذب هانب مطر كتفيه إلى أعلى وَصَمَتَ, هكذا انتهى الحوار المُشَبَّع بالمفاجآت. خرج أمجد مِن مكتب المدير, المواجه تماماً لِنافذة العنبر. لمح النّزيل غالي سعيد غالي واقفاً خلف النّافذة ويُحَدِّق فيه دون رجفة, وبابتسامة عريضة تنطوي على سعادة غريبة غامضة. اقترب مِنه أمجد بعدما أشار إليه غالي بيده اليسرى حَتَّى يقترب مِنه, وسأله عن سِرّ هذه الابتسامة البلهاء غير المبررة. أجابه غالي بسؤال: "هل رأيتَ الدّلافين؟ هل عرفتَ ما أنا بصدده؟ إنَّ الصُّراخ في الحديقة الخلفيَّة يُصَبُ في أذناي كأنَّه رَصَاصٍ مصهور". وضحك بصوتاً مرتفعاً. استدار أمجد عائداً إلى شَقَّته, غير مبال, يتحسَّر على الفتاة ذات رائحة الياسمين.

الفصل السَّابِع.

الاعتراف بالحب فضيلة.

الحياة تستمر, وسوف تستمر. مَرَّ أُسبوع, وأُسبوع آخر. أمجد مُشتَّتاً بين عَمَلِه في القاهرة مِن جانب, وأسرته مِن جانب آخر, الأسرة التي بدأت الفجوة تتسع فيها مع غيابه معظم أيام الأُسبوع. لا تزال ياسمين مُنعزلة على سريرها بعد موت أبيها, الأستاذ محمود العربي. واختفى الحاج أحمد الأعرج وسعيد عن المَصَحَّة تماماً, اختفيا بعد اللَّيلة التي كُشف فيها إلى أمجد كل ما كان يجهله. وبغيابهما, أدرك الجميع مدى أهمِّيَّتهُما, حيث تحوَّلت المَصَحَّة إلى مكان موبوء بالقمامة والغبار, وأصبحت الحمَّامَات نتنة وتفوح منها رائحة البول المُزعجة. وَعَدَ هاني مطر بالتعاقد مع عُمَّال نظافة جُدد, وبالفعل جاء ثلاث عُمَّال نظافة, لكنهم رفضوا البيات في المَصَحَّة ليلاً, وآثروا العودة إلى منازلهم قُبَيل آذان المغرب مع الأطباء وطاقم التَّمريض الصَّغير.

عادت النَّظافة إلى المَصَحَّة مرَّة أخرى. بالطبع ترك الحاج أحمد الأعرج وابنه سعيد فراغاً في المَصَحَّة, لكن الفراغ الحقيقي هو ما شعر به أمجد بعدما امتنعت ياسمين عن الحديث معه تماماً. عندها اضطرَّ أمجد أن يسأل أحد الخبراء النَّفسيّين الذي قد يساعده على فِهْم حالة ياسمين. لم يجد

أمجد أفضل مِن كاظم, الطَّبيب النَّفسيّ المُصاب بالسمنة. بلى, للوهلة الأولى يميل مَن يتحدَّث مع كاظم إلى الشُّعور بأنّه مريضاً نَفسيِّاً وليس طبيباً نَفسيِّاً, لكن للضرورة أحكام.

قال أمجد وهو جالساً على مكتبه الخشبيّ, لِيلفت انتباه كاظم المُنهمك للغاية في تناول طعامه, غير مُستمتعاً بصوت مضغه للطعام: "إذاً أنتَ تحب تناول الطَّعَام كثيراً".

ترك كاظم الشَّطيرة مِن يده ونظر إلى أمجد ظانٍ أنَّه يتحدَّث في هاتفه المحمول, ثُمَّ قال والطَّعَام في فمه, بعدما تأكَّد مِن أنَّ أمجد يتوجَّه إليه بالحديث: "مَن؟ أنا؟ لا, أنا... بلى, آكل كثيراً". أحسنَ المضغ, ثُمَّ بلع ما في فمه مِن طعام وأتبع: "أنا أسير الآن على حَمِيَّة غِذائيَّة". وأكمل تناول شطيرته.

قال أمجد على نحو مربك بعض الشَّيء: "ما رأيك أن نعقد اتفاق. أنتَ تُحدثني عن حالة ياسمين, وأنا أساعدك في تقليل وزنك".

ترك كاظم الشَّطيرة مِن يده, اعتدل في جلسته موجِّهاً نظره نحو أمجد: "هل لديك دوائاً جديداً؟"

اطمئنَّ أمجد إلى سذاجة كاظم وقال بابتسامة عريضة: "بلى. لديَّ شاياً, قمتُ بتحضيره بنفسي, استخدمته إحدى قريباتي وأعطها نجاحاً باهراً".

بلع كاظم ريقه وقال في استهتار: "شاياً أخضراً, وخرافات الشّاي الصِيني والتَّركيبات الهنديَّة؟ لا تُرهق نفسك معي, لقد حاولتُ, لا شيء ينفع معي. جميعها أكاذيب".

ضحك أمجد وقال: "لقد أخبرتُك أنَّني صنعته بنفسي, لم أشتريه. لقد صنعته إلى زوجة عمِّي, المسكينة, كانت تُعاني مِن السِّمنة ومرض السُّكري, الآن إنَّها في رحلة سياحيَّة تركب الجليد, في كندا".

سأل كاظم: "وكم تريد مُقابل هذا الشّاي العجيب الذي تتحدَّث عنه؟"

قال أمجد: "لا مال. فقط اخبرني عن حالة ياسمين النَّفسيّة. يمكنك أن تخبرني عمَّا تشعر به الآن, وما هو عِلاج هذا الصَّمت, أليس كذالك؟"

أومأ كاظم رأسه مستعجباً. ثُمَّ سأل عن الشّاي مرَّة أخرى. فأخبره أمجد أن الشّاي موجود في الإسْكَنْدَرِيَّة, وأنّه سوف

يجلبه معه يوم السَّبت عندما يعود. اقتنع كاظم ووافق على هذه الصَّفقة. وبدأ الحديث عن ياسمين: "ماذا تُريد أن تعرف عن ياسمين؟"

"حدثني عن صمتها الحالي".

"أيّ صمت حالي؟! إنَّها في عُزلتها تلك منذ زمن طويل".

حاول أمجد تركيز اهتمامه على صعيد مُحدَّد وقال: "أنا أقصد بعد موت أبيها".

أومأ كاظم برأسه عِدَّة مرَّات وقال: "حسناً. اسْتَعِدّ إلى ما قد يجعلك تشعر بالذنب. ياسمين الآن تكرهك". اتسعت حدقتيّ عينيّ أمجد وسأل في اندهاش بنظرة جانحة: "ماذا؟!"

أومأ كاظم برأسه مرَّتَين وقال: "بلى. إنَّها تُلقي عليك اللّوم في موت أبيه. تظن أنّكَ فشلت في إنقاذه. انصت يا أمجد, لقد فقدت ياسمين أمّها وأبيها في ظروف... أنتَ تعلم... الانتحار أمرٌ مُعَقَّدٌ. لقد عانت ياسمين طويلاً, دون حديث مع أيّ شخص, بقت في عُزلة تامة حَتَّى بدأت تتحدَّث معك أنتَ, شعرت تجاهك بالآمان, رُبَّمَا أحبتك رُبَّمَا شعرت

أنّك أخيها, لا أعلم, لكن هذا الأمر قد ساعدها في التَّقدُّم إلى الأمام, ولهذا السَّبب فقط, تركتك تقترب مِنها أكثر". ثُمَّ سكت عن الحديث وسأل في قلق: "كم مِن الوقت سأحتاج حَتَّى أفقد هذه الجوانب المتدلِّية, المترهِّلة بالسمنة؟"

صرخ فيه أمجد: "قريباً قريباً. لكن اِخبرْني لماذا تكرهني ياسمين؟ وكيف عَرِفتَ؟ هل أخبرتكَ بهذا؟"

قال كاظم وهو يلتقط شطيرة أخرى مِن على المكتب: "لا. بالطبع لم تقل هذا, لكنني طبيب نفسيّ, وأستطيع تحليل الحالات بسهولة. إنَّها تشعر أن الشَّخص الذي وضعت ثقتها فيها, قد أخفق, ونال ثقة لا يستحقها". ثُمَّ عاد للمضغ مرَّة أخرى, سائلاً والطَّعَام يقفز مِن فمه: "أظنُّ أنَّ فقدان ثلاثين كيلو جرام في شهراً سيكون أمراً صعباً, أليس كذلك؟"

لم يجبه أمجد وخرج مِن غرفة الأطباء. وأغلق الباب خلفه. فوجد إحدى الممرِّضات تقف في الطُّرقة وتنظر إليه على نحوٍ مُفرط في الاهتمام, وبدت كأنَّها كانت تنتظر إياه, لكن الأمر لم يجذب اهتمام أمجد كثيراً وسار بجانبها غير

مُهتمٍّ بنظراتها النَّاعِمة, لكنها استوقفته بصوتاً رقيقاً: "دكتور أمجد".

توقَّف أمجد واستدار إليها مُجيباً: "نعم؟"

سألت في رقة: "كيف أساعدك؟"

"تُساعديني في ماذا؟"

"أنتَ ذاهب إلى العنبر".

"بلى. أنا ذاهب إلى العنبر".

سألت مُجَدَّداً: "إذاً كيف أساعدك".

سألها أمجد: "ما اسمكِ؟"

شعرت الممرِّضة بشيء مِن الإطراء- غير المقصود- وقالت على نحوٍ مفرط في الدَّلال: "اسْمي رانيا".

ابتسم أمجد وقال: "اسْمكِ جميل يا رانيا". ثُمَّ فجأة تذكَّرها أمجد. إنَّها الممرِّضة التي كانت تختلس عليه النَّظر منذ بضعة أسابيع. فسأل: "ألستِ أنتِ الممرِّضة اللَّطيفة الفضوليَّة؟"

ضحكت رانيا وسألت: "فضوليَّة؟"

"بلى. التي كانت تختلس عليَّ النَّظر. لقد تذكَّرتُكِ. أين كنتِ؟ لقد اختفيتي تماماً؟ هل أنتِ بخير؟"

أجابت في سعادة: "بلى. لقد أخذتُ أجازة لِفترة قصيرة, وبالنسبة إلى فضوليَّة تلك, فأظنُّ أنَّ عملي أن أهتم بجميع مَن في المَصَحَّة".

"حسناً. في الوقت الحالي أنا لا أحتاج مِنْكِ أيّ شيء. لكني سأخبركِ إن احتجتُ أمراً ما بالتأكيد".

أومأت رانيا رأسها وعلى وجهها الابتسامة ذاتها وقالت: "إن احتجتَ إلى أيّ شيء وفي أيّ وقت". ثُمَّ انصرفت, وانصرف عنها أمجد.

سار أمجد حتى تذكَّر أمر ياسمين, فزاد مِن خطواته واقتحم عنبر النّزلاء مُندفعاً. انتبهت إليه جميع الأنظار, والممرِّضات والعُمَّال, والنّزلاء, وحَتَّى ياسمين انتبهت إليه فنهضت مِن رزوحها. وقف أمجد كأنَّه يخشى الاقتراب أكثر مَن هذا. شجَّعته عينيّ ياسمين المُتسائلة, فخطى خطوة أو خطوتين. لاحظ أن النّزلاء صامتون جميعاً, لا يقفزون في أماكنهم, ولا يأنون ولا يصرخون غضباً أو خوفاً, لم يُحرَّك

فيهم ساكناً. دفعه الهدوء الذي خيَّم بِمُجَرَّد اقتحامه الباب والذي استوحش الآن, بعدما خطى خطوتين آخرين أن يخطو خطوتين آخرين. لا صراخ أيضاً. الجميع في صَمْتٍ حَذِر, متأهبون إلى مجهولاً قد يؤتي بحدثٍ جلل. لكن أمجد خشى أن يتحدَّث, تذكَّر اللَّحظة التي قُتل فيها أبيه أمام عينيه, فمحت هذه الرؤى المُطارِدة كل رغبة في جسده أن يقترب أكثر, لمح تلك النَّظرة الواهنة المسكينة, الأقرب في خنوعها إلى الاستسلام, إنَّها النّظرة ذاتها التي عَلَقَتْ في عينيه لِمُدَّة طويلة بعد مقتل أبيه. شعر في هذه اللَّحظة تحديداً أنَّه مسؤول بالفعل عن موت أستاذ محمود العربي, رغم أن التَّحقيقات أثبتت أنَّه لم يكْ هُناك أيّ مجال لإنقاذه, إلا أن أمجد شعر بالتقصير. بالضبط كما شعر بالتقصير تجاه أبيه, الذي قُتل أمامه ولم ينهض أمجد على فعل أيّ شيء يُذكر لإنقاذه. في تلك اللَّحظة, تراجع أمجد إلى الخلف خطوتين, بدلاً مِن التّقدُّم نحوها. اعتلت ملامح اليأس وجوه النّزلاء جميعاً. لكن أمجد آثر الجنوح إلى الخلف بظهره, حَتَّى اصطدم بظهره في أحد النّزلاء. استدار فزعاً, إنَّه عوض العارف, الذي فقد عقله ودخل المَصَحَّة التي كان نائب

مديرها في يوماً مِن الأيام. وقف عوض العارِف بجسده الهزيل, صامتاً, دون حركة, لكن بِرَجْفَة. بعينان واهنتان خائرتان, يتعمَّق النَّظر في عينيّ أمجد, الذي تابع طريقه خروجاً مِن العنبر, فاستوقفه النّزيل غالي سعيد غالي بسؤال: "هل رأيتَ الدَّلافين؟" استدار أمجد مُتعجِّباً, وقبل أن ينطق, قال العارِف بأنين النّدم: "أنا مَن اصطدتُها". ووقع على الأرض صارخاً, يتلوَّى على الأرض مِن الألم. ممسكاً رأسه بكلتى يداه. كأنَّ رأسه يحترق مِن الدَّاخل. وظلَّ يصرخ وهو يمزِّق ملابسه: "أنا مَن رأيتها. أنا مَن اصطدتها". احتشد الجميع مِن حوله, حَتَّى مدير المَصَحَّة الذي لم يعرْ أحدهما اهتماماً أبداً في هذه المَصَحَّة, خرج مِن مكتبه مُسرعاً إلى صديقه العارِف الصَّارِخ. ظلَّ أمجد واقفاً في مكانه مُشتَّتاً, صخب كبير, الجميع يسرعون. وتتطاير كلمة "غرفة الكهرباء" في الأجواء وتمطر مِن كل جانب. النّزيل غالي سعيد غالي يصرخ هو الآخر ضاحاً, ويقفز على السَّرير الحديديّ وهو يقول: "إنّها الدَّلافين. إنَّها الدلافين تصرخ مُجَدَّداً. تصرخ في الحديقة الخلفيَّة, إنَّه انتقام الدَّلافين". ويصرخ ضاحاً. في ظِلّ هذا الصَّخب الذي بُلع فيه

أمجد. أمسكته ياسمين مِن ذراعه وقالت في أذنه: "اللَّيلة عند شجيرة الياسمين". وتركته وعادت إلى سريرها. وظلَّ أمجد عِدَّة لحظات في مكانه متصلِّباً, حَتَّى أمسك كاظم ذراعه وأخبره أن يُساعده في ربط عوض العارِف.

بعد لحظات طويلة مِن الصُّراخ الذي لن ينتهي بسهولة, استطاعوا ربط عوض العارِف جيِّداً. بعد ذلك نقلوه على سرير حديديّ مُتحرِّك إلى غرفة الكهرباء. حُمِلَ وَوُضِعَ على السَّرير المُثبَّت في أرضيَّة غرفة الكهرباء الضَّيِّقة. خرج أمجد حَتَّى يترك مساحة جيِّدة للمختصين. لحظات وجذب كاظم ذراعاً حَديدِيَّة إلى أسفل, فَسُمِعَ صوت صراخاً مُدوِّياً. وصَمَتَ بعدها على الفور, كحيوان بوسوم صغير, أعياه الخوف فَفَقَدَ الوِعي كُرْهَاً.

نُقِل عوض العارِف إلى سريره في عنبر النُّزلاء مرَّة أخرى. هدأت الأجواء. بدأت الممرِّضات في تغيِّر ملابسهن والذِّهاب إلى بيوتهن, إلا الممرِّضة رانيا التي فضَّلت عدم الذِّهاب إلا بعد أن استأذنت أمجد, فأذن لها طوعاً, غير مُبالٍ. عندها سأله كاظم عن أمر تلك الممرِّضة التي تُبدي نحوه

مشاعر واهتمام على نحوٍ مفرط. فأخبره أمجد أنَّه لا يدري عنها شيئاً. فقال كاظم: "اسْمُهَا رانيا الواشي".

نظر إليه أمجد وقال: "كنتُ أعلم ذلك. لقد أخبرتني اسْمُهَا. شكراً لك".

سأل كاظم بنوعاً مِن الفكاهة: "وتعلم ماذا أيضاً؟ هل أخبرتك عن لون ملابسها الدَّخليَّة؟"

قال أمجد باستياء: "هل هذا وقتاً جيِّداً للسخرية؟"

قال كاظم: "أنتَ على حق. سلام". وذهب عنه يتصنَّع الإرهاق.

انقضى اليوم طويلاً وشاقاً على أمجد, الذي أضناه الشُّوق. تأكَّد أن الجميع ذهب. أغلق العَمّ صابر البوابة مِن الدَّاخل. تموضع كل مِن عادل وهيمة في مكانهُما, أشعلا نار الرَّاكية, وجلسا بجانبها, يتحدَّثان بصوتاً خافتاً للغاية, كأنَّهُما يُخططان لِقتل هاني مطر أو شيء مِن هذا القبيل. اِكتشفَ أمجد أنّهُما يتحدَّثان عن تأخُّر صرف مستحقاتهم الماليَّة هذا الشَّهر. عندما كان يخرج مِن الحديقة متجهاً إلى سيَّارته, وجد كاظم واقفاً بجانبها ينتظره لِيعرض عليه مُجَدَّداً أن

يذهبا إلى كابرية اللَّيلة الأخيرة. لكن أمجد لا يستطيع, فلديه اليوم موعد مهم للغاية, لذلك أخبره أمجد أنَّه يشعر بالإرهاق والتَّعب, كما أنَّه يحتاج أن يتحدَّث هاتفياً إلى أمّه. اقتنع كاظم سريعاً وأوقف سيارة أجرة ودلف فيه.

اِنتظرَ أمجد حَتَّى انطلقت سيَّارة الأجرة. ثُمَّ دلف هو الآخر إلى سيَّارته. قاد السَّيَّارة ببطء إلى الخلف لِيلتف بها إلى الشَّارع الخلفيّ للمَصَحَّة. ألقى نظرة فاحصة مِن داخل السَّيَّارة على شجيرة الياسمين ومحيطها. لم تخرج ياسمين بعد. فانطلق بالسيَّارة إلى الأمام. في تلك اللَّحظة, لمحه كل مِن عادل وهيمة, اللَّذان اصطنعا حديثهما عن تأخُّر صرف رواتبهما أمام أمجد, حَتَّى يُقْنِعَاهُ بأنّهُما غير منتبهَين إلى آثار الشَّغف على وجهه. ثُمَّ عادا إلى راكية الشَّاي مُجدَّداً.

لم يذهب أمجد إلى شَقَّته. أوقف السَّيَّارة على جانب الطَّريق بعيداً كفاية عن المَصَحَّة. وظلَّ يدور حولها في دوائر ضيِّقة, أخذت تلك الدوائر تتسع, حَتَّى أصبح يدور حول شارع كامل أو شارعين. عينيه مثبَّتتين في الأرضيَّة, كأنَّه يهرب مِن نظرات المارة. حَتَّى خرج إلى طريق أسفلتيّ مفتوح, خالياً تماماً مِن النَّاس, لا يشوب هدوئه إلا صوت

بعض السَّيَّارات التي تمر في هدوء مِن بعيد. لولا إضائة المصابيح الصَّفراء القويَّة, لكان كل شيء على ما يرام. ظلَّ يسير على جانب الطَّريق وعينيه تُهيمان بين الخطوط البيضاء في الأسفلت, وبين حذائه الأسود الذي عَفَّرَهُ الغبار. حَتَّى داعبته الرِّياح الدَّافئة على وجنتيه, فأتاه الهذيان الحلو بعد انقطاع دام لأيام منذ انتحار أستاذ محمود العربي: *تَخَيَّلَ أنَّه في منزل مُرِيح, تحديداً في المطبخ.* جَالِسَاً على منضدة السُّفرة. وياسمين, صاحبة الوجه الخمريّ, طويلة القامة بشعر أصفر داعبته أشعة الشَّمس فلمع كالذهب المضاّء, واقفة مِن خلفه, تمسِّح له رقبته المُرْهَقة, وطَبَعَتْ قُبلة حارة عليها. عندها دخلت فتاة صغيرة حوالي أربع سنوات, نُسخة كربونيَّة مِن ياسمين, أسرعت إليه قائلة بصوت ملائكيّ ليس مِن عالَمنا: "بابي, بابي". فحملها ووضعها على رجله اليمنى. عندها طُرِقَ الباب. فالتفت إليه ياسمين, وسارت حَتَّى تفتحه. خرجت مِن المطبخ وما هي إلا ثوانٍ, وسُمِعَ صوت صراخها عالياً. فنظر إلى ناحية قدوم صوتها, وضع ابنته على الأرضيَّة, وهَمَّ بالوقوف. وسار حَتَّى وقف على العتبة بين المطبخ والصَّالة, ثُمَّ هرول بقوة خارجاً إلى

الصَّالة. وظَّلَّت الفتاة الصَّغيرة واقفة وحدها في المطبخ وهي تنادي: "بابا أمجد". لكنه لم يهتم بنداء ابنته, عندما وجد ياسمين رازحة على أرضيَّة الصَّالة, وبجانبها زُهْريَّة مِن الفُخَّار الصِّينيّ, مُحطمة إلى شظايا ومُتناثرة حولها, فهَمَّ مُسرعاً نحوها, إلا أن صوت الطَّرق العنيف على باب الشَّقَّة قد استوقفهُ. وصاح صوت الفتاة الصَّغيرة في المطبخ مرَّة أخرى "بابي بابي" ــ اِستيقظَ أمجد مِن هذيانه الحلو ــ على صوت فتاة صغيرة ممسكةً بيد أبيها وتناديه "بابي بابي". نظر أمجد حوله. إنَّه في إحدى شوارع القاهرة الصَّاخبة. يسير رجلاً حاملاً عصى بها أكياس ملوَّنة مِن حلوى غَزْل البنات, نافخاً في بوقاً صغيراً أخضر اللَّوْن, ذاك الذي يصدر صوتاً مُرتفعاً ومُزعجاً, ويصرخ بائعاً جائلاً على بضاعته وهو واقفاً في قارعة الطَّريق. عندها خبط فتى شاباً على كتف أمجد الأيمن وهو يمرِّر إليه عُقداً مِن الياسمين, وقال ووجهه يسيل عرقاً: "لقد أتيتُ به إليكَ مِن آخر الدنيا كما أمرتَ. أجمل عقد ياسمين في مصر برمتها".

ارتخت التَّجَاعِيد حول عينيّ أمجد وتذكَّر موعده مع ياسمين. نظر في ساعة يده. إنَّها الثّامنة ليلاً. فَتَرَكَ الفتى في

منتصف السُّوق الصَّاخب وهرول إلى سيَّارته التي لا يدري كيف يذهب إليها. فصاح الفتى غاضباً أثناء هرولة أمجد: "عُقد الياسمين يا بك. لقد نسيتَ العُقد يا مغفل. إذاً لماذا جعلتني أجلبه إليك مِن الأساس؟" وهرول خلفه كأنَّه مخبر يُطارد لصاً. حَتَّى وقف أمجد يلتقط أنفاسه وهو ينظر يميناً ويساراً باحثاً عن مخرج مِن هذه المنطقة الشَّعبيَّة ذات الشَّوارع غير المفهومة. فلحقه الفتى بائع الفل والياسمين غاضباً: "هل أنتَ مجنون؟ لماذا جعلتني أجلبه إليك إن لم يكْ معك مالاً؟"

أخرج أمجد المحفظة مِن جيب بنطاله الخلفيّ وهو يلهث. فتح المحفظة. أخرج عشرون جنية, مرَّرها إلى الفتى وطلب مِنه أن يُخرجه مِن هُنا إلى الطَّريق الرَّئيسيّ. وافق الفتى بسهولة, ووضع العشرون جنية في جيبه فرحاً. ثُمَّ أشار بيده إلى الشَّارع الرئيسيّ الذي كان أمام أمجد ولم يراه بسبب بيت متداعٍ كان يحجب عنه الرُّؤية. خرج أمجد إلى الشَّارع فوجد سيَّارته بالضبط في المكان الذي تركها فيه. دلف إلى السَّيَّارة. وقادها مُسرعاً نحو الشَّارع الخلفيّ للمَصَحَّة. نظر متلهِّفاً وهو داخل سيَّارته إلى شجيرة الياسمين. كان الظَّلام

حالكاً, لم يستطع تميِّز أيّ شيء. تَرَجَّلَ مِن السَّيَّارة. سار نحو السِّياج الحديديّ. نظر مِن بين القضبان, لكن أصابه الإحباط عندما وجد المنطقة خالية تماماً. اِعتقدَ أن ياسمين قد أصابها الملل ورجعت مرَّة أخرى إلى العنبر عن طريق النَّفق بجانب الصّنبور.

استدار أمجد عائداً إلى سيَّارته. لكنه انتبه عندما سقط عليه حجراً صغيراً للغاية, جعله ينظر إلى أعلى, فوجد ياسمين جالسة على سطح المَصَحَّة المكونة مِن طابق واحد فقط, وقدميها متدلِّيتَين أسفلها, وهي تهمس إلى أمجد بشفتان مضمومتان: "ششششش".

رفع أمجد حاجبه الأيسر, فيما بقى الأيمن جامداً في مكانه, فغر فمه, وتصلَّب في مكانه للحظة, لكنه ضحك بصوت منخفض بعض الشَّيء عندما حاكت ياسمين نفس ملامح وجهه. فعادت تهمس إليه مِن جديد: "شششششششش". وأشارت إليه أن يقفز مِن على القضبان بهدوء.

فَهِمَ أمجد أن عادل وهيمة يقظان هذه اللَّيلة. فقفز مِن على القضبان, ووقف أسفل ياسمين وهمس إليها: "كيف صعدتي إلى هُناك؟"

غمزت إليه بعينها اليمنى وقالت بإنوثة طاغية: "توء. توء. لن أخبرك إلا بعدما تعدني بشيء أوَّلاً".

جذب أمجد كتفيه إلى أعلى وقال باستسلام: "أيّ شيء. سوف أعدكِ بأيّ شيء يا ياسمين".

رفعت ياسمين حاجبها الأيسر فيما ظلّ الأيمن مكانه ثُمَّ أشارت نحو سُلَّم حديديّ بجانب الجدار الجانبيّ للمبنى. ضحك أمجد بصوت وهو يقول: "يقولون عنكِ مجنونة!" فأسرعت ياسمين مرَّة أخرى: "شششششششششششششــ صوتُك أيّها الغبيّ".

كتم أمجد فاه بكلتى يدايه. أومأ إلى ياسمين برأسه سريعاً. ثُمَّ بدأ يصعد السُّلَّم بهدوء, حَتَّى وصل إليها. وعندما وصل تأوّه بصوت مرتفع: "آه لقد تعبتُ". نظرت إليه ياسمين بوجه جامد غاضب على نحوٍ ما. فأدرك أمجد صوته المرتفع

وقال بصوتاً هامساً: "آسف. آسف. في الأخير أنا لستُ معتاد على هذه الحياة. أنا لستُ غبيَّاً مثلكِ".

جلسا كلاهما. وأقدامهما متدلِّية على الحائط. قالت ياسمين مُداعِبة: "أنا لستُ غبيَّة, أنا مجنونة أيُّها الطَّبيب".

تنفَّس أمجد عميقاً وقال: "لا أنتِ غبيَّة ولستِ مجنونة". ثُمَّ اقترب مِنها أكثر وقال: "ياسمين كلانا نعلم أنّكِ لا تعانين مِن أيّ اضطرابات نفسيَّة. لماذا تقبلين هذه الحياة الآن؟ يمكنكِ أن تخرجي مِن هُنا بسهولة وتعيشي حياة طبيعيَّة في حُرِّيَّة تامة".

أدارت ياسمين وجهها نحو العتمة, هاربة مِن عينيّ الشّاب الطَّموح للغاية, وَصَمَتَتْ.

أتبع أمجد: "ياسمين لقد توفى مَن كنتِ تقبلين هذه الحياة مِن أجله. ما الذي تنتظريه بعد؟ يمكنكِ أن تخرجي مِن هُنا بمنتهى السِّهولة!" ثُمَّ أمسك يدها النَّاعمة وقال: "أرجوكِ. أنا فعلاً أريدكِ أن تخرجي مِن هُنا". ثُمَّ زفر الهواء ثقيل. استجمع قواه وقال بصوت هامس: "حَتَّى تعيشي معي. فأنا أحبكِ وأريد أن أتزوجكِ".

نظرت إليه ياسمين وقالت: "وخطيبتُك؟"

نظر أمجد إلى الدِّبلة التي في يده. أزالها مِن إصْبَعه ثُمَّ وضعها في جيبه. وقال: "أحبكِ أنتِ".

ياسمين: "أنا لم أكْ هُنا مِن أجل أبي. فلقد نال ما يستحق... أنا هُنا مِن أجل أمّي ومِن أجل نفسي".

سأل أمجد مُتعجِّباً: "أمّكِ؟ كيف؟!"

أشارت ياسمين إلى الشُّجيرة التي أمامهما وقالت: "هذه الشُّجيرة هي أنا. أنا هُنا حَتَّى أحميها. إن أصابها ضرر سوف يُصيبني أنا كذلك".

أمسك أمجد يدها, ضغط برفق عليها, وقال مُطمئناً إياها: "يمكنني أن أنقلها مِن هُنا دون أن تُصاب بأيّ أذى. صدقيني, كان أبي يملك أرض موالح, وَكُنّا ننقل الأشجار بسهولة بالغة. يجب أن تثقي فيّ".

قالت ياسمين وهي تسحب يدها مِن قبضته الدَّافئة: "وأنتَ هل تثق فيّ؟"

أمسك أمجد يدها مرَّة أخرى وقال مؤكداً: "بالطبع أثق فيكِ". عندها نهضت ياسمين وأخبرته أن نقل الشُّجيرة الصَّغيرة تلك ليست بمشكلة. إنَّما نقل ما أسفلها, هو المشكلة الحقيقيَّة. لم يهتم أمجد بكلامها وأخبرها بأنَّه يدعمها ويثق فيها ومِن المستحيل أن يتخلى عنها.

بعد ساعات مِن الحديث والنّظرات الرّومانسيَّة الدَّافئة. سُمِعَ صوت قرآن الفجر. قالت ياسمين إلى أمجد أن الوقت انقضى سريعاً. وأنّها سوف تنتظره مرَّة أخرى في اللَّيلة القادمة, حَتَّى تُخبره عن سِرَّاً كبيراً. نهضا كلاهما حَتَّى ينزلا السُّلَّم. فاستوقفها أمجد وأخبرها أن لديه طلب صغير, تردَّد طيلة اللَّيلة أن يطلبه. فأمسكت يده, واقتربت مِن وجهه وطبعت قبلة دافئة على وجنته. فسألها: كيف عرفتِ أنَّني أرغب في هذه القبلة؟ وبالضبط في المكان الذي أردكِ أن تضعيها عليه!"

فهمست في أذنه: "لقد قلتُ إليكَ مِن قبل أنَّني أستطيع أن أعرف كثيراً عنك بِمُجَرَّد أن ألمسك, لكن يجب عليك أن تسمح لي بالدخول إلى عقلك أوَّلاً. وأنتَ سمحتَ لي أن أتجوَّل في عقلك بمنتهى السِّهولة, بمنتهى السِّهولة".

وجذبت كتفيها إلى أعلى, وارتسمت على وجهها تلك الابتسامة التي تكشف دائماً عن أسنانها ناصعة البياض.

بعدما نزلا السُّلَّم, وقفا بجانب صنبور المياة. وأثناء توديعها إياه, قبل أن تدلف إلى النّفق الصَّغير, هجم عليهما كل مِن عادل وهيمة صارخَين كأنَّهُما اكتشفا هويَّة المومياء إكس الصَّارِخَة.

الفصل الثَّامِن.

الشَّك,

بدايتهُ أَمْ نـهايتهُ.

قام كل مِن عادل وهيمة بإدخال ياسمين إلى العنبر مرَّة أخرى عن طريق البوابة الرَّئيسيَّة التي فتحها العَمّ صابر عندما سَمِعَهُمَا يُصِيحَانِ بِصَوتَهُمَا المرتفع. بالطبع كان الوضع مختلفاً بالنسبة للطبيب, الذي بقى في غرفة الأطباء لِعدة ساعات حَتَّى وصول المدير والدُّكتور كاظم. لم يشأ مدير المَصَحَّة أن يتسبَّب في صخب أكثر مما تسبَّب فيه كل مِن عادل وهيمة. استدعى أمجد في مكتبه, وطلب مِنه أن يخبره كل شيء عن علاقته بياسمين.

جلس أمجد على المقعد المجاور لمكتب المدير, مواجِّهَاً وجهه نحو السَّرير الضَّيِّق ذو الدَّلافين الأربع التي تعتلي قوائمه النُّحاسية الأربع. تنفَّس بعمق كأنَّه يحاول أن يَسْتَعِدَّ للصراخ. ثُمَّ أخبر المدير بأنّه مُستاء للغاية مِن رد فعل عامليّ الأمن, اللَّذان تعاملا معه كأنَّه لصاً أو ما شابه. لكن المدير- بخبرته في عالَم الطَّب النَّفسيّ- حاول امتصاص غضبه, وأخبره أن عادل وهيمة يقومان فقط بعملهما, وأنّهما لم يحصلا على فرصة جيِّدة حَتَّى يُصبحا أطباء في هذه المَصَحَّة, وقال بالحرف الواحد: "إنّهما أقل مِنكَ كرماً في الخُلُق, ولم يكْ حظهما في التَّعليم مثل حظَّك".

عندها شعر أمجد بإطراء لطيف وهدأت الحِدة في نبرته: "حسناً. لا عليهما حرجاً هذه المرَّة". يالك مِن ساذج.

ضحك هاني بصوت مرتفع وضغط على الزِّرّ في مكتبه. فحضر العَمّ صابر بعدها بثوانٍ معدودة. ودون مُقدِّمَات سأل عَمّ صابر: "فنجانين مِن القهوة الدَّاكنة؟"

ابتسم هاني وأومأ إليه برأسه قاصداً أنَّه أصاب الاختيار. ثُمَّ نظر إلى أمجد وسأله: "داكنة أيضاً؟ يا دكتور أمجد؟"

نظر أمجد إلى عَمّ صابر ذو الوجه المُتَرَقِب وقال: "فنجان قهوة داكنة دون سُكَّر يا عَمّ صابر, لو سمحت". فأومأ العَمّ صابر برأسه وبابتسامة كشفت عن أسنانه الصَّفراء غير النَّظيفة. ثُمَّ خرج وأغلق الباب خلفه.

استدارأمجد نحو المدير الجالس على مقعد مكتبه وقال: "حسناً. لا شيء بيني وبين ياسمين. أنا رجل مرتبط". وأشار إلى الدِّبلة فيه يده.

تعمَّق هاني قليلاً في راحة يده اليمنى, ثُمَّ سأل أمجد سؤالاً واضحاً: "كيف أخرجتَ ياسمين مِن العنبر؟"

في البداية تردَّد أمجد في الإجابة, وحاول أن يفلت مِن هذا السّؤال, لكن الطَّبيب النَّفسيّ المخضرم كان أكثر مِنه حِنْكَة, وحاول أن يثقب أغوار أمجد, وبالمناسبة, هذا شيء يبرع فيها بشدة. فخبط بقبضة يده على المكتب الخشبيّ بلطف وقال: "ياسمين هي ابنتي يا أمجد... لقد نبذها المجتمع, وتحطمت أسرتها, حَتَّى الباقون مِن عائلتها ينفرون مِنها. المسكينة, لم يبقْ لها في هذا العالَم الواسع إلا هذه المَصَحَّة التي تقبَّلتها وقَبِلَتْ مرضها".

رفع أمجد عينيه اللتان كانتا تحملقَين في الأرض, ونظر مباشرة في عينيّ هاني مطر وقال: "ياسمين ليست مريضة يا دكتور. ياسمين تتمتَّع بكامل قواها العقليَّة".

"إن كان الأمر كما تقول, فلماذا لم تطلب ولو مرَّة واحدة أن تخرج مِن المَصَحَّة؟"

سكت أمجد, ثُمَّ تنفَّس بعمق والتَّجاعيد حول عيناه وحاجباه وقال: "هذا ما أنوي أن أعرفه".

"تعرف ماذا أيّها الطَّبيب؟"

غمغم أمجد: "ما تخفوه جميعاً عنّي".

صَمْتٌ.

سأل هاني على مضض: "كيف أخرجتَ ياسمين مِن العنبر يا أمجد؟"

في تلك اللَّحظة, دخل العَمّ صابر بصينيَّة عليها فنجانين مِن القهوة الدَّاكنة. دخل خلفه كاظم وجلس على المقعد أمام أمجد, تناول الصِّينيَّة مِن العَمّ صابر ووضعها على المكتب. وأخبر عَمّ صابر أن يجلب إليه كوباً مِن الشَّاي. خرج العَمّ صابر وأغلق الباب خلفه, وهو يتمتم بكلمات خافتة حانقة.

نظر هاني مطر إلى كاظم وسأله: "كاظم. ما رأيُك في حالة ياسمين النَّفسيّة أيُّها الطَّبيب النَّفسيّ؟" وَنَبَرَ في حديثه على الكلمة "النَّفسيّ".

تأوَّه كاظم وزفر الهواء ثقيلاً مِن فمه وقال وهو يتمدَّد على أريكة صغيرة مُهترأة: "إنّها مجنونة. لا شك في هذا. لكن مع ـ "

قاطعه هاني بصوت مرتفع وقاطِع: "هل هي آمنة خارج أسور هذه المَصَحَّة؟"

أجاب كاظم بعدما اعتدل في جلسته: "لا. بالطبع لا".

سأل هاني مطر بحزم: "هل يمكن أن تنشأ بينها وبين المجتمع الخارجيّ عِلاقة أو على الأقل جسراً لِيمتدد فيما بعد إلى علاقة؟"

هزَّ كاظم رأسه يميناً ويساراً وقال بصوتاً خافتاً: "لا, لقد فقدت الشُّعور بالأمان, حَتَّى مِن أقرب الأشخاص إليها". ونظر إلى عينيّ أمجد الذي أدارهما عبثاً.

بعد ذلك, نهض أمجد ووقف في مُنتصف الغرفة, وقال وهو ينظر في عينيّ هاني مطر: "اِخبرْني أيّها الطَّبيب النَّفسيّ, كم حالة تم علاجها في هذه المَصَحَّة؟"

صَمَتَ كل مِن هاني مطر وكاظم.

أجاب أمجد على سؤاله: "صفر. عدد الحالات التي عالجتْها المَصَحَّة... العدد هو صفر. كيف بالضبط استمرت تلك الجَمْعِيَّات الخيريَّة في تموِّلكُم؟"

سأل هاني بنبرة الغضب: "هل تُشكِّك في مهنيَّة المَصَحَّة؟"

هُنا نهض كاظم وحاول تلطيف الأجواء. وأجلس أمجد على مقعده. وقال: "بالطبع لا يفعل هذا يا رئيس. كل ما في

الأمر أنَّه مُرهق ومُستاء مما فعله عادل وهيمة". ثُمَّ نظر إلى أمجد وقال إليه: "هيَّا اِعتذرْ إلى المُدير".

نظر أمجد إلى هاني واِعتذرَ: "آسف... أنا بالفعل مُرهَقاً".

قال هاني: "لا يهمك يا ابني. أعلم أن أعصابُك متوتِّرة منذ الإخفاق الأخير".

نظر إليه أمجد بعينيّ الحيرة والاستفهام.

فقال هاني: "أقصد فشلك في إنقاذ حياة أستاذ محمود العربي".

في تلك اللَّحظة أمسك أمجد تلك القطعة اللَّيِّنة أعلى أنفه, بين عينيه, وضغط عليها بقوة, يفركها غير آبهاً لِمَ يقوله الطَّبيبان النَّفسيَّان. مسح العرق الخفيف على جبينه. فتح الزِّرّ العلويّ في قميصه, بدأ العرق يسيل على رقبته, و هاني مطر يتبادل الحديث المنطقيّ للغاية مع كاظم. ثُمَّ خبط بيده على المكتب في إشارة مِنه إلى الرَّجُلان بأن يتوقَّفا عن الحديث, وقال كأنَّه يُزيح صخراً مِن على صدره: "هُناك نفق صغير بجانب صنبور المياه, يربط العنبر بالحديقة الخلفيَّة".

قفز كاظم مِن مقعده كأنّما لدغه عقرب, وصاح ضاحكاً ضحة اندهاش وذهول: "نفق مدام عِصمت؟ لقد أغلقنا هذا النَّفق منذ زمن". وظلَّ يضحك كالمعتوه. فيما كان أمجد يستوعب تلك الصَّدمة, نهض هاني بزخم مِن مقعده. خرج مِن مكتبه ودلف سريعاً إلى العنبر الذي أمامه. أمر بوضع ياسمين في غرفة الحجز الانفراديّ, وأزاح سريرها, فوجد فتحة النّفق أسفله. سأل أمجد عندما كان هاني يتفحص النّفق: "كيف عرفتما بمكان الفتحة التي داخل العنبر؟ أنا لم أخبركما بمكانها؟" لم يجبه هاني وأمر إحدى الممرِّضات بأن تبلِّغ موظفوا الاستقبال أن يتصلوا بِعُمَّال البناء, الذين وصلوا سريعاً وقاموا بإغلاق النَّفق تماماً بالأسمنت.

شعر أمجد أن أمنيته بشرب الشَّاي مع ياسمين لن تتحقَّق. وازداد تأكده مِن هذا الشُّعور عندما صرخ فيه هاني بألا يتعدَّى حدود اختصاصاته, وأن يبتعد تماماً عن ياسمين. وأخبره أنَّه عرَّضَ لِتوه حياة نزيلة- كادت أن تهرب- إلى الخطر. وقال إليه في لحظة غضب عارمة: "إنّك غبيّ كالطَّبيب الذي سبقك بالضبط". وسار عنه دالفاً إلى مكتبه.

حاول أمجد أن يتحدَّث مع ياسمين. لكن كاظم أخبره أنَّه مِن المستحيل أن تُفتح بوابة الحجز الانفراديّ مِن دون عِلم المدير الذي يستشيط غضباً الآن في مكتبه. فتوجَّه أمجد إلى كاظم بالسؤال: "لماذا الطَّبيب الذي قبلي كان غبيَّاً؟"

قال كاظم على سبيل التَّخمين: "مَن؟ راضي! رُبَّمَا لأنّه حاول أن يقترب أكثر مِن ياسمين؟ حَتَّى أنَّه ذهب إلى خالتها في منزلها. وبعدها بيومين غرق في النّيل. نحن نؤمن أنَّه انتحر, ولم يغرق". ثُمَّ ضحك وأتبع قائلاً: "يبدو أن الأطباء هُنا إمَّا أن يفقدوا عقولهم مثل عوض العارِف وإمَّا أن ينتحروا مثل راضي". وسار عنه إلى خارج المَصَحَّة. فاتبعه أمجد بخطى سريعة وأوقفه سائلاً: "إلى أين تذهب؟"

قال كاظم: "هل بدأتَ تفقد عقلك أنت أيضاً؟ إنَّها الثّانية عشر, ولم نتناول شيئاً حَتَّى الآن".

فسأل أمجد: "بلى. لكن أين تذهب؟"

إِبتسمَ كاظم وقال: "أتريد أن تعرف أكثر عن راضي وياسمين؟ حَتَّى تتعلَّم مِن أخطاء السَّابِقين. رُبَّمَا هُناك أملاً بألا ينتهي بك المطاف في قاع النَّهر".

رفع أمجد حاجبه الأيسر متسائلاً: "وماذا سيكلِّفني هذا؟"

قال كاظم وهو يبلع ريقه: "هناك مطعم قريب مِن هُنا. في الحقيقة إنَّه مسمط. إنّهم يطبخون كوارع ولحمة رأس مذهلة. يمكنني أن أروي لك كل شيء أثناء تناول الطَّعَام. أنتَ ستدفع بالطبع".

كانت صفة عادلة مِن وجه نظر أمجد. حوالي خمسون جنيه مقابل صندوق معلومات يزن حوالي مئة وعشورن كيلو جرام, وكُنيته "ذكر الفيل". دلفا إلى السَّيَّارة الأكسنت. ووصلا سريعاً إلى المسمط. في الحقيقة لم تكْ خمسون جنيه, لأنَّ "ذكر الفيل" انتهك الاتفاق واستباح أموال الطَّبيب البشريّ, وطلب ما يزيد ثمنه كثيراً عن الخمسون جنيه. لم يُزعج هذا أمجد, بل على العكس تماماً. طعاماً أكثر, يُعنى وقت أكثر لِتناوله, أيّ وقتاً أكثر للتحقيق مع "ذكر الفيل".

أثناء تناولهما الطَّعَام (في الحقيقة شعر أمجد بالغثيان ولم يتناول أيّ شيء). سأل أمجد: "إذاً. انتحر, قلتَ أنَّه انتحر؟"

قال كاظم والطَّعَام في فمه: "بلى, إمّا أنَّه قفز مِن كوبري قصر النّيل أو رُبَّمَا... رُبَّمَا كان في رحلة نيليَّة, وقفز هكذا. لا أعلم, كل ما أعرفه أن الشُّرطة وجدت جثته في النِّيل بعد حوالي ثلاث أيام مِن اختفائه".

سأل أمجد وكاد يبصق في وجه كاظم مِن منظره أثناء تناول الطَّعَام: "نُقل بعدها إلى مشفى؟"

قال كاظم: "المشفى الوطنيّ. بجانب قسم الشُّرطة, هل هذا ضروريّ, أقصد هذه الأسئلة؟ ظننتُك تريد أن تعرف أكثر عن العلاقة بين راضي وياسمين!"

سأل أمجد باهتمام شديد: "بلى. هل كانت تجمعهما علاقة عاطفيَّة؟"

أسرعَ كاظم في الإجابة: "لا. في الحقيقة كان راضي أكبر سناً مِن ياسمين, أظنَّه كان يُحِبُّهَا كابنته لا أكثر". وتابع تناول طعامه. ثُمَّ أتبع قائلاً: "بعد هذه الوجبة. يجب أن أفرِّغ طاقتي في امرأة. نعم, إنَّها رحاب طماطماية. أمجد, يجب أن تأتي معنا اللَّيلة إلى كابرية اللَّيلة الأخيرة".

ضحك أمجد وقال: "اللَّيلة الأخيرة. ياله مِن اسْم غبيّ. آتي مع مَن؟ معك؟"

قال كاظم: "معنا. أنا و هاني مطر".

سأل أمجد مُندهشاً: "هاني مطر! هو الآخر يضاجع رحاب طماطماية؟"

ضحك كاظم: "لا. الكهل الممحون يعشق سعاد طماطماية, إنَّها أَمْ رحاب طماطماية. لكنني ما عدتُ أراها منذ مُدَّة".

ضحك أمجد بصوت: "رحاب طماطماية وسعاد طماطماية؟ هل أنتما تذهبان إلى كابرية؟ أَمْ إلى سوق الخضار؟" وضحك ثُمَّ أتبع: "حسناً. لِنذهب إلى هذا الكابرية في الليل".

في الليل. قابل أمجد, كاظم بالقرب مِن المَصَحَّة, مثلما اتفقا. وذهبا إلى الكابرية ووجدا دكتور هاني هُناك. كان هاني مطر يعرف بقدوم أمجد, واستقبله دون تردُّد أو توتُّر, بل على العكس تماماً, لقد بدا سعيداً بقدومه إلى الكابرية. وقضوا جميعاً ليلتهم الطَّويلة للغاية في الكاربية.

في الحقيقة لم يكن أمجد سعيداً بهذا الجمع, لكنه كان مجبراً على أن يتكلَّف الابتسام في وجهيهما. ولاحظ أمجد

محاولة فتاة الليل الصَّغيرة, لأن تتقرَّب مِنه بطريقة مبالغ فيها للغاية, وأن تُبدي اهتماماً على نحوٍ مفرط إلى شاب لا تبدو عليه ملامح التَّرف, وليس مِن هؤلاء العرب ذوي الجلابيب البيضاء, والدُّولارات التي يلقونها في الهواء على الرَّاقِصات بمنتهى الهدوء وثبات النَّفس, كأنّهم يلقون ورقاً أبيضاً لا قيمة له بالنسبة لهُم. لكن الاهتمام المتزايد الذي أبدته فتاة الليل الشَّابة قد ألقى بظلاله على مراكز الاستقبال عند الطَّبيب الشَّاب, الذي بدأت نظراته تُشيح يميناً ويساراً, وتسيل نقاط خفيفة مِن العرق على جانبيّ جبينه. وبالفعل ازدادت حرارته عندما وضعت الفتاة يدها اليمنى على فخذه بالقرب مِن عِضوه الذَّكريّ.

كان أمجد شاباً غريراً. لم يكْ له نصيب ولو حَتَّى قليل مِن المبالغة في التحرُّر, التي كانت سائدة بين أبناء جيله. بعدما توفى أبيه بين ذراعيه مُتأثراً بالنزيف الذي لم يستطع أمجد إيقافه, عقد أمجد النِّيَّة, وكانت تلك نيَّة والده بالمناسبة, أن يدرس الطِّب, آملاً أن يعود به الزَّمن مرَّة أخرى وينقذ والده. لذلك كانت حياته منكبَّة على الدِّراسة المستميتة في مرحلة الثَّانوية العامة, وقد بدأت حياته تُصبح أكثر انغلاقاً على

مكتبته التي تحوي عشرات وَرُبَّمَا مئآت مِن الكتب الطبيَّة. حَتَّى طاقاته المكبوتة, لم يكْ يُفَرِّغِهَا كما كان الفتية الذين في مثل سنه يفعلون, بل كان يكتفي بحضور حفلات ومؤتمرات الطِّب البشريّ في كُلِيِّته في جامعة الإسْكَنْدَرِيَّة. وظلَّت حياته غير القصير تنغلق عليه أكثر وأكثر, وتستوحش العزلة عليه أمام مكتبه الخشبيّ, بجانب سريره, في حي المعمورة, أكثر وأكثر. حَتَّى حدث, ورأى ياسمين. التي تطوَّر الأمر مِن بعد رؤيتها حَتَّى هذه اللَّحظة, هذه اللَّحظة التي تأتي فيها فتاة ليل وتقريباً تضع يدها الحِرَفيَّة الدَّافئة على عِضوه الذَّكريّ المُشتعل كالجمر الأبيض في الدَّرْكِ الأسفل مِن النَّار.

حرارة الفودكا التي وضعها له هاني مطر في شرابه الغازيّ دون علم مِنه, جعلت أمجد يشعر بحميميَّة ورغبة جنسيَّة أكثر دفائاً, وحاجة أكثر غلياناً. لكن الشَّاب الغرير, الذي ترعرع في العزلة, حَتَّى يد فتاة متمرِّسة لن تكون كافية حَتَّى تُفقده كامل حيائه وتديُّنه. فاستدار أمجد وهو جالساً على مقعده المُواجه لِمنضدة مستديرة عليها مفرش قطيفة نبيتيّ اللَّوْن, استدار إلى هاني مطر وسأل: "إن كان كثيره

مُسكراً, وقليله غير ذلك؟ فلن يكون قليله حرام, أليس كذلك؟"

ضحك هاني, مُطمئناً بنجاح خطته في إفساد الطَّبيب البتول. وقال: "ها قد وصلنا". وصبَّ ماء الفودكا الرُّوسيَّة الحارق, في أحد الأكواب الزُّجاجيَّة القصيرة, الذي يترنَّح وحيداً على المنضدة المُستدير كأنَّه طفل كوب, أعياه السُّكْرُ, فَضَلَّ الطَّريق عن رفه المُعتاد. ثُمَّ ناول الكوب القزم مباشرة إلى راحة أمجد الذي بدأت عضلات فخذيه في الارتخاج مِن جراء لمسات الفتاة, التي صَدقَ مَن أسماها طماطماية, فوجهها أحمر بالضبط كحبَّة الطَّماطم, وَرُبَّمَا مَن أطلق عليها هذا الاسْم قد أرهقَ عيناه بتتبُّع ثدييها اللَّذان حقاً في حجم حبَّتيّ الطَّماطم, ضربتهما الهرمونات فتمايلا كفحليّ رمان صقلتهما أيادي الزَّبائن مُداعِبة لهذا الجَمَال.

عندها أمسك أمجد الكوب التَّائه, ورفعه نحو شفتاه اللتان تابتا عن الحرام منذ المرَّة التي نفخا فيها عُقب سيجارة في المدرسة الاعداديَّة, الشَّفتان اللَّتان تغاضيا عنهما الحيف اللاَّصق بكرامتهما, وَاِقتربَ مِن حافة الكوب الذي تسيل مِنه مياه الفودكا الصَّفراء, ويقبع في قعره حبة كيمياء زرقاء.

لكن دعاء الوالدين أحياناً يؤدي دوراً, حيث تذكَّر أمجد في اللَّحظة الأخير صوت أمّه وهي تدعو إليه عندما كان راحلاً في المرَّة الأخير: "اللَّلهم اِحمْهِ مِن كل سوءٍ". لكن أمجد لم يُدرج كوباً صغيراً مِن الفودكا أسفل قائمة "السُّوء" الكبيرة. وأكمل اقتراباً إلى الكوب بشفتيه.

أحياناً ما لا يفعله الدُّعاء, ويتعثر الحظ قبل الوصول إليه, تكون العناية الإلهية هي الحاضرة عندها. فخبط عُرابي على كتف أمجد فوقع الكوب مِن يده مسكوباً على الأرض. نهض أمجد مُنفعلاً, وإذ بالقوَّاد عُرابي يجذب الطَّبيب الشَّاب إلى حضنه وبالقبلات شديدة اللزوجة على وجنتيه. مازال أمجد واقفاً في صدمته, لم يتعرَّف بعد على الشَّاب ذو الصَّلعة الخفيفة والأسنان الصَّفراء والضِّحكة الخبيثة, التي ذكَّرته بشكل أو بآخر بأيامه الصَّعبة في المدرسة الابتدائيَّة في المعمورة. فصاح عُرابي كالمعتوه: "أنتَ لا تتذكَّرني. أنا عُرابي يا ولد. أحيه. أنا عُرابي رفيقك في المقعد. في المدرسة الابتدائيَّة في المعمورة".

صاح أمجد فرحاً غير آبها لِعضوه المنتصب الذي كاد يمزِّق البنطال: "عُرابي؟ ما الذي تفعله هُنا أيُّها القوَّاد".

ملحوظة قال "القوَّاد" على سبيل الدُّعابة بين اثنين مِن الأصدقاء الأشقياء اللَّذان أتعبا أهليهما في صغرهما.

فضحك عُرابي وقال بشيء مِن العَتَه: "أعمل قوَّاداً".

اتسعت حدقة عين أمجد اليسرى مع ارتفاع حاجبه الأيسر, فيما ظلَّت العين اليمنى والحاجب الأيمن في غياب تام عن الإدراك أو الحِس. يترنَّح يميناً ويساراً مِن أثر الفودكا. ثُمَّ استدار إلى هاني مطر وخبطه على ظهره كأنَّه جحش يأبى أن يجر عربة خشبيَّة قائلاً بنبرة الأمر: "هيَّا انهض يا هاني مِن هُنا. عُرابي يريد أن يجلس مكانك".

نهض هاني والغضب يُشَيِّط عرقه, فيتبخر فوق رأسه كدخان خارجة مِن حريق صغير. جلس عُرابي مكانه, وجلس أمجد مرَّة أخرى على مقعده. وجد رحاب طماطماية مُستدير نحو كاظم ويتحدَّثان بغضب مكظوم, فجذب يدها اليسرى ووضعها على عضوه, ثُمَّ استدار نحو عُرابي سكيراً, يترنَّح بقوة حَتَّى أنَّه كاد يسقط مِن على مقعده. وظلَّ يتحدَّث مع عُرابي حَتَّى فقد الوعي تماماً.

حمله كل مِن عُرابي وكاظم ووضعاه على المقعد الخلفيّ في سيَّارته الأكسنت. قاد كاظم السَّيَّارة, فيما كان عُرابي جالساً بجانبه. وصلوا إلى شقة أمجد, أصعداه وما كادا يفعلان. ثُمَّ نزلا وأغلقا باب الشَّقَّة خلفهما.

في اليوم التَّالي, نهض أمجد في تمام الثَّالثة عصراً. عضلات جسده مُتشنِّجة بقوة, كأنَّه عامل بناء, انقطع عن العمل فترة ثُمَّ عاد إليه دون مُقدِّمَات. مِن وقت إلى آخر تُسْمَعُ أصوات الفَرْقَعَةُ الصَّغيرة في مَفَاصِلُ جسده برمته. عيناه حمروان. وشفتاه متقدتان. وأمعائه تتقطَّع كأنَّه بلع موسي الحلاقة الذي انتحر به أستاذ محمود العربي. انتفض أمجد في سريره: "محمود العربي".

بعد ساعة كاملة مِن محاولة العودة إلى الحضارة, لمسايرة الرَّكب, نزل أمجد مِن شَقَّته ولم يقصد المَصَحَّة, التي بالمناسبة لم يهتم أحداً فيها بغيابه. بالطبع "أحداً" تلك تُستثنى مِنها فتاة لها علاقة روحيَّة أو كميائيَّة- لا أذكر- بشجرة ياسمين طولها متر وربع المتر في محيط المتران.

بعد ثلاث فناجين مِن القهوة واثنين شاي, وعدد أربعة استفراغ, وبالطبع فطور في أحد المطاعم الفاخرة, ذهب أمجد بسيَّارته إلى المشفى الذي تمت فيه تشريح جثة الطَّبيب راضي. وقف بسيَّارته أمام مبنى المشفى العملاق. أخرج مدوَّنة صغيرة مِن جيبه وقلماً جافاً أزرقاً. كتب في رأس الصفحة الأولى مِن المدوَّنة بالخط العريض "المشفى الوطني – بداية طرف السِرُّ". ثُمَّ قال بصوت. ما هذا الغباء الذي أكتبه. فشطب على ما كتبه. وألقى المدوَّنة على المقعد المجاور. تَرَجَّلَ مِن السَّيَّارة. دخل المشفى. مباشرة إلى المشرحة.

ولِكونه طبيباً. استطاع بسهولة أن يحصل على التَّقرير الخاص بالطَّبيب "راضي محسن راضي الجمل". ألقى نظرة فاحصة على التَّقرير. ووجد أن سبب الوفاة هي الغرق حَتَّى الموت. فتحدَّث مع أحد الأطباء في المشرحة. وعرف مِنه أن الطَّبيب راضي الجمل قضى نحبه نتيجة لبلعه كمية كبيرة مِن المياه والتي أدت إلى انسداد مجرى التَّنفُّس. وبالاستناد إلى ملامح الذُّعر التي كانت لا تزال محتلة وجهه أثناء تشريح الجثة, فإنَّها بكل بساطة "محاولة انتحار".

خرج أمجد مِن المشرحة, لا يعلم لماذا أصابه شيء مِن الحزن عندما علم أن راضي قد انتهى به المطاف بالانتحار. رُبَّمَا لأنّه شعر أن هُناك حلقة مفقودة في هذه السِّلسلة! أو رُبَّمَا لأنّه خشى أن ينتهي به المطاف مُنتحراً هو الآخر. وظلَّ يُفكِّر أثناء خروجه مِن المشفى حَتَّى وصل إلى سيَّارته. فوجد ما لم يخطر على عقل بشر. إنَّه هاني مطر واقفاً بجانب السَّيَّارة الأكسنت, منتظراً خروج أمجد مِن المشفى. قال هاني بصوت مرتفع حَتَّى يَسمَعَهُ أمجد الواقف على بعد عِدَّة أمتار: "هل تأكَّدتَ أننا نصدقكَ القول؟" ثُمَّ أتبع بنبرته التي تنخفض أكثر كلما قطع أمجد خطوت تجاه سيَّارته: "لقد تدخل راضي في غير اختصاصه. اختصاصاً لا يفهمه جيِّداً. فانتهى به المطاف في قاع هذا النَّهر". وأشار بيده إلى الخلف, نحو نهر النِّيل.

دلف أمجد و هاني إلى السَّيَّارة الأكسنت. وقاد أمجد في الطَّريق إلى المَصَحَّة.

عندما وصلا إلى المَصَحَّة. تَرَجَّلَ هاني مطر مِن السَّيَّارة. وأخبر أمجد أن يذهب إلى شَقَّته حَتَّى يستريح, فوافق أمجد

وعلى وجهه ملامح الاقتناع الذي يرفض كينونته, ويكره سيرورته المُقْتَنِعة.

دخل هاني مطر إلى مكتبه. ضغط الزِّرّ على المكتب الخشبيّ. ثوانٍ ولدف عَمّ صابر إلى المكتب مُسرعاً. ألقى هاني المدوَّنة الصَّغيرة التي كانت على المقعد الأمامي في سيَّارة أمجد, والتي التقطها دون علمه, ألقاها على المكتب. نظر إلى عَمّ صابر وقال بنبرة اضطراريَّة: "إنّه يحاول نفخ النَّار التي كساها الرَّماد". جلس على مقعده الجلديّ وأتبع: "بالضبط مثل راضي الجمل". ثُمَّ نظر إلى عَمّ صابر وقال: "يبدو أننا سنضطر إلى القتل مُجَدَّداً يا صابر". فَشُحِبَ وجه عَمّ صابر على الفور.

الفصل التَّاسِع.

هُراء,

ومَشَاعِر في الكابرية.

ما أن دخل أمجد مِن باب شَقَّته. سَمِعَ على الفور صوت رنين هاتفه المحمول, المُتصل بالشاحن. أسرعَ نحوه والتقطه على الفور مِن على الكومدينو الصَّغير بجانب سريره.

(عُرابي يتصل بك...)

ضغط أمجد على زِرّ الرَّد في هاتفه, وضع الهاتف على أذنه. قال بصوت تتخلَّله الرِّيبة: "مرحباً!"

أجاب صوت عُرابي مِن الجانب الآخر: "مرحباً يا درش. كيف حالك الآن؟"

استراح أمجد قليلاً مِن الشَّك الذي ساوره وسأل: "كيف ظهر لي اسمك في هاتفي؟ أنا لم أحفظ الرَّقم الخاص بك على ذاكرة هاتفي أبداً!"

ضحك عُرابي ضحكة متقطعة كأنَّه جَرَّار زِرَاعيّ مُكَهَّناً: "نعم نعم. لقد حفظتُ رقمي على هاتفك المحمول أمس عندما أعدناك إلى شقَّتك". ثُمَّ تنحنح وبصق على الأرض كأنَّه كان يشرب دماء متخثرة وتجلَّطت في بلعومه, ثُمَّ أتبع

بصوتاً مبحوحاً: "عندما أعدتُك إلى شقَّتك أنا وصديقك البدين, كاظم".

سأل أمجد: "كاظم؟"

غمغم عُرابي: "كاظم يا رجل". ثُمَّ بصق مرَّة أخرى على الأرض وقال بصوتاً جهورياً: "الطَّبيب النَّفسيّ الذي يُشبه الخرتيت المصاب بالسمنة... ذو الرَّائحة النَّتنة هذا... هلَ تذكَّرته؟!"

ضحك أمجد: "كيف أنساهُ مِن الأساس, أظنُّ أنَّ رائحته علقت في ثيابي منذ البارحة".

أسرعَ عُرابي بحنكة القوَّادِيين: "لا. ما أظنَّه أنا, أن رائحتُك أنت هي ما علقت في يديّ الأرنبة الصَّغيرة أمس. هل جرَّدتكَ مِن حيائُك, أما تزال تفهم الحياة مقلوبة كما أنتَ؟" عندها آثر أمجد أن يغلق هذه المكالمة, لأن رائحة ذكر الفيل كانت عالقة بثيابه بالفعل. فأغلق المكالمة سريعاً بمزيداً مِن الأدب والاحترام, اللَّذان يُليقان بطبيباً بشريَّاً نـهض لِتوه مِن نوبة سُكراً وعربدة.

بعد أن أنهى أمجد مكالمته السَّريعة نسبيَّاً مع عُرابي, قام بإغلاق هاتفه المحمول وتركه على الكومدينو. ثُمَّ خلع ملابسهُ عن نفسهِ, ودخل تحت الدُّش. حصل على حمَّاماً بارداً, أزال عنهُ الوَسَخِ. وَسَخُ الجسد وَوَسَخُ الرَّوح أيضاً. ارتدى ملابس جديدة ونظيفة. تطيَّبَ بذاك البرفان باهظ الثَّمن الذي أهدته إياه خطيبته المَخْدوعَة.

ما أن استنشق أمجد رائحة البرفان, التي كانت رائعة وحلوة على نحوٍ مُفرط, شعر بتأنيب الضَّمير, بسبب تقصيره عاطفيَّاً تجاه خطيبته التي رُبَّمَا تجلس الآن وتتعمَّق النَّظر في صورته, وَرُبَّمَا غطتها بجراثيم لعابها مِن آلاف القبلات الدَّافئة. قال أمجد بصوت: "تباً. مُجَرَّد التَّفكير في هذا الأمر يجعلني أُصابُ بالغثيانِ".

لكن البرفان كان أثمن مِن أن يستسلم أمجد بهذه السِّهولة, فجلس على سَرِيرَهُ, وحاول أن يتخيَّلها جَالِسَة بجوارهُ ويحادثها بمزيجاً مِن مشاعرهما المُرهَفة. أوتعلمون ما الذي تَخَيَّلَهُ؟ أظنَّكُم تعلمون - - - بلى. بالطبع: *تَخَيَّلَ أنَّه في منزل مُرِيح, تحديداً في المطبخ. جَالِسَاً على منضدة السُّفرة. وياسمين, صاحبة الوجه الخمريّ, طويلة القامة بشعر أصفر*

داعبته أشعة الشَّمس فلمع كالذهب المضآء, واقفة مِن خلفه, تمسّجِ له رقبته المُرْهَقة, وطَبَعَتْ قُبلة حارة عليها. عندها دخلت فتاة صغيرة حوالي أربع سنوات, نُسخة كربونيَّة مِن ياسمين, أسرعت إليه قائلة بصوت ملائكيّ ليس مِن عالَمنا: "بابي, بابي". فحملها ووضعها على رجله اليمنى. عندها طُرِقَ الباب. فالتفت إليه ياسمين, وسارت حَتَّى تفتحه. خرجت مِن المطبخ وما هي إلا ثوانٍ, وسُمِعَ صوت صراخها عالياً. فنظر إلى ناحية قدوم صوتها, وضع ابنته على الأرضيَّة, وهَمَّ بالوقوف. وسار حَتَّى وقف على العتبة بين المطبخ والصَّالة, ثُمَّ هرول بقوة خارجاً إلى الصَّالة. وظلَّت الفتاة الصَّغيرة واقفة وحدها في المطبخ وهي تنادي: "بابا أمجد". لكنه لم يهتم بنداء ابنته, عندما وجد ياسمين رازحة على أرضيَّة الصَّالة, وبجانبها زُهْريَّة مِن الفُخَّار الصِّينيّ, مُحطمة إلى شظايا ومُتناثرة حولها, فهَمَّ مُسرعاً نحوها, إلا أن صوت الطَّرْق العنيف على باب الشَّقَّة قد استوقفهُ. وصاح صوت الفتاة الصَّغيرة في المطبخ مرَّة أخرى "بابي بابي". لم يهتم بنداء ابنته, انحنى نحو ياسمين حَتَّى يُنهضها مِن رزوحها ــ اِستيقظَ أمجد مِن هذيانه الحلو ــ اِستيقظَ عندما

شعر برجفة كهرباء خفيفة تمر في جسده عندما لمسها أثناء الهذيان. ففتح عينيه وهو جالساً على سَرِيرَهُ وصوت طنين جرس الباب كأنَّه كهرباء تُصخب الأجواء.

قفز عن سَرِيرَهُ. هرع إلى باب شَقَّته. فتح الباب وإذا بكاظم أمامه مذعوراً. فقال أمجد على مضض: "مَن الذي إِنتحرَ هذه المرَّة أيُّها القوم البؤس؟"

قال كاظم بعصبيَّة ممزوجة بالذعر: "لماذا تغلق هاتفك المحموك دائماً؟ لقد فقدتْ ياسمين وعيها أثناء تلقيها صدمتها الكهربائيَّة, ونحن نعتقد أنَّها دخلت في غيبوبة أو رُبَّمَا قضت نحبها!"

نظر أمجد نحو ساعة الحائط, في الخلف, داخل الشَّقَّة. إنَّها التَّاسعة ليلاً. والمَصَحَّة تُغلق السَّاعة السَّادسة أو السَّادسة والنِّصف في هذه الحدود. فصرخ أمجد وهو يمسك كاظم مِن ياقة قميصه, ويهزه بعنف: "كيف تصعقون فتاة سليمة العقل بالكهرباء؟ بل والأكثر, خارج ساعات العمل الرَّسميَّة؟"

جذب كاظم يد أمجد نزولاً على الدَّرج. حَتَّى أن أمجد نسى مفاتيح السَّيَّارة, فعاد سريعاً إلى شَقَّته التي وجد بابها مفتوح على مصرعيه, فدلف إلى غرفة نومه سريعاً. أخرج مِفتاح الشَّقَّة والسَّيَّارة مِن جيب بنطاله الذي أزاله قبل أن يحصل على حمَّامه البارد. أغلق باب الشَّقَّة خلفه عندما كان يهرول على الدَّرج بسرعة فائقة. دلفا كلاهما إلى السَّيَّارة, وقادها أمجد مُسرعاً نحو المَصَحَّة. توقَّف بالسيَّارة بالضبط أمام السِّياج الحديديّ الذي يُحيط بالحديقة. نزلا كلاهما مِن السَّيَّارة. لم يكْ عادل أو هيمة متواجدين بالجوار. في البداية انتاب أمجد شعور بأن شيء سيء قد حدث, أو رُبَّمَا على وشك الحدوث. لكن سرعان ما شُتِّتَ هذا الشُّعور مِن مخيلته, عندما خرج عَمّ صابر, ذو الملامح المتوتِّرة, وأمسكه بعنف مِن معصم يده, وجذبه إلى داخل المَصَحَّة بقوة, يجره خلفه كأنَّه يجر خروفاً أو ما شابه, وذكر الفيل مِن خلف أمجد يدفعه نحو نهاية الطُّرقة مِن خلف ظهره, ويجذبه عَمّ صابر مِن الأمام.

فيما كان أمجد مذهولاً مما يحدث, لمح هاني مطر واقفاً جامداً في آخر الطُّرقة وبيده حبلاً شديداً غليظاً. والظَّلام على

معظم أجزاء وجهه المتهجِّمة, ولا يبدو مِنه إلا يداه الغليظتان وعيناه اللتان تشعان شرارة حمراء. فأوجس أمجد في نفسه خِيفة. لكن الجذب مِن الأمام والدَّفع مِن الخلف جعلاه يفقد معظم هِمَّتهُ. فاستسلم إليهما, حَتَّى وصلوا ثلاثتهم إلى آخر الطُّرقة عند هاني مطر, الذي اقترب نحو أمجد والحبل في يده غليظ. ثُمَّ وضع يداه على كتفيّ الطَّبيب الشَّاب, المذهول مِن هول الموقف. وقال إليه مُترجِّياً إياه: "أرجوك يا أمجد حاول أن تنقذ حياتها".

أدار أمجد وجهه إلى داخل غرفة الكهرباء. فرأى ياسمين مُمدَّدة على سرير مرتفع ضيِّق, مُثبَّتاً بالأرضيَّة, لونها شاحب, عيناه مغمضتين, وهُناك زُرْقة خفيفة في شفتاها وتعتلي عيناها بجفنيها الذَّبلين. فداهمته الرَّعشة مثل الرِّجال الثَّلاثة بجانبه. واندفع نحوها, يتحسَّس النَّبض. ثُمَّ تنفَّس الصُّعَداء قائلاً: "الحمد لله ما زال هُناك نبضاً".

عندها قال هاني بصرخة غضب, خرجت مِنه رغم إرادته: "ماذا؟ لا تزال النَّداهة الصَّغيرة على قيد الحياة؟"

لم يهتم أمجد بحديث هاني مطر. فهناك أموراً أكثر أهمِّيَّة في الوقت الحالي. نظر أمجد إلى كاظم وأمره أن يتصل بالإسْعَاف. أخرج كاظم هاتفه المحمول حَتَّى يتصل بالإسْعَاف. فخطف هاني مطر الهاتف مِن يده وأخبر أمجد أنّهُم لا يستطيعوا أن يتصلوا بالإسعاف. لأن هذا قد يضعهم جميعاً تحت المُسائلة القانونيَّة, التي سوف تنتهي حتماً بسجنهم مدى الحياة, ثُمَّ نظر إلى أمجد وقال: "حَتَّى أنتَ أيّها الطَّبيب". ثُمَّ زفر الهواء وقال إليه: "حاول أن تنقذها هُنا... الآن".

بالطبع زاد صراخ أمجد, حَتَّى أن الصُّراخ والنِّقَاش المحتدم بين الرِّجال الأربعة قد تحوَّل في غضون ثلاثين ثانية مِن صراخ إلى شجار بالأيدي. فلكم أمجد, كاظم بالخطأ, عندما كان يحاول تسديد هذه اللَّكمة إلى هاني الذي يرفض الاتصال بالإسْعَاف. وقع كاظم على الأرضيَّة رازحاً مثل الدُّب الذي تناول جرعة كبيرة مِن السُّم. اعتدل أمجد عندما كان واقفاً عند رأس ياسمين كأنَّه يحاول جاهداً أن يحميها, اعتدل حَتَّى يسدد لكمة جديدة بيده اليمنى إلى هاني مطر مديره في هذه المَصَحَّة المنكوبة. لكنه توقَّف فجأة عندما أمسكت

ياسمين يده اليسرى. فانتبه إليها, وهي تتأوَّه والأقطاب الكهربائيَّة على رأسها وزاعيها. وظلَّ أكثر مِن نصف ساعة كاملة يحاول جاهداً أن ينقذها بالحقن والمحاليل.

ثُمَّ حملها حَتَّى يضعها في سريرها في العنبر. بالفعل حملها وسار بها حَتَّى عتبة باب العنبر. فأخبرته أن يضعها أرضاً, ولا يدخل بها إلى العنبر أبداً, وحَتَّى أخبرته بألا يلمسها أبداً لأنّها تكرهه. في البداية لم يشأ أن يضعها أرضاً, لكنه وضعها عندما بدأت في الصُّراخ. بدأت تسير ببطء مقتولة تعباً إلى السَّرير. حَتَّى أنَّها طلبت المساعدة مِن أحد النّزلاء الذي كان قريباً مِنها للغاية, وكان هو النّزيل رجب الصَّامت. الذي وضع يده اليسرى حول خصرها, عندما كان أمجد ينظر إليهما وهو اقفاً عند عتبة باب العنبر, فلمح مُثلَّث صغير على يد رجب, يبدو كجرج قديم على باطن ساعده الأيمن, جرح مألوف للغاية. فتذكَّر الجرح على ساعد الفتى الذي قتل والده. لكن سرعان ما شُتُِتَ تفكيره عندما سقطت ياسمين على الأرض. فأسرعَ نحوها ودفع رجب بقوة. فسار إلى سريره في صمت. حمل أمجد, ياسمين. وَاِقتربَ بها مِن سريرها. الذي أتلفه عُمَّال البناء, عندما كانوا يغلقون النَّفق.

فقال إليها وهي واهنة للغاية: "إن سريرك مُحطماً تماماً, بالكاد يحمل نفسه". ثُمَّ فكَّر في أقل مِن ثانية وحيدة وقال: "يوجد سرير جيِّد في غرفة مكتب المدير".

عندها ظلَّت ياسمين تصرخ: "ليس السَّرير الذي أُغتصبت عليه". وشرع حينها عوض العارِف بصراخه, وسقط على الأرض يتلوَّى كالثعبان الذي لدغه عقرباً. وبدأ غالي سعيد غالي في الصُّراخ ضاحكاً وهو يكرِّر: "الدَّلافين ستصرخ مِن جديد. الدَّلافين ستصرخ مِن جديد".

عندها دخل هاني مطر وصرخ فيهم. فصمتوا جميعاً. وأخبر أمجد أن يجلبها ويأتي ورائه, وياسمين تصرخ وتكرِّر: "ليس هذا السَّرير. أرجوك يا أمجد, ليس هذا السَّرير".

فصرخ فيها هاني مطر وهي بين يداي أمجد واهنة كالعصفور: "اصمتي أيّتها الغبيَّة. لن أضعكِ هُناك. وسار حَتَّى باب المخزن القديم. وكان باباً حديديَّاً ثقيلاً, يختلف تماماً عن جميع أبواب المَصَحَّة. فتحه بمِفتاح حديديّ غليظ, كان في جيب بنطاله. ودلف إلى المخزن القديم, وأمجد حاملاً

ياسمين مِن خلفه. فإذا بعنبراً كاملاً سليماً. مغطى بالغبار. خرج هاني إلى خارج العنبر, ودلف كاظم سريعاً, حاملاً ملاءة نظيفة. نفض الغبار عن أحد الأسِرَّة, فيما كان أمجد حاملاً ياسمين بعيداً عن الغبار. ثُمَّ وضع كاظم الملاءة على السَّرير, وأشار إلى أمجد أن السَّرير جاهزاً الآن. وضع أمجد, ياسمين في السَّرير, فأخذت وضع القرفصاء في الحال. وغاصت في النَّوم. سأل أمجد, كاظم: "ما هذا العنبر المهجور؟"

قال كاظم بصوت هادئ, فيما كانت جميع الأجواء خافتة: "إنّه عنبر النِّساء".

قضى أمجد طيلة الليل بجانب ياسمين. حَتَّى تنفَّس الصَّباح. ودبَّت الحياة في المَصَحَّة. ثُمَّ جهَّزَ الفطور إليها بنفسه بدلاً مِن الممرِّضات, اللائي اندهشن للغاية مِن العنبر المهجور الذي ظنه الجميع مخزناً قديماً. أراد أمجد أن يجلب الفطور إلى ياسمين حَتَّى سريرها. لكنه لاحظ ابتسامات الممرِّضات الصَّفراء, التي اتسعت على وجوههن, أثناء إعداده الفطور. وبعد أن انتهى مِن تحضيره, جعل أحد الممرِّضات تأخذه إليها. لكنه لم يستطع مقاومة رِقَّتها أثناء

تناول الطَّعَام, وحَبَّذا أن يجلس بجانبها على إحدى المقاعد الخشبيَّة التي جلبها مِن مكتب الأطباء.

بعدما أنهت ياسمين فطورها الذي تناولت أقل مِن ربعه كُرهاً. اقترب مِنها أمجد بمقعده الخشبيّ. فلاحظ أنَّها تبتعد عنه قدر ما استطاعت على سريرها. كان شعوره في هذه اللَّحظة لا يوصف. المرأة التي يعشق كل خليَّة حيَّة كانت أو ميّتة في جسدها العليل, تبتعد عنه كلما اقترب مِنها هو سنتيمتراً واحداً. تنفَّس أمجد بعمق. صَمَتَ للحظات قليلة, ثُمَّ أراح ظهره على المقعد. تأكَّد أن لا أحد مِن العاملين أو الممرِّضات في العنبر الجديد, ثُمَّ قال إليها بصوت يبعث على الطمئنينة: "ماذا؟ أصبحتي تخافيني الآن يا ياسمين؟ ظننتُ أنَّكِ كنتِ تختبئين في أحضاني أمس".

لم تجبه ياسمين ووضعت رأسها بين يديها.

قال أمجد مرَّة أخرى بعدما تأكَّد أنَّها لن تجاوبه على السُّؤال الماضي: "أنا أعلم أنّكِ في أكثر حالاتك ضعفاً. ولا أريد أن أكون عبئاً عليكِ. لكن صدقيني هُناك ألف سؤال يدور الآن في رأسي. وأعلم حق العلم, أنَّ... لن يجاوبني على هذه

الأسئلة سواكِ". ثُمَّ تنفَّس بعمق كأنَّه يَسْتَعِدَّ لِطرح السُّؤال الأول: "ياسمين. قد لا يكون لي حق في التَّوجه إليكِ بأيّ مِن الأسئلة التي تدور هذه اللَّحظة في عقلي, لكنني أعتقد أن لي الحق في طرح سؤال واحد فقط عليكِ. وأعتقد أيضاً أنّكِ مجبرة أن تجاوبيني على هذا السُّؤال".

لم تحرِّك ياسمين ساكناً. فقط الرَّعشة الطَّفيفة في أصابع يداها وشفتاها.

اقترب أمجد برأسه مِنها وقال بصوتاً خافتاً حَتَّى لا يَسمَعَهُ أحداً سواها: "ياسمين. أنا أحبكِ. نعم أعترف بأنّي أحبكِ. وأحبكِ منذ اليوم الأول الذي رأيتكِ فيه نائمة على سريركِ في عنبر رجالي لِمصحة المجانين التي أعمل بها. والآن يجب أن أطرح عليكِ سؤالي الأهم... *ياسمين هل تبادليني الشُّعور ذاته؟* "

رفعت ياسمين رأسها مِن بين يداها ببطء ونظرت مباشرة في عينيّ أمجد وقالت: "أمَّا السَّرير الذي أردتَ أن تضعني فيه أمس, فهو الشَّاهد الوحيد الذي لا يزال يحتفظ بعقله على

ما حدث عليه مِن اغتصاب, حَتَّى آخر نفس وأمَّا أنا... فأنا لم أعُدْ في حاجة للتحدُّث الآن".

تصلَّب وجه الطَّبيب الشَّاب. رجع بظهره إلى الخلف. ارتخت عضلات كتفيه. اتسعت حدقتيّ عيناه وفغر فاه بعض الشَّيء. لم تكن الصَّدمة النَّاتجة عن سماع هذا الحديث, أقل في قوتها عن الصَّدمة التي يتلقاها النُّزلاء في غرفة الكهرباء. أمسك بإصْبَعيه تلك القطعة اللَّينة بين عينيه, فركها بقوة مُحاولاً امتصاص الصَّدمة القوية بما فيه الكفاية. لكن الطَّبيب الشَّاب اقترب مِن ياسمين مرَّة أخرى برأسه وقال إليها: "هل هذا هو ردكِ على سؤالي؟ تتصنَّعين الجنون؟"

زفرت ياسمين الهواء مِن فتحتيّ أنفها وقالت إليه: "أنا لم أخبر أحداً بسِرّي أبداً. لم ولن أفعل. لكني هُنا الآن سأخبرك به".

سأل أمجد: "تقصدين سِرُّ شجيرة الياسمين؟"

ياسمين بهدوء وثبات: "لا. سِرُّ ليلة رأس السَّنة".

قال أمجد بأسى وهو يومأ رأسه مؤكداً على حديثها: "نعم أظنَّني أعرف ما فعله والدكِ أمام عيناكِ".

ياسمين على مضض مكظوم: "كنتُ في التَّاسعة أو رُبَّمَا العاشرة مِن عمري, متخفِّية أسفل مفرش تلك السُّفرة الواسعة الكائنة في الصَّالة... أراقبهم... أراقبهم جميعاً. ثلاثتهم... الثَّلاثة وهُم يتناوبون عليها, وهي تصرخ, دافعت عن شرفها. صرخت بمرارة. توسَّلت. بكت. ومِن شِدة خوفها, استنجدت. استنجدت بزوجها, الذي لم يكْ أقل مِن صديقيه تيهاً في غياهب السُّكْر. سقطت على الأرض أمام عيناي. كتمتُ صراخي وبكائي بكلتى يداي. فقدت المُغتصَبة وعيها. حَتَّى بعد أن فقدت وعيها, بعد ذلك لم يرحموها, بل انتهزوا الفرصة".

سأل أمجد وهو يضع يده على وجنة ياسمين: "الثَّلاثة؟"

ياسمين والدُّمُوع في عينيها بادت وشيكة على الجريان: "بلى. الثَّلاثة".

حاول أمجد مجاريتها فيما تقول مِن هُراء لم يُصَدِّقْه. لكن دون أن يُشعرها بأنه لا يُصَدِّق هذه التَّفاهات. ثُمَّ طلب مِنها

أن يبقى هذا السِرُّ دفيناً بينهما. لكن ياسمين فهمت حقيقة شعوره بالضبط. عرفت أنَّه يُحاول أن يسمع مِنها لئلا تشعر بأنّها وحدها, فأخبرته: "هل تريد أن تعرف كيف مات راضي منذ حوالي شهرين أو رُبَّمَا أقل مِن شهرين؟"

تنفَّس أمجد بعمق وقال: "اِنتحرَ غرقاً في النِّيل".

ياسمين: "بل مقتولاً. أنا متأكِّدة مِن هذا". ثُمَّ قالت بوجه ممتعض تشوبه ملامح الغيرة الغاضبة: "بالمناسبة, كيف وجدتَ رحاب؟ لقد أخبرني كاظم منذ قليل أنَّها داعبتك جيِّداً".

اتسعت حدقتيّ عين أمجد وسأل متوتِّراً: "مَن رحاب؟"

قالت ياسمين: "اِذهبْ إليها وسلها. إنَّها تعرف كل شيء. إنَّها تعرف كل شيء عن طريق أمّها التي رافقها هاني. طبعاً رافقها في الحرام, عالَم مريض".

صرخ أمجد في ياسمين بصوت مكظوم: "كفى هُراءً وتفاهات لن تفيد يا ياسمين".

نظرت ياسمن في عينيه للحظة وسألته: "ألا تزال تريد معرفة إن كنتُ أحبك أَمْ لا؟"

نظر إليها أمجد نظرة اهتمام وقال: "بالطبع. أريد أعرف".

قالت ياسمين بغضب: "لا". ثُمَّ أدارت وجهها عنه.

نهض أمجد عنها وخرج مِن العنبر النِّسائيّ. قاصداً مكتب هاني مطر يخطو خطواته مُسرعاً في غضب شديد. اِقتحمَ المكتب دون طرق. كان هاني جالساً مع أحد أبناء النَّزيل أحمد الحيثي, الذي اِستأذنَ وخرج مِن المكتب عندما رأى ملامح الغضب في وجه الطَّبيب الشَّاب. اِنتظرَ أمجد حَتَّى خرج, وأغلق الباب خلفه. ثُمَّ اتجه إلى هاني مطر وقال في عصبيَّة وهو يضغط بشدة على أسنانه, محاولاً عبثاً أن يخفض مِن حِدته وقيظه: "حسناً. يجب أن تتوقَّف جلسات الكهرباء الخاصة بياسمين طيلة هذه الفترة. في المرَّة القادمة أظنَّني سأفقدها". ثُمَّ سعل سعالاً خفيفاً يُخفي خلفه حرجاً وقال: "أقصد أننا سنفقدها".

أشار إليه هاني مطر حَتَّى يجلس, فجلس. طلب مِنه أن يتحكَّم في انفعالاته, ويحاول أن يفصل العلاقات العاطفيَّة عن العمل المهنيّ, لأن هذا قد يضر بحالة النَّزيلة. ثُمَّ أخبره أن

يحتسي فنجان القهوة الفاتحة التي لم يرشف مِنها ابن المقاول أحمد الحيثي ولو رشفة واحدة. لم يهتم أمجد كثيراً بالفنجان على الصِّينيَّة الحَديدِيَّة, فضّيَّة اللَّوْن. وقال بصوتاً هامساً: "لقد أثَّر التَّيَّار الكهربائيّ على عقل ياسمين. أتعلم؟" ثُمَّ اقترب مِنه برأسه وأخفض نبرته أكثر وقال: "لقد أخبرتني أنَّها ما تزال تتذكَّر الحادثة.. حادثة الاغتصاب, عندما كانت صغيرة. كما أنَّها تعتقد أن والدها وآخرين فعلوها!" ثُمَّ أراح يده اليمنى على المكتب الخشبيّ وقال: "لقد فقدت عقلها بسبب هذه الصَّعقات الكهربائيَّة".

بلع هاني مطر ريقه بغُصَّة وأغمض عيناه لِثانيتن, ثُمَّ فتحهما مرَّة أخرى عندما سأل أمجد: "ماذا هُناك؟"

أسرعَ هاني مطر: "لا شيء. فقط أشعر بالأسى تجاه المسكينة, لطالما شعرتُ أنَّها ابنتي". ثُمَّ أغمض عيناه مرَّة أخرى تاركاً أمجد الذي اِنفعلَ وبدأ يتحدَّث عن حالتها الصِّحية المُترديَّة وهو يسير أمام المكتب الخشبيّ ذهاباً وإياباً. استطاع هاني مطر أن يعبر مِن موجة الذِّكريات التي غمرته وفتح عيناه, ولا يزال أمجد يسير كالمعتوه يميناً ويساراً, ويعرض استراتجيتَّه الطِّبيَّة مِن أجل رعاية ياسمين,

حَتَّى صرخ فيه هاني وأخبره أنَّه يُفقده عقله, وأشار إليه أن يخرج ويتركه وحده.

خرج أمجد غير راضٍ عن أسلوب التَّجاهل الذي تعرَّض له منذ ثوانٍ, وسار حَتَّى دخل إلى عنبر النِّساء. فوجد كاظم جالساً على المقعد الخشبيّ, ويحاول أن يتحدَّث مع ياسمين, التي قالت إليه عندما كان أمجد يقترب إلى سريرها: "أرح نفسك. أنتَ مثل الجميع هُنا. قاتل".

سأل كاظم بنبرة الاندهاش: "قاتل؟!"

أجابت ياسمين: "بلى. بالطبع أنتَ لم تقتل روحاً مثلما فعلوا, لكنك تقتل كل شيء حولك, حَتَّى جسدك الذي يُشبه الفيل أنتَ تقتله الآن".

لم تهز هذه الكلمات الثَّقيلة أيّ شعرة في ذكر الفيل الجالس على المقعد الخشبيّ, أخرج شطيرة أخرى مِن كيساً بلاستيكيَّاً مُصاب بالتخمة هو الآخر. وبدأ يتناولها, ثُمَّ نهض وسار إلى خارج العنبر دون كلمة واحدة. مَرَّ بجانب أمجد وهو ينظر إليه نظرة عدم المبالاة.

قبل أن يصل أمجد إلى سرير ياسمين, وجدها تنهض عنه سريعاً وتبعد المقعد عن السَّرير, ثُمَّ عادت وجلست مكانها مرَّة أخرى. وقف أمجد مُتَصَلِّباً يتابع حركاتها المُرْهَقَة بفاهٍ فَغْر. لكنه أكمل خطواته نحوها. تأكَّد أن لا أحد قريب. وجلس بجانبها على السَّرير. مدَّ يده نحو كفَّها الذي هرب إلى ما بين قدميها المُتشابكتين. مرتعدة وبائسة. التقط كفَّها الصَّغير مِن بين فخذيها, وحضن أصابعها بكفِّه الرِّجُوليّ. للوهلة الأولى تَمَنَّعَتْ ياسمين, لكنها ذابت سريعاً في غضون ثانيتين عندما شعرت بدفء يده المُطَمْئِنَة. تأوَّهت وهي تتلوَّى برقبتها وجذعها النَّحيف, ثُمَّ قالت في استسلام حاولت عبثاً أن تُعضِّدهُ مقاومةً, لكنها فشلت, قائلة: "بلى. أحبك".

بعد رعاية طبيَّة خاصة, ذات طابع حميميّ على نحوٍ مُفرط. خلدت ياسمين إلى النَّوم. تأكَّد أمجد أن الجميع قد ذهبوا. خرج عادل وهيمة إلى مكانهُما أمام البوابة الرَّئيسيّة لِمبنى المَصَحَّة. دخل عَمّ صابر غرفته. وياسمين نائمة كالملائكة في سريرها. تركها, ثُمَّ قطع الطُّرقة الطويلة, حَتَّى خرج مِن باب المَصَحَّة الرَّئيسيّ. وجد عادل يجلس بجانب البوابة, وهيمة ينفخ في نيران الرَّاكية, ويضع عليها برَّاداً

خَضَّبَتْهُ الأغبرة السَّوداء, وريماس الأخشاب الجافة المُتفحِّمة, لكنه ما زال يأبى الجنوح إلى رف التَّقاعد, وفضَّل مُسايرة لهيب النِّيران. سار مصفطى نحو سيَّارته, دون سلام ودون كلام. اتبعَه هيمة وطلب مِنه أن يغفر لهما سذاجتهما. لكن أمجد لم يستمعِ إليه. دلف إلى سيَّارته. وانطلق بها سريعاً.

في شَقَّته. أخذ حمَّامه البارِد. بدَّل ملابسه. استراح قليلاً على سريره بعد أن تناول الطَّعَام. بعد دقائق طويلة مِن الرَّاحة, نهض أمجد والتقط هاتفه المحمول. كان الهاتف مُغلقاً. ضغط مطولاً على زِرّ التَّشغيل الرَّئيسيّ أعلى الهاتف. ثوانٍ معدودة وفُتح الهاتف. وبعد عِدَّة دقائق, بدأت المُكالمات المضطربة تصدح فيه بالرنين. أجرى مُكالمة مع أمه, مُكالمة طويلة لم تخلْ مِن الشِّجار المُتوقع. اندهش أمجد عندما أخبرته أمّه أنَّها ليلة الخميس, وأخبرها أنَّه قد نسى ولن يستطيع أن يعود إلى المنزل في الإسْكَنْدَرِيَّة هذه اللَّيلة, ولا حَتَّى في الغد, لذلك سوف يقضي الأُسبوع القادم هُنا أيضاً ويعود يوم الخميس القادم. صرخت فيه أمه, أخبرته أن أخيه الأصغر يحتاج إلى اهتمام ورعاية, ويحتاج إلى مَن

يقوده في هذه المرحلة. فصرخ فيها أمجد بدوره قائلاً: "أنا لستُ أبيه".

قالت أمّه بصوت مغموماً: "لا, أنتَ لستَ أبيه. لكن أبيه قضي نحبه بين ذراعيك. إن كنتَ نسيتَ".

ضغط أمجد غضباً على زِرّ الإغلاق في الهاتف. وتذكَّر الفتى الملثَّم وهو يُطلق ثلاث رصاصات غاشمة على صدر أبيه, الذي سقط هامداً على الأرض. تذكَّر أمجد أيضاً, المُثلَّث الذي أضاء هذه المرَّة بالدماء اللامعة على يد الفتى الملثَّم وهو يهرب, ثُمَّ تذكَّر أنَّه شاهد هذا المُثلَّث اليوم على ساعد النّزيل رجب. قطع رنين الهاتف تركيزه الشَّديد. كان الهاتف لا يزال بين يداه. نظر في الهاتف.

(عُرابي يتصل بك...)

اِبتسمَ أمجد. ضغط على زِرّ الرَّد على الفور. وقال بصوتاً مرتفعاً يميل إلى المرح بعض الشَّيء: "عُرابي. مساء الخير".

صاح صوت عُرابي الهاتف: "مساء الخير يا قاتل, يا زير النِّساء. ما الذي أهديته إلى رحاب حَتَّى تُجن بك عِشقاً

هكذا؟" ثُمَّ ضحك بصوت مرتفع: "لا بُدَّ أنَّكَ أهديتها شيء ما ذو حجم كبير".

لم يفهم أمجد ما قاله عُرابي وقال في دهشة: "لم أعطها أيّ شيء!"

ضحك عُرابي مرَّة أخرى وهو يقول بصوته الأجش: "لقد قصدتُ أنّك جعلتها تتحسَّس عضـ -" جذبت رحاب الهاتف مِن يد عُرابي وتحدَّثَتْ إلى أمجد في لهفة وشوق كبيرين: "أمجد. أنتَ أمجد؟"

قال أمجد تلقائيَّاً: "بلى. أنا هو يا رحاب. كيف حالكِ؟"

قالت رحاب بنبرة انكسار: "أنا كالمجنونة هُنا. أظنَّني سأدخل المَصَحَّة التي تعمل فيها عمَّا قريب. أرجوك تعال إلى الكابرية اللَّيلة".

اندهش أمجد وقال في حِيرة: "اللَّيلة؟ لا أعرف... أنا مرهَق وأحتاج إلى النَّوم".

قالت رحاب مُسرعة: "أرجوك. تعال وارتح عندي. يمكنك أن تخلد إلى النَّوم بين أضلعي, ولن أفيقك إلا عندما أشتاقُك,

وأنتَ في أحضاني. حَتَّى أنَّني قد أضغط قلبي وأعصره بيداي حَتَّى يهدأ عن خفقانه, كيلا يُفيقك مِن نومك".

اِندهشَ أمجد أكثر مِن براعة لِسان الفتاة وسألها: "هل أنتِ شاعرة أَمْ راقصة في كابرية؟"

قالت في شغف: "سأكون ما تريدني أن أكون. فقط تعال".

جذب عُرابي الهاتف مِن يدها. وطلب مِن أمجد أن يحضر اللَّيلة, لِيقضيها هُنا. ويعود إلى شَقَّته في أيّ وقت يريد. فالغد هو أجازة نهاية الأُسبوع. فكَّر أمجد سريعاً في العرض الذي قدَّمه عُرابي, ووجده عرضاً لا يمكن رفضه. أغلق الهاتف معه بعد أن أخبره بقبوله العرض المُغْرِيّ.

نهض. بدَّل ملابسه المنزليَّة التي ارتداها لِتوه ببنطال جينز وقمِيصٌ مَكْوِيٌّ, لا يتماشى في لونه الأبيض والمربعات البُنّيِّة الصَّغيرة بمكان ككابرية. نظر في السَّاعة المتدلِّية على الحائط في الصَّالة. إنَّها الحادية عشر, مساء ليلة الخميس. أغلق باب الشَّقَّة خلفه. نزل إلى سيَّارته. ووصل إلى الكابرية بعد حوالي نصف ساعة طويلة بسبب الخِنَاقُ المروريّ.

كانت رحاب تؤدي نمرتها الرَّاقصة على مسرح صغير, ويقف بجانبها مطرب بصوت أجش ومخارج ألفاظ في حاجة ماسة إلى أن تُعرض على دكتور تخاطب. في الواقع لا أحد مِن رواد الكابرية ينتبه إلى صوته أو حَتَّى إلى الفرقة الموسيقيَّة مِن خلفه. الجميع مشغول إمَّا بكأساً وإمَّا بجسداً. نظر أمجد حوله, يميناً ويساراً. المكان مكتظ بالسكارى والعرابدة. لمح شيء ما مِن المفترض أنَّه مِقعد. كان مُستديراً وضيِّقاً, ويرتكز على قدم واحدة معدنيَّة مُثبَّتة في الأرض, أمام باراً ذو سطحاً رخاميَّاً غامق اللَّوْن. ذهب أمجد إلى المقعد المرتفع, جلس عليه غير مستقر مِن دورانه. أتاهُ رجل البار على عُجالة وسأله: "كيف يمكنني أن أخدمك سيِّدي؟"

نظر إليه أمجد وفَكَّرَ لثانيتين وقال على الفور: "كوباً مِن الماء... مِن فضلك".

فَهِمَ رجل البار أنَّه ينتظر أحدهم, فأومأ برأسه وأحضر كوب الماء على الفور, وتركه وذهب إلى الزَّبائن الآخرين. لم يشرب أمجد كوب الماء وظلَّ يحملق فيه, ويجول في مخيلته أن هذا الكوب المملوء الآن بالماء, رُبَّمَا كان مملوءً

بالخمر في أحد الأيام وَرُبَّمَا في وقت ليس ببعيد مِن هذه اللَّيلة. قطع رجل البار هذه الهواجس واقتربَ مِن الشَّاب المتمعِّن النَّظر في الكوب الذي أمامه وسأله: "هل أحضر لك مشروباً يا سيدي؟"

انتبه أمجد إلى عينيّ النَّادل الفاحصتَين وقال: "لا. أنا أنتظر أحدهم فقط". ثُمَّ حوَّل نظره إلى الرَّاقصة على المسرح المُسْتَبَاح إلى الجميع صعوده.

ظلَّ أمجد مُشتَّتاً التَّفكير بين الكوب تارة وبين ياسمين التي اعترفت إليه اليوم بحبها تارة أخرى. انتهت الأغنية المزعجة, اختفت رحاب مِن على المسرح. عاد رجل البار مُجدَّداً وسأل بنبرة انفعال مكظومة: "سيِّدي. إنّك في كابرية ولستَ في صالة استقبال. هل أجلب لك شيء حلو المذاق؟ ويسكي؟ أَمْ رُبَّمَا شيء ثقيل؟ فودكا مثلاً؟!" ثُمَّ نكص برأسه إلى الخلف وقال بابتسامة بلهاء: "أتعرف؟ يمكنني أن أجلب لك مشروبي المفضَّل, فودكا مارتيني مخفوقة, مع نصف كوب مِن براندي كُمِّثرة, وثلاث قطرات مِن الرَّاسيل الألماني مُزيَّنة بقِشْرة ليمون طازجة؟"

زفر أمجد الهواء ثقيلاً مِن أنفه بعد أن حبسه, حَتَّى أنهى رجل البار حديثه غير المفهوم وسأل برجفة خفيفة تبعث على الاستسلام: "هل لديكم مياه غازيَّة؟"

استدار رجل البار دون حديث وذهب إلى الزَّبائن, ثُمَّ عاد بعد دقيقة بكوباً مِن المياه الغازيَّة السَّوداء. وضعها أمام أمجد وتركه وذهب لِمباشرة عملهُ المعقد على نحوٍ مُربك بعض الشَّيء.

تناول أمجد الكوب في يده. وظلَّ يلتفت بعينيه ويقز بهما مِن زجاجة إلى أخرى, أسماء مختلفة, وألوان مختلفة, وأحجام مختلفة, أحجام مختلفة وكثيرة. بداية مِن الزُّجاجة في حجم الإبهام الكبير, وحَتَّى زجاجات تُشبة إلى حد كبير دكتور نفسيّ سمين يُكنِّيهُ النُّزلاء في المَصَحَّة بـ "ذكر الفيل". ضحك أمجد بصوت عندما تذكَّر كاظم. حَتَّى أنَّه استدار بالمقعد الذي اِكتشفَ أنَّه دوَّراً, حَتَّى يبحث عن كاظم بين رواد الكابرية, لم يجدهُ. لِحسن الحظ وجد أمجد ركناً تقل فيه الأضواء بعض الشَّيء, ولا يوجد به أحداً, فذهب وجلس فيه.

دقائق قليلة وجائهُ عُرابي. جلس معه بعد أن تصافحا الأثنين بابتسامة. سأل أمجد: "أين كنتَ؟ ظننتُ أنَّني سأجدك بمُجَرَّد أن أصل إلى هُنا!"

قال عُرابي: "كنتُ أسرِّح الفتايات هذه اللَّيلة. عجباً, لقد انقضى عملي سريعاً اللَّيلة. رغم أنَّها ليلة الخميس. سأظلُّ معك هذه اللَّيلة برمتها, أعرِّفكَ وأطلِعَك على أسرار هذا الكابرية".

في هذه اللَّحظة صرخت رحاب صرخة استقبال عندما وجدت أمجد جالساً في الرُّكن المعتم. وهرولت إليه بابتسامة شغف وجلست بجانبه وعلى وجهها ملامح الفرحة. سألت أمجد عن حاله, فأجابها أنَّه بخير, وسألها بدوره عن حالها, أجابته أنَّها الآن بخير. نهض عُرابي عنهما, وذهب إلى أحد الشِّيوخ الخليجيين الذين يصلون في هذا الموسم مِن العام بكثرة, ويتواجدون أيضاً بكثرة في مثل هذه الكابريهات. فيما كان أمجد يتناول كوب المياه الغازيَّة التي في يده بحذر. لاطفته رحاب بضحكة, ولامست كتفه بكتفها, ثُمَّ قالت: "تبدو متوتِّراً للغاية". ثُمَّ بدأت يدها المتحرِّرة تُداعب ما بين فخذيه ملثما فعلت المرَّة السَّابقة. في المرَّة السَّابقة كان أمجد تحت

تأثير الخمر, فتركها تفعل ما تريد واِستمتعَ به. لكن هذه المرَّة عقله غير مُشتَّت. فأبعد يدها عنه غاضباً, وأخبرها أنَّه سوف يرحل على الفور مع المرَّة القادمة التي ستحاول هي فيها أن تنتهك أشد خصوصيَّاته قداسة.

أبعدت رحاب يدها ورفعتهما في الهواء قاصدةً أنَّها لن تفعل هذا أبداً. ثُمَّ قالت: "لم أجد مثلك قط. تقريباً كل الرِّجال أسفل سقف هذا الكابرية يتمنون أن أداعبهم هكذا, بل يتمنون أن يلمسوني فقط".

ضحك أمجد وقال: "نعم نعم. كل الرِّجال باستثناء كاظم. لقد أخبرني أنَّه ضاجعك أكثر مِن مرَّة. تقريباً مرَّة كل أُسبوع".

تجَّعَدَتْ ملامح وجهها وقالت في غضب: "مَن؟! هذا الخرتيت لم يلمسني قط. ولم يلمسني أيّ أحد مِن هؤلاء الرِّعَاع". وأشارت بيدها إلى كل مَن في الكابرية.

ضحك أمجد مرَّة أخرى وقال: "رِعَاع. لديكِ ألفاظ وحصيلة كلمات غير عاديَّة يا رحاب. تتحدَّثين كأنكِ لا تنتمين إلى هذا المكان. وكأنكِ حظيتي على تعليم جامعيّ".

قالت رحاب في جدِّيَّة تامة: "بلى. لقد درستُ في كُلِّيَّة دار العلوم في جامعة القاهرة".

عندها صُدم أمجد وسألها في دهشة: "دار العلوم؟! وكيف انتهى بكِ المطاف في هذا المكان الموبوء النَّتن؟"

عندها وضعت رحاب عينيها في الأرض وقال بغُصَّة, كأنَّها تتذكَّر أيام صعبة: "لا شيء. ظروف. فقط ظروف". ثُمَّ رفعت عينيها مرَّة أخرى وقالت في مرح: "لكل مِنَّا ظروفه الخاصة".

في هذه اللَّحظة, قاطعهما كاظم بصخب, وجلس بجانب أمجد وسأله بضحكٍ فج: "ماذا؟! هل أدمنتَ الكابرية أنتَ أيضاً؟" ثُمَّ قضم قضمة كبيرة مِن شطيرة اللحم المفروم التي في يدها.

قال أمجد وهو مشمئز: "الحمد لله أني لم أُدْمِنُ الطَّعَام مثلك. بصفتي طبيب, يُسعدني أن أخبرك أنّك ستموت بالسمنة يا صديقي".

ضحك كاظم وقال بسعادة: "هذا ما أتمناه منذ زمن يا صديقي. هذا ما أتمناه". ثُمَّ نهض مِن جانبه وذهب لِيجلس على منضدة بجانب المسرح, وسط الصَّخب.

تتبَّعه أمجد بعينيه حَتَّى اِنتبهَ إلى حديث رحاب: "منذ متى وأنتَ تعرف كاظم؟"

قال أمجد: "منذ أكثر مِن شهر. منذ أن بدأتُ العمل في المَصَحَّة".

قالت رحاب: "نعم. المَصَحَّة... حسناً, حاول ألا تربط بين الموت والطَّعَام أمامه, هذا الأمر قد يجرحه".

سأل أمجد مُستفسراً: "وما الرَّابط بين الموت والطَّعَام حَتَّى يجعل ذكر الفيل يشعر بألم؟"

"ولا يجب أن تنعته بذكر الفيل أيضاً".

ضحك أمجد: "ولمَ لا؟"

قالت رحاب بجدِّيَّة تامة: "انفصل كاظم عن زوجته بعد أن مات ابنه ذو الثماني أعوام. أتريد أن تعرف كيف قضى الطفل نحبه؟"

نظرات أمجد ثابته على وجه رحاب وكأنَّها تصرخ فضولاً... كيف وكيف وكيف.

رحاب في جدِّيَّة تامة: "بالسمنة. تكتلت الدِّهون على عضلة القلب, ولقى حتفه رغم جهود والديه المُضنية التي لم تَحُول بينهُ وبين الموت... آه وبالطبع السِّمنة, شَعَرَ كاظم بعدها بالتقصير تجاه ابنهُ. ثُمَّ انفصل عن زوجته التي ماتت حُزناً على طفلها فيما بعد. والآن يتناول كاظم الطَّعَام ليلاً ونهاراً بشراهة ودون توقُّف. آملاً أن يموت سريعاً مثل ابنه".

اقشعر بدن أمجد مِن سماعه إلى هذا الحديث, شعر أن الدِّماء تخثَّرت حقاً في شرايينه, وخجل كثيراً مِن نفسه, لأنّه لم يفهم أن الطَّبيب النَّفسيّ الذي لطالما نادهُ بـ "ذكر الفيل" هو في الأساس مريض نفسيّ, في حاجة ماسة إلى رعاية طبيَّة ونفسيَّة. تنفَّس أمجد بعمق, ومسح العرق عن وجهه بيده اليمنى وهو يقول: "أنتِ على حق. لكل مِنَّا ظروفه".

سألت رحاب بابتسامة هادئة: "وأنتَ. ما هي ظروفك؟"

هرب أمجد مِن عينيها المترقبتين نحو صالة الكابرية المكتظ بالزبائن والصَّخب. ثُمَّ قال بعد ثواني مِن التَّرقب والاهتمام المُفرط: "كيف تنهضين على العيش وسط كل هؤلاء السَّاقطين". ثُمَّ نظر إليها وتبسَّم في وجهها ابتسامة تبعث على الطمئنينة وأتبع: "لا بُدَّ أنكِ تكرهين هذا المكان".

ضحكت رحاب وقالت في مرح: "على العكس تماماً".

سأل أمجد: "على العكس تماماً؟!"

"بلى. على العكس تماماً".

سأل أمجد بنصف ابتسامة: "كيف؟"

أتبعت رحاب مُفسِّرةً: "هُنا... أنا أفعل ما أريد أن أفعل. أبي عاش ومات هُنا, وأمّي عاشت وستموت هُنا, لمَ عليَّ أن أكون عكسهما؟! *مَن شابه أباه فما ظلم*, أنا هُنا في عالَمي الخاص. أتعامل كما أريد, أشرب ما أريد, وآكل ما أريد, وأرقص حينما أريد". ثُمَّ ضحكت وهي تُخفي وجهها بكلتى يداها.

سأل أمجد: "أنتِ حُرَّة؟!"

أومأت رحاب برأسها: "بلى, أنا حُرَّة".

سأل أمجد: "تعيشين مثل أبيكِ وأمّكِ؟"

"بالضبط".

"مَن شابه أباه فما ظلم".

"بالضبط أيُّها الطَّبيب".

سأل أمجد بوجه جامد: "متى آخر مرَّة رفضتي فيـها أن تؤدي نمرتكِ؟"

تمعَّض وجه رحاب, لكنها سارعت بابتسامة على شفاها دون تجاعيد حول عينيها: "نعم. بالضبط, أنا دائماً أحب أن أرقص". ثُمَّ وضعت يدها اليسرى على فاهها لِتُكْتِم سُعَالاً خفيفاً. وحملقت في المنضدة الصَّغيرة التي أمامها. وبدت لِأمجد كأنَّها تتذكَّر شيء ما, فلم يشأ أن يقطع هذه الذِّكرى التي بدت مؤلِمة على ملامحها, لِدرجة أن أمجد نفسه شعر بألمها.

بالفعل كانت رحاب تتذكَّر آخر مرَّة رفضت فيه أن تؤدي رقصتها, عندها ربطها فتحي الجحش, مدير الكابرية, وهي

عارية تماماً, تماماً, وَجَلَدَها بالسوط, في مخزن الكابرية. ظلَّت القروح والجروح تُدْمِل ولا تُشْفَى مِن راحة ولا تلتأم مِن عقاقير أو مراهم, لأكثر مِن شهر. وبعدما طابت الجروح, خلَّفت مكانها آثار, شوَّهت جسد الفتاة, لكن بطريقة أو بأخرى حالت بينها وبين الزِّنا, حيث حجبها الجحش عن العمل في البغي, نظراً إلى التَّشوُّهات فيما بين فخذيها وعلى مؤخرتها وأسفل ظهرها, ناهيكَ عن الحُمرة الدَّائمة في ثدييها.

تغرغرت عينيّ الفتاة بالدُمُوع. فأمسك أمجد يدها في حنان, وأخبرها أن تروي إليه كل شيء, وأكَّد إليها أنَّه مثل أخيها. ورضت رحاب بالفكرة الجديدة التي عرضها عليها أمجد, فكرة أن يكونا كالأخوة. قَبَلَتها رحاب سريعاً, ونست على الفور الفكرة المشوَّشة الأخرى, التي رسمتها في مُخيِّلتها بأن يكونا يوماً عاشقين.

والحق أن رحاب لم تنسْ فكرتها بشكل نهائيّ. حيث ظلَّت تراود أمجد عن نفسه في مُخيِّلتها طويلاً, حَتَّى, في خلال أُسبوعين, أصبحا كلاهما صديقين تربطهما علاقة أخويَّة متينة. وأصبح أمجد مِن رواد الكابرية المنتظمِين. مِن

المَصَحَّة إلى البيت, ومِن البيت إلى الكابرية. لا يشرب الخمر, ولا يقترب إلى أيّ مِن فتيات البغي, اللاتي ينتشرن في صالة وأروقة الكابرية بشكل ملحوظ للغاية.

بعد هذا آثرت رحاب أن تروي إلى أمجد قِصَّة حياتها بشكل سريع, بين نمراتها الرَّاقصة, فَعَرِفَ أمجد: أن رحاب طماطماية, ابنة سعاد طماطماية, قد أنهت دراستها في كُلِّيَّة دار العلوم بجامعة القاهرة بتقدير عام جيِّد جِدَّاً. بعد هذا انضمت مع أبيه وأمّها إلى الكابرية. وقضى والدها نحبه مقتولاً بسبب شجار بينه وبين أحد الزبائن في الكابرية. وَعَرِفَ مِنها أيضاً أن أمّها سعاد طماطماية كانت ترافق هاني مطر في عِلْم زوجها!".

سألها أمجد في إحدى الليالي: "لمَ لا تهربين مِن هذا الكابرية. أنتِ وأمّكِ؟ وتعيشان حياة هادئة بعيدة عن هذه الضَّوضاء والعفونة المُوغاليَّة؟"

وكان رد رحاب: "إنَّ أمّي وأبي وقَّعَا على شيكات كثيرة إلى المدير فتحي الجحش. لذلك هو تقريباً يمتلكنا". ثُمَّ طلبت مِنه ألا يذكِّرها بهذه الأمور التي تحاول جاهدةً أن تنساها,

وتطويها مع الأيام. كما أنَّها اعترفت إلى أمجد أن هاني مطر هو مَن طلب مِنها أن تتودَّد إلى أمجد في المقام الأول.

مع الأيام, استعادت ياسمين شيء مِن حيويَّتها. وبالفعل, بعدما تدخَّل أمجد ومنع جلسات الكهرباء, بدأت الفتاة بالشعور بعنفوانها مِن جديد. حَتَّى أدهشت أمجد في إحدى الأيام وطلبت مِنه أن ينفِّذ لها أمنيتها بأن تهرول على كورنيش النِّيل حَتَّى تنفجر الدِّماء في عروقها.

اِبتسمَ إليها أمجد وأخبرها أنَّه يتمنَّى هذا. لكن بعدما يُغلق باب المَصَحَّة الرَّئيسيّ, لا يوجد هُناك أيّ سبيل آخر للخروج سوى النَّفق الذي في عنبر الرِّجال, والذي يُمنع عليها دخوله, والنَّفق الآن مسدوداً بكتلة خرسانيَّة سمكها ثلاث أمتار على أقل تقدير.

ابتسمت ياسمين إلى أمجد ابتسامة ثقة, وأخبرته أن ينتظرها عند شجر الياسمين اللَّيلة ولا يتأخَّر. صُدِمَ أمجد مِن ثقتها, وحاول أن يعرف الطَّريقة التي ستخرج بها مِن المَصَحَّة. لكنها آثرت أن تظلّ الطَّريقة سِرَّاً في جعبتها هي وحدها.

وافق أمجد, غير آبهاً للطريقة التي ستخرج بها, بقدر ما كان متشوِّقاً للحُرِّيَّة التي سينالها اللَّيلة وهو معها. ليلة واحدة طويلة. سيفعلان فيها كل ما يشتهيانه. وفي الليل بالفعل, نزل مِن شَقَّته وقاد سيَّارته باتجاه المَصَحَّة.

الفصل العَاشِر.

أمَانِي تَتَحَقَّق.

بالفعل, وصل أمجد إلى الحديقة الخلفيَّة بسيَّارته في تمام السَّابِعَة. بشيء مِن اللَّهفة والتَّرقب, نظر مِن خلف زجاج سيَّارته نحو شجيرة الياسمين. كانت الأجواء مُعتمة أكثر مِن أيّ وقت مضى. تَرَجَّلَ مِن سيَّارته. سار ببطء نحو السِّياج الحديديّ. فوجد ياسمين جالسة بالفعل في مكانها المعتاد, تُداعِب الحشائش الصَّغيرة التي تنبت في الأرض مِن حولها. وقف أمجد مكانه خلف القضبان الحَديدِيَّة, يُراقب الفتاة التي استعدَّتْ لِتحقيق أمنيتها. ما أن رأته واقفاً صامتاً, لا يفعل شيء سوى المُشاهدة بتلك البسمة الرَّائعة على شفاه, والتي تذوب هي في مكانها كلما رأتها, نهضت ياسمين, وعلى وجهها ملامح الانتصار, سارت نحوه وقالت بصوت يرنو إلى الفخر بعض الشَّيء: "لا توجد جدران تستطيع أن تحتجزني".

اِبتسمَ إليها أمجد مِن خلف القضبان الواسعة, وقال ببهجة: "حسناً. ماذا عن هذا السِّياج؟ أيمكنه أن يحتجزكِ؟"

مُحت البسمة وملامح الاعتزاز بالنفس مِن على وجهها. وقالت بنبرة يتخللها الخوف والإمتار: "لا أعرف. رُبَّمَا ينجح في ذاك". ووقفت تترقَّب السِّياج في حذر.

بسط أمجد يده اليمنى إلى ياسمين وقال إليها أثناء انشغالها بتفحُّص السِّياج: "لا يمكن لأيّ جدران أن تحتجزكِ وأنا بجانبكِ".

انتبهت ياسمين إلى يده المبسوطة. وضعت يدها الصَّغيرة الباردة في يده. انتابتها قشعريرة خفيفة في بدنها النَّحيل. لكنها سرعان ما تمالكت أنفاسها وتغلَّبت على رعبها مِن عبور السِّياج, لأول مرَّة في حياتها. وبدأت بالفعل تتسلَّق السِّياج. وبدا لها أنَّه مِن السَّهل هزيمة هذا السِّياج ذو القضبان الحَديدِيَّة الواسعة. لستَ منيعاً أيُّها الوحش الحديديّ الصَّدأ.

بالفعل في غضون دقيقة. استطاعت ياسمين أن تقفز مِن فوقه. ثُمَّ وقفت على أرضيَّة الرَّصيف في الشَّارع. وبدأت تخطو خطواتها الأولى نحو الحُرِّيَّة. كانت السَّيَّارة واقفة بالضبط في منتصف الطَّريق, الذي لا يعبره إلا كلباً شرد على أصدقائه, فأعياه التَّوق والشَّوق. كانت ياسمين حافية القدمين. ترتدي عبائة خاصة بالمَصَحَّة. نظرت إلى ملابسها وقدماها الحافيتين وقالت إلى أمجد: "هُناك مشكلة!"

اِنتبهَ أمجد إلى ما ترمي إليه, ثُمَّ اقترب مِنها وتناول يداها في رقة, وقال ببسمته التي تبعث على الاطمئنان والهدوء: "لا توجد أيَّة مشاكل. لقد جهَّزتُ كل شيء مُسبقاً". ثُمَّ فتح لها باب السَّيَّارة ودلفت سريعاً, كأنَّها خشت مِن ذاك الأمر الذي ظلَّ طويلاً طويلاً كحاجة في نفس يعقوب. والتف حول السَّيَّارة إلى الباب الآخر, فتحه ودلف. وقاد السَّيَّارة نحو شَقَّته.

في أقل مِن خمس دقائق. وصلا إلى الشَّقَّة. وصعدا كلاهما الدَّرج في عُجَالة وتخفِّي, يخطيان الدَّرج بخفة وسرعة حَتَّى لا يشعر بهما أحد ما. فتح أمجد باب شَقَّته. أدخلها, ثُمَّ دخل وأغلق الباب خلفه.

قالت ياسمين مُدَاعِبَة: "هل سنركض هُنا؟ أين الكورنيش؟"

نظر إليها أمجد نظرة مُحْبَطَة وقال: "ستبدِّلين ملابسكِ يا ذكيَّة".

دخل إلى غرفة نومه, وخرج سريعاً بحقائب بلاستيكيَّة, بها بنطال جينز أزرق حريمي وبلوزة زرقاء بها خطوط

بيضاء أنيقة. وحقيبة أخرى بها حذاء مناسب تماماً للملابس, ومناسب في الوقت ذاته للركض. وحقيبة ثالثة, لم يُخرج ما بداخلها. وناولها إياها بشيء مِن الخجل وقال: "أنتِ اكتشفي ما بداخلها".

تناولتها ياسمين ونظرت بداخلها بفضول. وسرعان ما اِحمرَّ وجهها خجلاً. نظرت نحوه ملياً, ثُمَّ قالت بحياء: "كيف عَرِفتَ مقاسي؟ حَتَّى الملابس الدَّاخليَّة؟" ثُمَّ نظرت في الحقيبة مرَّة أخرى وقالت بدهشة: "وأدوات تجميل كذلك؟!"

قال أمجد بلهفة: "أسرعي. أريد أن أراكِ بهذه الملابس". ثُمَّ نظر في السَّاعة المتدلِّية على الحائط وقال بنبرة متوتِّرة: "إنَّها الثَّامنة. أسرعي, إلى الحمَّام أو إلى غرفة النَّوم, بدِّلي ملابسكِ". وأشار إليها بيده أن تدخل إلى غرفة النَّوم.

دخلت ياسمين الغرفة وأغلقت الباب خلفها. ظلَّ أمجد واقفاً في الصَّالة متوتِّراً كثيراً, يمضي يميناً ويساراً كأنَّه ينتظر مولوده في المشفى الوطني.

بعد ساعة كاملة, خرجت ياسمين مِن الغرفة.

وقف أمجد مذهولاً أمام جمالها, كانت الملابس تلائمها بالضبط. شعرها الدَّاكن معقوداً خلف رقبتها البيضاء كالثلج, فبدا كعتمة الليل حينما يغدو فجراً. كانت بعينان واسعتان كأنَّهُما عينيّ الرِّيم. دون نقطة واحدة مِن مواد التَّجميل, سوى القليل مِن أحمر الشِّفاه, وتقريباً كان هُناك لوناً أحمراً فوق عينيها؟! لا يُهم... مازال أمجد واقفاً في مكانه يستقبل جمالها على مراحل وفترات. يتفحَّصها بعينيه مُدقِّقاً النَّظر في كل سنتيمتر في الكائن بارع الجمال الذي يقف أمامهُ مُبدياً الحياء الشَّديد, بداية مِن الحِذاء وحَتَّى رموشها الحادة القاتلة. نسى حيائه تماماً أمام هذه النَّداهة, بارعة الجمال.

فقطعت ياسمين نظراته غير المُوارية وأنشدت مُحَذِّرَةً إياهُ:

لا وَصْفُ لَهُن يتم بكلمات
فَهُن لِـــــــــعقلٍ ودينٍ نَاقِصَات
توارى عَنْهُن خُذ بالنصح
فَهُن بأسهم العِشق لَنِعْمَ الرَّامِيَات.

انتبه أمجد إلى صوتها الرَّقيق وآثر أن يُجاريها مُنشداً في حُسنها, بين الثَّناء تارة, وإبداء الحِيطة تارة أخرى:

أَنْتُنَّ يا معشر النِّسَـــــــــاء
سكوتكن للرضـى تعبير ودِلالات
تُضنون العزيز والـــمتواضع
بنظرات حـــدَّها الرِّمش قَاتِلات
لَكُن على الشَّـــوَارِب تأثير
وما خطى شـــارب لَكُن خطوات
امتلكتونا رجالاً بأجساد وَلُحى
بتجسيدكُن لِدَور الرَّاهِبَــــات.

ضحكت ياسمين بصوتاً كالطرب وقالت: "ماذا؟ امتهنتَ الغزل الآن وأصبحتَ شاعراً, هل هجرتَ الطِّب أيُّها الطَّبيب؟"

اقترب مِنها أمجد بخطوات ثابتة وقال: "رُبَّمَا سأتعلم الشَّعر حَتَّى أجاريكِ إياهُ... سَيِّدَتِي".

شعرت ياسمين بالاطراء, لكنها انتبهت إلى الشَّاب الوسيم الذي على وشك أن يلصق شفتاه القاتلين بشفتاها فقالت وهي تتصنَّعُ التَّمنُّع: "هل تجد نفسك قوي؟"

"ماذا؟"

"أنا لا أخافك. لا تنخدع في جسدك الطَّويل وعضلات المفتولة. أعرف أحدهم كان رافع أثقال, أحرز العديد مِن الجوائز العالميَّة وظلّ يُلَّقب بالرجُل, حَتَّى أتت إحداهن وطبعت خمسة أصابعها اليُمنى على وجنته, إنَّه ينهار الآن مع فُتنة".

سأل أمجد: "وأنتِ, هل ستصفعيني لِمُجَرَّد أني أذوب عِشقاً أمام وجهكِ؟"

وضعت ياسمين يداها في جيبيها وجذبت كتفيها إلى أعلى بينما كان أمجد يلتهم وجهها بعينيه الفاحصتين, ثُمَّ قالت: "هل سَنُضيِّع اللَّيلة بطولها على الحملقة؟"

انتبه أمجد إلى الوقت الذي يمر وجذبها مِن يدها ونزلا إلى السَّيَّارة ودلفا فيها وانطلق أمجد سريعاً كالمرجل.

وصل أمجد بالسيَّارة إلى كورنيش النِّيل, بعد حوالي أربعون دقيقة, كانت حينها السَّاعة الحادية عشر إلا ربع. ترجَّلا كلاهما مِن السَّيَّارة. كانت ياسمين مُثارة إلى أبعد الحدود, حَتَّى أنَّها أخبرت أمجد أنَّها لم ترى النِّيل منذ ما يزيد عن خمسة سنوات أو رُبَّمَا ستة سنوات, وأضافت بأنّها لم تَعُدْ تهتم كثيراً بحساب الوقت التي يمر أثناء تواجدها في المَصَحَّة.

لم يشأ أيّ مِنهما أن يُضَيّع وقتاً أطول مِن هذا, وبالفعل داعبها أمجد وهو يجذبها مِن يدها, وبدأ بالركض الخفيف تاركاً إياها بجانب السَّيَّارة, مندهشة للغاية مِن جنونه غير المعهود به, أيه رزانتُك أيُّها الطَّبيب؟ وهو يهرول كالصبي اللَّعوب, الذي هرب مِن مدرسته ويركض لِيُشْبِع انفعالاته غير المُتوقعة, ثُمَّ بدأت هي الأخرى في الرَّكض خلفه. كانت الأجواء حميميَّة ودافئة, نسمات عليلة ذات طَيّبٌ مِن النَّهر الواسع, تُداعب وجنيهما. كان شعرها يختلج بالرياح أثناء ركضها, فتتخلَّله أضواء القمر فيبدو على الفور إلى أمجد كعالَم آخر, يتمنى لو يُشيد إليه الجيوش لِيغزوهُ. لمحها ترمح مِن خلفه, ووجهه إلى أعلى, كانت لها رقبة بيضاء رفيعة

وطويلة, سيطرت عليه, فوقف في مكانه يُتابعها بعينيه, لقد أصابته اللَّعنة بالفعل, الآن تحوَّل حبه إلى إدمان. وأصبحت هي أفْيونتهُ.

بعد ربع ساعة مِن الجري والشَّد والجذب والمُداعبة, شعرا كلاهما بالتعب. فجلسا على إحدى المقاعد الخرسانيَّة على كورنيش النِّيل. يلهثان كطائران أضناهما السَّفر, فتوقَّفا يلتقطان أنفاسهما, وهُما يزفران الهواء سريعاً وبعنف مِن صدريهما. مالت ياسمين على كتف أمجد مَرّهَقَة ثُمَّ قالت بصوت مُتهدِّل: "أنا أشعر بالعطش. والجوع أيضاً".

قال أمجد بصوت لا يقل عن صوتها تَهدُّلاً إن لم يزد: "أنا أيضاً أشعر بالعطش. لكن لا جوع". ثُمَّ استلقى بظهره على المقعد الخرسانيّ الواسع, وقال: "أعرف مكاناً. لكنه بعيداً عن هُنا. يمكن أن نذهب بالسيَّارة. لديهم وجبات سريعة جيِّدة. أنذهب؟"

أومأت ياسمين برأسها, ثُمَّ قالت: "وما الذي ننتظره؟" ثُمَّ نهضت وأنهضته وجعلته يقف بجانبها بالضبط, ووجَّهت وجهيهما نحو السَّيَّارة التي تبعد حوالي مئة وخمسون متر

على أقل تقدير, ثُمَّ قالت: "لِنتسابق, حَتَّى نرى مَن مِنَّا سوف يصل إلى السَّيَّارة أوَّلاً".

نظر إليها أمجد نظرة اندهاش وقال: "هل أنتِ مجنونة؟!"

سألت: "ماذا؟"

أجابها بشكل تلقائيّ: "بالطبعِ أنا سأفوز".

"بل أنا".

"أنتِ مجنونة؟!"

قالت: "هل ساعدتني على الهروب مِن مَصَحَّة للطب النَّفسيّ... حاشا لله؟!" ثُمَّ بدأت بالركض بقوة نحو السَّيَّارة, وقف أمجد مكانه بابتسامة حمقاء ثُمَّ شرع على الفور في الرَّكض خلفها, في غضون عشر ثواني, وصل إليها وهي لا تزال تصارع جاهدة حَتَّى تصل أوَّلاً, وعندما رأى في عينيها رغبتها الجامحة في الوصول إلى السَّيَّارة قبله, حاول أن يقلِّل مِن سرعته حَتَّى تنتصر عليه. ووصلت المجنونة إلى السَّيَّارة أوَّلاً. ثُمَّ وصل بعدها أمجد يتصنَّع الاندهاش مِن سرعتها, لكنه توقَّف عن الكذب عندما وجدها تنظر إليه نظرة مفاداها أنَّها ليست أقل مِنه ذكاءً. ثُمَّ قالت: "لا تحاول

أن تخدعني مرَّة أخرى أيُّها الطَّبيب. سوف أسامحك هذه المرَّة لأنَّني حققتُ أمنيتي الآن بالفعل".

قال أمجد بلهفة: "هل شعرتي بالدماء تنفجر في شرايينكِ؟"

ضحكت ياسمين ولم تجبه, ثُمَّ دلفت إلى السَّيَّارة. دلف بعدها أمجد وانطلق إلى المطعم الذي وعدها به.

كان مطعماً متواضعاً, لكنه كان ملائماً تماماً لِمثل هذا الموقف. طبيباً بشريَّاً, وهاربة مِن مَصَحَّة للطب النَّفسيّ, يالهُما مِن ثُنائي, بالتأكيد لن يتناولا العشاء في أحد فنادق الباهامس. كان الطَّعَام ساخناً ولذيذاً, والحق أنّهُما استمتعا بوجبة دَسِمَة مِن النَّظرات الفَاحِصَة التي أرسلاها نحو بعضهما البعض.

بعدما أنهى كل مِنهما تناول طعامه, أخبرها أمجد أن الدَّور قد حان عليها.

سألت ياسمين بنظرة مُتسائلة ومُتعجِّبة: "أيّ دور؟ ودوري لِفعل ماذا؟!"

اقترب أمجد برأسه نحوها وقال: "دوركِ. أن تُحقِّقي لي أمنيتي".

ابتسمت ياسمين وهي تمسح أناملها بمنديل ورقيّ أعطاها إياه أمجد, ثُمَّ قالت بعدما وضعت المنديل على المنضدة بجانبها: "أريد أن أغسل يداي. هل يوجد هُنا حمَّام للسيِّدات؟" ثُمَّ صَمَتَتْ قليلاً وأتبعت: "النَّداهات؟"

رفع أمجد حاجبه الأيسر فيما بقى الأيمن متصلِّباً مكانه, فضحكت ياسمين وقالت: "يا الله. كم أعشق طريقتك في تحريك حاجبيك".

ضحك أمجد ثُمَّ استدار إلى النَّادل وسأله عن حمَّام السَّيِّدات. أشار إليه النَّادل نحو مكان الحمَّام. نهضت ياسمين وسارت حَتَّى دخلته. نظر أمجد إلى يداه ثُمَّ نهض هو الآخر وسار نحو حمَّام الرِّجال المجاور تماماً إلى ذاك الخاص بالسيِّدات.

كانت صالة المطعم خالية تماماً عندما خرجت ياسمين ولم تجد أمجد في مكانه. أصابها الذُّعر للحظات قليلة للغاية, لكنها مرَّت عليها كأنَّها ساعات. ظلَّت تبحث بعينيها عن الطَّبيب الذي يُفترض أنَّه سيعود بها مرَّة أخرى إلى مكانها. بدأ الاضطراب والتَّوتُّر يداهماها. بدأت تخطو خطوات سريعة في مكانها, خطوات غير مضبوطة وغير مفهومة, حَتَّى

انتبهت إلى النَّادل الذي وقف مِن بعيد يُشفق عليها مِن الخوف الذي أصابها, ثُمَّ قال إليها مِن بعيد: "ها هو إنَّه خلفكِ".

استدارت ياسمين فوجدت أمجد يخرج مِن باب حمَّام الرِّجال, فسارت نحوه بغضب ورفعت يدها ولطمته على وجنته ثُمَّ خرجت مِن الباب الرَّئيسيّ للمطعم ودلفت إلى السَّيَّارة.

في تلك الأثناء كان أمجد فاغر الفم, يقف مذهولاً مما حدث للتو. حَتَّى ذهب إليه النَّادل وقال إليه: "لقد ظنَّت أنّك ذهبتَ وتركتها. فانفعلت وانتابها الخوف وساورها القلق عندما لم تجدك في المكان الذي تركتك فيه".

أومأ أمجد إلى النَّادل برأسه, ثُمَّ ذهب إلى الكاشير بجانب الباب, وظلَّ يُتابع ياسمين مِن خلف لوح زجاجيّ وهو يدفع المال إلى الكاشير.

خرج أمجد مِن المطعم. دلف إلى السَّيَّارة. وسار عائداً إلى المَصَحَّة بهدوء. كانت ياسمين صامتة. فآثر أمجد أن يبقى صامتاً هو الآخر. وأولى إلى الطَّريق الاهتمام الأكبر.

بعد حوالي ربع ساعة مِن الصَّمت المُدوِّي, اعتذرت ياسمين بصوتها الرَّقيق: "آسفة".

نظر إليها أمجد وقال في هدوء: "لا عليكِ".

قالت ياسمين بنبرة يتخللها الخوف: "هذه هي المرَّة الأولى التي أخرج فيها مِن المَصَحَّة منذ أكثر مِن أربعة أعوام. وفجأة اختفيت عني". ثُمَّ تنهَّدت وأتبعت: "لقد اعتقدتُ أنّكَ تركتني وحدي... مثل الجميع", وشرعتْ في البُكاء. بُكاء المرأة. ذاك السِّلاح الفتَّاك, مِن شأنه أن يغمس شوارب الرِّجال في الهزيمة بكل سِهولة, والأكثر مِن ذلك, أنَّ الرَّجُل ينهض مِن تلك الهزيمة ويُخال له أنَّهُ المُنتصر!

أوقف أمجد السَّيَّارة على جانب الطَّريق. استدار نحوها وقال بنبرة تبعث على الطمئنينة: "أنا لستُ مثلهم. أنا لن أتركِكِ. بالإضافة إلى ذلك لقد أحببتُ لمسة يدكِ. لكن ليس بالطبع على وجهي".

ابتسمت ياسمين ابتسامة خجل, فتناول أمجد يدها بلطف, واقترب مِنها بوجهه ليقبِّلها. عندها سحبت ياسمين يدها مِن يده وقالت في اضطراب ممزوج بالخجل والحياء: "إذاً, دوري".

سأل أمجد مُستعجباً: "أيّ دور؟!"

قالت ياسمين: "دوري, في تحقيق أمنيك".

أومأ أمجد رأسه وقال: "بلى. لدي الآن أمنية أخرى".

قالت ياسمين في خجل: "لا قبلات اليوم أيّها الطَّبيب. يكفى ما حظيتَ به اليوم مِن ركض".

تنهَّد أمجد وقال: "حسناً. فلنعود إذاً إلى الأمنية الأولى". ثُمَّ سألها في ود: "أتحتسين معي كوباً مِن الشَّاي بالياسمين؟"

سألت ياسمين: "هل أحضرتَ الشَّاي؟"

استدار أمجد نحو المقعد الخلفيّ في السَّيَّارة والتقط ترمساً وكوباً زجاجيَّاً واحداً. وقال في مرح: "أنا جاهز".

سألت ياسمين: "كوباً واحداً أيضاً".

أمجد بابتسامة لطيفة: "لقد قصدتُ أن أجلب كوباً واحداً".

أدار أمجد السَّيَّارة. وذهبا كلاهما إلى شَقَّته. بدَّلت ياسمين ملابسها مرَّة أخرى. ثُمَّ نزلا قاصدان الذِهاب إلى المَصَحَّة.

سُرعان ما وصلا إلى الشَّارع الخلفيّ للمَصَحَّة. ركن أمجد السَّيَّارة بعيداً بعض الشَّيء عن السِّياج الحديديّ, تَرَجَّلا كلاهما مِن السَّيَّارة. قفزا مِن فوق القضبان الحَديدِيَّة بهدوء

وحذر. فحص أمجد جميع الأنحاء. عادل وهيمة مشغولَين في لعب الورق بجانب راكية الشّاي. جلسا بجانب شجيرة الياسمين. وبدأت ياسمين تحقّق أمنية أمجد, ملئت الكوب بالشاي, واحتسيا الكوب سوياً في هدوء, فيما كان أمجد يحاول أن يقنع ياسمين بالخروج مِن المَصَحَّة, بشكل نهائيّ.

وقد بدا موقف ياسمين مِن الخروج غريباً للغاية بالنسبة إلى أمجد, حيث أنَّها رفضت هذه الفكرة رفضاً قاطعاً, لا هوادة فيه. وهو الأمر الذي دفع أمجد للتسائل بصبر عان النَّفاذ: "أنا لا أفهم. ما الذي يجعلكِ تحبين الحياة هُنا؟! كنتُ أظنَّكِ تنتظرين مِن أجل والدكِ, والآن قضى والدكِ نحبه, ما الذي يمنعكِ مِن الخروج والحياة؟"

تأوَّهت ياسمين بكلل, وقالت إلى أمجد بنبرة أصابتها الضَّجر: "أمجد, اذهب إلى شقتك, لقد سأمتُ عدم بصيرتك".

صَمَتَ أمجد للحظات, مُتعجّباً مِن التَّغيُّر المفاجئ الذي أصاب ياسمين ثُمَّ سألها: "كيف خرجتِ مِن المَصَحَّة؟ وكيف ستدخلين إليها؟"

قالت ياسمين مُعاتبة إياه: "حَتَّى تفشي هذا السِّرّ إلى الخنزير مرَّة أخرى؟"

قال أمجد بجدِّيَّة تامة: "ياسمين, أنا لم أفشْ أيّة أسرار, لقد أخبرتهم عن النَّفق كيلا يزداد غضبهم".

سألت: "كيف خدعوك بهذه السِّهولة؟"

"لم يخدعني أحداً". ثُمَّ زفر الهواء مِن صدره باحباط: "حسناً. آسف, لن تتكرَّر مُجَدَّداً, لقد فهمتُ".

قالت ياسمين وهي تجذب كتفيها إلى أعلى: "وما الذي سيضمن لي عدم إفشائك السِّرّ مرَّة أخرى؟"

نظر إليها أمجد نظرة اندهاش وسأل بملامح الصَّدمة على وجهه: "انتظري لحظة... أنتِ لا تثقين فيّ؟"

قالت ياسمين: "بلى. لكني لا أثق في نسبة ذكائك يا أمجد".

هَمَّ أمجد بالنهوض حَتَّى يرحل, وعلى وجهه ملامح الغضب.

استوقفته ياسمين, وأمسكت قدمه عندما كان واقفاً بجانبها وقالت بنبرة الأسف: "آسفة. أرجوك اجلس. لا تذهب الآن".

زفر أمجد الهواء ثقيلاً مِن أنفه. نظر نحو شجيرة الياسمين القريبة مِنهما, ثُمَّ جلس مرَّة أخرى مكانه وسأل بحاجبه الأيسر المرفوع: "ياسمين ألا تثقين فيّ؟"

ابتسمت ياسمين ابتسامة تحوَّلت إلى ضحكة لطيفة بصوت رقيق منخفض: "يا الله. كم أعشق تلك الطَّريقة التي تحرِّك بها حاجبيكَ حَتَّى عندما تغضب".

هدأت ملامح الغضب التي في وجه أمجد وسأل بابتسامة حاول عبثاً أن يُخفيها: "لا تبدِّلين الموضوع. ألا تثقي فيّ؟"

قالت ياسمين بتنهيدة: "بلى. أثق فيك".

قال أمجد تلقائيَّاً: "حسناً. اخبريني كيف خرجتِ مِن المَصَحَّة".

قالت ياسمين موضحة: "أتذكر النَّفق الذي كان يربط بين عنبر الرِّجال وهذا الصنبور؟" وأشارت بإصْبَعها إلى الصَّنبور غير البعيد عنهما.

أمجد ينظر إليها بملامح وجه ثابتة مُترقبة.

سألت ياسمين مرَّة أخرى: "أتذكَّره؟"

قال أمجد بصبر أعياه النَّفاذ: "بلى. أذكره. لقد ألقى فيها عُمَّال البناء ثلاث أمتار مِن الأسمنت والحجر. إنَّه الآن مغلق تماماً".

قالت ياسمين بنبرة تفاخر: "هذا ما اعتقدموه".

نظر إليها أمجد نظرة تسآئل.

شرحت ياسمين: "كان للنفق ثلاث فتحات. الفتحة الأولى في عنبر الرِّجال, وقد أغلقها عُمَّال البناء. والفتحة الثَّانية بجانب صنبور المياه, ولا تزال مفتوحة. والفتحة الثَّالثة في عنبر النِّساء, ولا يعلم عنها إلا أنا وأنتَ". ثُمَّ سعلت بهدوء وأتبعت: "حَتَّى الآن".

سأل أمجد في حيرة: "مَن الذي حفر هذا النَّفق؟"

أجابت ياسمين بملامح الحزن وهى تنظر إلى شجيرة الياسمين: "أمّي. أمّي هي التي حفرته حَتَّى تهرب مِن هُنا, وأخبرتني عنه قبل أن تقضي نحبها بحوالي ثلاث أسابيع. وأنا أكملته وحفرتُ الفتحة التي في عنبر الرِّجال".

سأل أمجد: "كيف حفرتيه؟ بإصْابعكِ؟"

قالت ياسمين بغضب: "أرأيتَ؟ أنتَ ذكي للغاية. هذا هو ما أخشاه. حفرته بالأدوات التي حفرته به أمّي. أدوات الزِّراعة

في غرفة صابر الكلب. ما أن ينام هذا الخنزير لا يُفيقه إلا الصُّراخ, وأحياناً الصُّراخ لا يُجدي نفعاً في ذلك".

أومأ أمجد رأسه مُتمِّماً على حديثها ثُمَّ سأل: "لماذا تكرهين عَمّ صابر؟"

لم تجبه ياسمين واكتفت بنظرة الاشمئزاز فقط. ثُمَّ سألت: "كم الوقت الآن؟"

نظر أمجد في ساعته المعقودة حول معصم يده وقال: "إنّها الثَّالثة فجراً".

تمددَّت ياسمين وهى جالسة ثُمَّ تأوَّهت وقالت: "حسناً. أراك في الغد". ثُمَّ وَدَّعَتْهُ ونهضت. دلفت إلى النَّفق بهدوء, كعادتها. وقف أمجد يتابع حركاتها الرَّشيقة, كعادته. أُغلق باب النَّفق بجانب الصِّنبور, سقطت أوراق الشَّجر الجافة فوقه, فأخفته تماماً. وقف أمجد لحظات في مكانه, وحيداً, ثُمَّ قفز مِن فوق القضبان وبيده التُّرمس وكوب الشَّاي الفارغ. دلف إلى سيَّارته وانطلق إلى شَقَّته.

الفصل الحَادي عشر.

اكتشاف الجريمة:
المُثلَّث المُلثَّم.

نهاية يوم الخميس. وَدَّعَ أمجد, ياسمين. حَضَّرَ حقائبه. دَلَفَ إلى سيَّارته. سافر عائداً إلى الإسْكَنْدَرِيَّة. لم يكُ الشِّجار الاعتياديّ بينه وبين أمّه هذه الأجازة, مثل جميع الخناقات العابرة التي تُفتعل بينهما بسبب وبغير سبب. كان شجار هذه الأجازة يحمل عنواناً رئيسيَّاً مُحَدَّداً وواضحاً للغاية, كان عنوانه "الهروب".

بعدما حظى أمجد على حمَّامه البارِد, بَدَّلَ ملابسه سريعاً, ارتدى ملابس منزليَّة مِن القطن المصريّ الفاخر, ثُمَّ استلقى على سَرِيرَهُ وأغمض عيناه. تنفَّسَ بعمق. جَذَبَ كوفرتاية خفيفة, وبدأ يفردها على جسده الذي غاص في السَّرير مِن فرط الإرهاق. بدأت عضلات وجهه في التهيّؤ للنوم, حركات جسده مُرهقة وبطيئة. ثُمَّ فُزِعَ على الفور عندما اقتحمت أمّه باب غرفته بملامح وجهها اليابسة, ثُمَّ سألت وهو يفرد الغطاء على جسده: "هل ستنام؟"

قال أمجد بنبرة مُرهَقة إلى حد كبير: "لا. أنا أجرِّبُ السَّرير فقط, أريد أن أعرف إن كان لا يزال يعمل أَمْ أصابه عطب ما". ثُمَّ ارتمى بظهره إلى الخلف.

قالت أمّه بنبرة غضب في أشهر حمله الأولى: "أيّها الظَّريف. انهض الآن. أريد أن أتحدَّث إليك".

نظر إليها أمجد مِن أسفل الغطاء وقال في خمول: "هذه الخدمة غير متاحة الآن. مِن فضلك حاول في وقت لاحق".

كانت مزحة غير لطيفة أبداً في وقت عاصف كهذا, مما دفع الأم للصراخ بصوت قَارَبَ على الانفجار: "انهض الآن يا أمجد. هُناك مُصيبة. يجب أن تهتم بنا قليلاً".

أدرك أمجد أنَّه لا مفر مِن شجار الخميس المُعتاد. فجلس على سريره وقال في محاولة بائسة أخيرة: "هل يمكننا أن نتحدَّث غداً؟"

أمّه بنبرة الغضب ذات الأشهر الأولى مِن الحمل, لكن غضبها قطع شوطاً كبيراً حَتَّى وصل إلى آلام المخاض في تلك اللَّحظة, فقالت بصوتاً كالمطرقة الحامية: "الآن. سنتحدَّث الآن". وضربت بيدها على المكتب الخشبيّ أمامها.

أزال أمجد الغطاء واتخذَ وضع الجلوس ثُمَّ قال وهو مُنْضمّ الشَّفتين: "نعم. ما هو الشَّيء الخطير الذي لا يمكن أن تؤجليه إلى الغد؟"

"ليس شيئاً واحداً. بل أشياء".

سأل أمجد: "أشياء؟! حسناً... ما هذه الأشياء؟"

جذبت مدام منال مقعداً خشبيَّاً صغيراً مِن أسفل المنضدة, وجلست عليه وأخذت تُحصي: "أخيك. وخطيبتُك. وأمّك. وأنتَ ذاتك. أنتَ تهرب مِنَّا. لقد سئمتُ هروبك هذا, وأصابني الملل والإرهاق والضجر", ثُمَّ بدأ حديثها يختنق بالبُكاء: "لقد تحملتُكما كثيراً بعد وفاة والدك. حملتُ الهَمَّ واستحملتُ العناء والمشقة مِن أجلكما, أنتَ وأخيك. أخيك الذي أصبح يُشبهك في الهروب. إن أخيك الأصغر يحتاجك. وأنا أحتاجك. لقد تفكَّكت الأسرة بغيابك". ثُمَّ بدأت تبكي دُمُوعاً بالفعل.

آه, الدُّمُوع. صدق مَن قال أنَّ الدُّموع هي سلاحُ المرأة. لكن يظلُّ ما بين فخذيها هو حليفُها الأكثر جدارة بالثقة. فلقد سقط أمامه الكثير مِن اللُّحَى, واستغفرته الكثير مِن الشَّوارب, وقد عبده القليلُ مِن الشِّعوب. ياله مِن سلاح مَلْعُون.

نهض أمجد مِن السَّرير. جذب مقعد آخر. وجلس بالقرب مِن أمّه وقال بنبرة جمود: "هذه الأسرة مفككة منذ زمن يا أمّي, لذلك, أرجوكِ... لا تُلقى بهذا الذَّنب عليَّ, فأنا أكثر المُتضررين مِن هذا التَّفكك".

فقاطعته أمّه بالبُكاء: "لا. لقد دفعتُ الثَّمن بالفعل. لقد حاربتُ لئلا تتفكَّك هذه الأسرة. جاهدتُ حَتَّى كبَّرتُك, لكني لم أعد أتحمل بعد. لقد كبرتُ يا ابني, ولم أعد أنهض على متابعة أخيك".

رفق أمجد بأمه الباكية وسأل بنبرة اهتمام ولين: "أين إيهاب الآن؟"

قالت مدام منال بشيء مِن الأمل: "لا بُدَّ أنَّه مع أصدقائه في القهوة". ثُمَّ اقتربت برأسها إلى ابنها وسألت: "هل ستذهب إليه حَتَّى تتحدَّث معه؟"

أومأ أمجد برأسه وقال: "سأتحدَّث معه في الغد. لكن الآن, بما أنكِ تحدَّثتي, فلدي ما أريد أن أخبركِ به".

سألت الأم في اهتمام: "ماذا هُناك؟"

قال أمجد: "خطيبتي".

الأم بنبرة اندهاش: "خطيبتُك؟!"

أومأ أمجد رأسه: "بلى".

سألت مدام منال: "ماذا عن خطيبتُك؟ ألا يكفيك أنَّها تستحمل غيابك الطَّويل عنها؟ لا بُدَّ أن تشعر بالخجل مِن

نفسك, فأنتَ مُقصِّر للغاية في حقها. والفتاة راضية بك تماماً, لكن لكل شيء حدود يا أمجد".

قال أمجد بصوت متقطع: "احم. حسناً, لمَ عليها أن تستحمل هذا الوضع؟"

هُنا مالت مدام منال بوجهها إلى اليمين وطُبِعَتْ ملامح الحِيرة على وجهها.

تلجلج أمجد مرَّة أخرى: "بصراحة. أنا... أنا أريد أن أضع حداً إلى هذه الخطوبة المُزيَّفة".

نهضت مدام منال من مقعدها بزخم وسألت بقوة: "هل جننتَ؟ هل فقدتَ عقلك؟ هل العمل مع المجانين قد نقل إليك العدوى؟"

أشاح أمجد بنظره وقال: "لِنكن واقعيين. هذه الخطوبة مقدَّر لها أن تنتهي إن لم يكْ الآن, فلاحقاً".

قالت مدام منال بنبرة حزم: "أمجد. انس ما تريده. وأنا أيضاً سوف أنسى ما تفوَّهتَ به الآن. سأعتبرك مُرهَقاً مِن السَّفر فحسب". ثُمَّ هَمَّتْ بالخروج مِن الغرفة وهي تنفخ غيظاً.

قال أمجد عندما كانت أمّه تسير نحو باب الغرفة: "سنتحدَّث في هذا الموضوع غداً". لكن أمّه آثرت الخروج صامتة, واكتفت بجذب الباب خلفها بقوة.

نظر أمجد في ساعة يده التي كانت على الكومدينو. الساعة الحادية عشر.

ارتمى أمجد على السَّرير وغاص فيه مرهَقاً.

دقائق معدودة وغاص كذلك في النَّوم. كان جسده متعباً, وجفنيه يحرقاه. ما أن أغمضهما, شعر بألم طفيف, هدأ بعدها بثواني. لكن ليلته لم تكْ مُريحة أو هادئة. حالها كحال جميع الليالي التي قضاها على هذا السَّرير, استيقظ أمجد في الثَّالثة عشر مفزوعاً. ذلك الكابوس المُطارِد الذي لا ينساه أبداً. كأنَّ هذا الكابوس استوطن هذا السَّرير بعينه. جلس أمجد على السَّرير, قدماه على الأرضيَّة. استدار بوجهه إلى الخلف. أخيه ممدَّداً على السَّرير المُجاور دون حراك. نهض أمجد ووقف في مكانه. الغرفة حالكة الظَّلام. وجهه غارق في العرق. قلبه يخفق بقوة, يكاد يسمع أصوات ضربات قلبه القويَّة. تحسَّس طريقه إلى باب الغرفة. فتح الباب بعض الشَّيء لِيتسلل بعض مِن الضَّوء إلى الغرفة هرباً مِن

الصَّالة. عاد أمجد إلى السَّرير مرَّة أخرى. نظر في ساعة يده التي تركها على الكومدينو الصَّغير, إنَّها الثَّالثة صباحاً. التقط منديل ورقيّ مِن العلبة التي على المكتب. جفف سيل عرقه. جلس على سريره. حاول عبثاً الخلود إلى النَّوم. لكن الوسادة كانت مُشبعةً بالعرق, فنهض وجلس كما كان, مُفتَّتاً.

بدأ يُفكِّر في هذا اليوم الذي أعياه مِن فرط التَّفكير. يتذكَّر كل ما حدث في هذا اليوم وليلته بالتفصيل. كأنَّه كان البارحة. ملابس العيد, الزَّحمة في المحال, الحلويات, الألوان التي زيَّنَتْ أوجه الطُّرقات, كل شيء, حَتَّى الشَّارع الجانبيّ المُظلم, والفتى المُلثَّم بمسدَّس السَّاقية في يده. يصرخ الفتى فيه بعنف, وتنفلت ثلاث رصاصات تسكن صدر الأب. وذلك الجرح على شكل مُثلَّث صغير, يتسع ويتسع حَتَّى يبلع الفتى بمسدَّسه ويبلع أمجد وأبيه الصَّريع على الأرض ويبلع ملابس العيد والمحفظة, ويبلع الشَّارع برمته.

انتصب أمجد في جلسته. يشعر بغُصَّة واختناق شديدين. نهض عن السَّرير وسار حَتَّى جلس على مكتبه. جذب الدُّرج الصَّغير المُخصَّص له. تذكَّر أن المِفتاح في درج الكومدينو الصَّغير بجانب سريره. نهض وسار نحوه. فتح درج

الكومدينو بهدوء, التقط المِفتاح. عاد وجلس على المقعد أمام مكتبه مُجدَّداً. أولج المِفتاح في موضعه. أدار بكرة القفل. فُتِحَ الدُّرج. أخرج أمجد دفتره القديم, ووضعه أمامه على المكتب. وبدأ يقلِّب في صفحاته بهدوء وتأنِّي.

كان دفتراً أشبه بمدوَّنة إلى حد كبير. يعج بأرقام أصدقائه في الشَّارع وفي كُلِّيَّة الطِّب. كلهم أطباء الآن. لا أرقام لِفتايات. وهُناك أيضاً بعض الخواطر التي كان يتسلَّى بها في وقت فراغه. ومعلومات طبِّيَّة كانت مهمة للغاية عندما دوَّنها, الآن هي مُجَرَّد ذكريات عابرة. ظلَّ يقلِّب في الدَّفتر حَتَّى وصل للصفحة الأخيرة. نظر فيها بمزيجاً مِن الخوف والغضب. مُثلَّث صغير رسمه بالقلم الحبر الأحمر. ثُمَّ أغلق الدَّفتر مرَّة أخرى ووضعه في مكانه في الدُّرج - - - - لقد صُدم, تذكَّر شيء ما. تناول الدَّفتر مرَّة أخرى, فتحه على الصَّفحة ذات المثلَّث الأحمر. إنَّه يُشبه المثلَّث على باطن يد رجب إلى حداً كبيراً. هل يُعقل أن يكون رجب هو نفسه الفتى المُلثَّم, الذي أطلق ثلاث رصاصات على الأستاذ أحمد الإسكندراني؟

صُدم أمجد, وظلَّ يُحملق في العتمة أمامه مذهولاً. انشقَّ عقله إلى نصفين, نصف يحاول جاهداً أن يُقنع أمجد بأن رجب هو الفتى المُلثَّم, والنِّصف الآخر يأبى أن يُفكِّر في هذا الأمر مِن الأساس. كان أمجد في دوامة الحِيرة, مُشتَّتاً, لا ينهض على التَّفكير, توقَّف عقله وأعيته التَّساؤلات. لكنه كان مهزوماً لِدرجة كبيرة, جعلته يعقد النِّيَّة على السَّفر في التو إلى المَصَحَّة حَتَّى يتأكَّد مِن هذا الأمر بنفسه.

دخلت أمّه فجأة عندما كان يحملق في الدَّفتر الذي تصلَّب في يده. طوى أمجد الدَّفتر سريعاً ووضعه في الدُّرج. استدار إلى أمّه وقال على عجل: "أمّي؟ صباح الخير".

تعجَّبت مدام منال مِن ابنها المُستيقظ في هذا الوقت لكنها أجابته سريعاً هي الأخرى: "صباح النُّور. لمَ نهضتَ باكراً هكذا؟"

قال أمجد: "لا شيء. سوف أعود اليوم إلى المَصَحَّة".

قالت مدام منال: "نعم أعرف هذا".

أسرع أمجد: "لا لا. أقصد أنَّني سأعود الآن".

تعجبت الأم: "الآن؟!"

أمجد وهو يهرب بعينيه: "بلى".

قالت الأم ولا تزال ملامح الدَّهشة على وجهها: "أنتَ تمزح. أليس كذلك؟"

أمجد بنبرة تشكك: "مَن؟ أنا؟ لا لا. سوف أعاود أدراجي الآن".

صاحت الأم بصوت مرتفع: "هل جننتَ؟"

نهض إيهاب مِن نومه مفزوعاً هو الآخر. نظر إليها. وقال في غضب: "الشَّقَّة واسعة. لدينا صالة ولدينا غرفة استقبال وهُناك غرفة أخرى, وأنتما تتشاجران عند رأسي؟"

لم يهتما لأمره وظلَّا يتناظران.

أمجد بجدِّيَّة: "أمّي. يجب أن أعود الآن. هُناك أمراً هاماً للغاية يجب أن أعرفه ولن أصبر عليه حَتَّى الغد".

تحاول الأم أن تقنعه: "لا يمكنك. خالتُك وابنة خالتُك ينتظراك اليوم على الغذاء. وأخيك. لقد وعدتني أن تتحدَّث مع أخيك".

إيهاب في دهشة: "يتحدَّث معي أنا؟"

أشار أمجد إلى أخيه أن يصمت, وقال إلى أمه: "سوف أتصل بهند وأعتذر مِنها. لكن يجب أن أذهب الآن". ثُمَّ بدأ بتغْيير ملابسه والتقط مفاتيح السَّيَّارة ومحفظته, مُتجاهلاً

صوت أمّه تماماً كأنَّه لا يسمعها, وبالمناسبة هو لم يكْ يسمع إلا صوت الثّلات رصاصات وهي تنطلق مِن المسدَّس السَّاقية. فيما كانت أمّه وأخيه يصيحان فيه أن يُفهِمهُما ما الذي حدث, كان أمجد يفتح باب الشَّقَّة ويجذبه خلفه بقوة.

وقف إيهاب ومدام منال في الصَّالة عند باب الشَّقَّة ينظران إلى بعضهما البعض في حِيرة وصدمة شديدتين.

لكن كانت حيرة أمجد وصدمته أكثر شِدَّةً وصخباً. دلف إلى سيَّارته وقادها مُسرعاً في طريق العودة إلى القاهرة. عودة أَمْ ذهاب؟ كان الطَّريق خالياً إلى حد ما. يوم الجمعة, وفي الصَّباح الباكر, لا يوجد مغفلون كثر لِيزاحموه الطَّريق.

وصل أمجد إلى المَصَحَّة حوالي السَّاعة الحادية عشر. المَصَحَّة خالية تماماً مِن صخب الزِّيارات والممرِّضات. الحديقة هادئة والشَّوارع خالية مِن المارة. تَرَجَّلَ أمجد مِن سيَّارته وهرول نحو باب المَصَحَّة المفتوح على مصرعيه.

وجد عادل وهيمة واقفان عند باب المَصَحَّة الرَّئيسيّ, يبدو أنَّهُما يَسْتَعِدَّان للذهاب إلى صلاة الجمعة. فسار نحوهما باندفاع. صُدِمَ عادل عندما لمح أمجد يسير نحوه مِن بعيد,

فخبط هيمة على كتفه لِينظر إلى الطَّبيب الحانق الذي عَبَرَ بجانبهما دون كلام.

أسرع أمجد في الطُّرقة. باب عنبر الرِّجال موصداً. حاول أن يفتحه لكنه كان موصداً بالمِفتاح. صدم الباب بقدمه عِدَّة مرَّات. خرج عمّ صابر مِن غرفته فوجد عادل وهيمة يهرولان نحو عنبر الرِّجال, فذهب خلفهما. لكنه صُدِمَ هو الآخر عندما رأى أمجد يركل الباب بقدمه. فأسرع نحوه: "دكتور أمجد! ما الذي أتى بك اليوم؟"

لم يجبه أمجد وتابع ركل الباب.

قال عمّ صابر مرَّة أخرى: "لماذا تركل الباب بهذا العنف؟ ما الذي تريده. اهدأ".

سأل أمجد بغضب: "أين مِفتاح هذا الباب؟"

قال عمّ صابر: "إنّه عندي في غرفتي. هل أجلبه؟"

صاح أمجد: "بلى. بلى. اجلبه الآن".

أسرع عمّ صابر إلى غرفته. ثوانٍ معدودة وخرج وفي يده المِفتاح. فخطفه أمجد مِن يده وهرول إلى باب عنبر الرِّجال وفتحه. اِقتحمَ الباب. ومِن خلفه كل مِن عادل وهيمة وعمّ صابر في صدمة وحِيرة مِن أمرهم.

نظر أمجد يميناً ويساراً. ها هو رجب, يقف في آخر العنبر في زاوية بين جدارين. يداه ممددتان بجانبه على الحائط بمستوى كتفيه, ويحكهما بعنف وسرعة في الحائطين. يضرب الحائط برأسه بهدوء, ضربات مُحَدَّدة وموزونة. أسرع أمجد إليه بغضب شديد, فَهِمَ عادل وهيمة مِن سرعة أمجد واندفاعه, أنَّه ذاهباً لِيرتكب جريمة. فأسرعا خلفه حَتَّى يُوقفاه. لكن أمجد كان أسرع مِنهما.

هرول أمجد بطول العنبر وتوقَّف قبل أن يصل إلى رجب بحوالي ثلاث أمتار. وضع رجب يده اليمنى وعليها الجرح المُثلَّث في جيب بنطاله الأبيض. وأخرج محفظة أستاذ أحمد الإسكندراني وناولها إلى أمجد الذي توقَّف أمام رجب يحملق في المحفظة. ثُمَّ نظر إلى رجب, فوجد ملامح وجهه جامدة كأنَّه مُمدَّداً في تابوت حجريّ. إلا أن عيناه كانتا حمروان. وشفتاه يابستان. وتسير قطرات العرق على جانبيّ جبينه وفي مجريا أنفه لِتتوقَّف على شاربه الخفيف.

تناول أمجد المحفظة. جسده برمته كالمرجل. عادل وهيمة واقفان مِن خلفه يترقبان بحذر وانتباه شديدين. نظر أمجد في عينيّ رجب. لحظة... ولحظة... ولحظة أخرى. لم يرْ في

عينيه الفتى المُلثَّم الذي أطلق ثلاث رصاصات في صدر والده, بل رأى إنساناً مهزوماً, مُطارَداً خائفاً وكارهاً لِنفسه وهويَّته.

انتبه أمجد إلى شفتيّ المريض النَّفسيّ الصامت وهُما يتحرَّكان. فقال رجب, وكانت تلك هي المرَّة الأولى التي يسمعه فيها أحد ما يتحدَّث بجملة كاملة مفهومة منذ أن دخل المَصَحَّة: "لم أرِدْ أبداً أن يموت", ثُمَّ سقط على الأرض باكياً وظلَّ يصدم مؤخرة رأسه في الحائط بعنف.

أسرع كل مِن عادل وهيمة وعمّ صابر نحو رجب حَتَّى يبعدوه عن الحائط. استدار أمجد وسار نحو باب العنبر. ينظر إليه باقي الحالات في صَمْتٌ وَسُكُون. لم يعرْ أحدهم اهتماماً. وسار حَتَّى خرج من باب العنبر, فوجد ياسمين واقفة في منتصف الطُّرقة بعينين مُشفقتَين دامعتين ثُمَّ قالت إليه: "كنتُ أعلم أنّك سوف تُسامحه". وعادت إلى عنبر النِّساء مرَّة أخرى وأغلقت الباب خلفها.

ظلَّ أمجد يُتابعها بنظره حَتَّى أغلقت الباب. ثُمَّ سار إلى خارج المَصَحَّة والمحفظة في يده. دلف إلى سيَّارته. وانطلق بها.

بسرعة شديدة, انطلق أمجد بسيَّارته على الطَّريق المفتوح. غضب عارم, أو رُبَّمَا حزن, أمجد نفسه لا يدري ما الذي أصابه. حزن وخوف وغضب وقلة حيلة واشتياق إلى والده, لكنه دعس على دوَّاسة الفرامل فجأة. توقَّف بالسيَّارة في قارعة الطَّريق. هُناك شعور آخر, شعور غريب, إنَّه شعور الرَّاحة. كيف له أن يشعر بالراحة؟ كيف تسلل هذا الشُّعور الغريب إلى صدره؟ نظر أمجد إلى أصابع يداه الممسكتين بمقود السَّيَّارة. أصابعه ترتجف. ضربات قلبه قوية. الجو حار. أشعة الشَّمس تحرق جلد كفيه. نظر في مرآة السَّيَّارة. وجهه أحمر. نظر في عيناه. لا أثر لِخوف, ويخفت الغضب رويداً رويداً. وبقى فقط شعور الرَّاحة والاشتياق. بدأ أمجد في البُكاء. لكن هذه المرَّة بُكاء مريحاً. كأنَّه يطرد كل دمعة حزن مِن داخل عيناه. ويزفر كل نسمة أسى, شهقها مِن قبل وهو يختنق بالبُكاء على أبيه.

الآن, والآن فقط. أدرك الطَّبيب الشَّاب أن لا ذنب له في موت أبيه. كان كل شيء مُقدراً ومكتوباً. كل شيء حدده الله في ميثاق وكتاب. إنَّه الأجل, حينما يأتي, لا يستقدم صاحبه ساعة ولا يؤخره ساعة. الأجل, الذي دفع صاحبه الثَّمن. لا

أحد مِنَّا يُجبر على أمره, لكننا في الوقت ذاته مغلوبنا على أمرنا, إلا الله, هو الغالب على أمره. الأمر وما فيه أن الميزان كان عادلاً أكثر مِن اللازم.

إنَّها حقيقة قد لا يُدركها معظم البشر. قد يعيش المرء مِنَّا سِنُون. يُعَاشِر البعيد عنه والأهلون, ولا يُدرك الحقيقة. حقيقة: كُلنا زائلون. وحينما يأتيهم الميعاد, فتيلاً لا يُظلمون. لن تطول السَّعادة ولن يبقى الشَّقاء أبدا. والحياة ليست لونين. بل درجات مِن الألوان.

أدار أمجد سيَّارته. زفر الهواء مِن صدره ثقيلاً. طرد عنه شيطانه. اِستعاذَ بالله. وَاِنطلقَ في الطَّريق عائداً مرَّة أخرى إلى الإسْكَنْدَرِيَّة.

كان الطَّريق شبه خالياً. إنَّها الحادية أو الثَّانية عشر. لقد نسى أمجد ساعة يده وهاتفه المحمول. ينطلق بالسيَّارة مُسرعاً. الجو خانق. أشعة الشَّمس تُداهم عيناه. بدأ يشعر بالعطش. والسَّيَّارة كذلك بدأت تشعر بالعطش. يُشير مؤشر البنزين إلى أسفل. هُناك محطة وقود على بعد عِدَّة كيلو مترات. وصل أمجد إلى المحطة وكانت شبه خالية. عامل واحد فقط يجلس في ظِلّ المحطة بجانب أحد المحال. ركن

أمجد السَّيَّارة بجانب مكينة التَّزوُّد بالوقود. أشار للعامل وقال: "مِن فضلك. املأ خزان الوقود". ثُمَّ تَرَجَّلَ مِن السَّيَّارة وأشار بيده إلى المحال ذو الباب الزُّجاجيّ الأسود وقال: "هل هذا المحل مفتوح؟ أريد زجاجة مياة للشرب".

استدار العامل ونظر إلى المحل ثُمَّ قال: "لقد ذهب أستاذ حامد لِصلاة الجمعة. لكن المحل مفتوح. بلى, هل تريد شيء آخر غير زجاجة المياة؟"

سأل أمجد بصوت متردِّد: "ولمَ لمْ تذهب أنتَ أيضاً للصلاة؟"

قال العامل بنبرة تهكم: "ولمَ لمْ تذهب أنتَ أيضاً للصلاة؟"

تردَّد أمجد في إجابته ثُمَّ قال في هدوء: "عُذراً... زجاجة مياة كبيرة وعلبتين بسكوت سادة مِن فضلك".

لم يجبه العامل وأكمل النَّظر إلى العدَّاد الذي يدور بسرعة. بعد ذلك نظر إلى أمجد وهو يضع مسدَّس الوقود في مكانه وقال: "لقد امتلئَ. اِنتظرْ هُنا سأجلب لك ما تريد". وتركه واقفاً بجانب السَّيَّارة ودخل إلى المحل.

دلف أمجد إلى سيَّارته. أخرج النُّقود مِن المحفظة. أثناء عده النُّقود لمح العامل يخرج مِن المحل وبيده حقيبة

بلاستيكيَّة شفَّافة وبها زجاجة مياة وعلبتين بسكوت, فترجَّل أمجد مِن السَّيَّارة سريعاً. أخذ الحقيبة مِن يده وناوله النُّقود. وقال إليه: "خذ الباقي لك".

نظر العامل في النُّقود. وبنظرة عُمَّال محطات الوقود, استطاع أن يعرف أنَّه حظى على إكرامية جيِّدة. فقال في سعادة غامرة حاول إخفائها باصطناع عدم الامُبالاة: "شكراً لك يا بك".

انطلق أمجد بسيَّارته واتجه إلى الإسْكَنْدَرِيَّة.

بعد ساعتين مِن السَّفر, وصل أمجد إلى منزله في المعمورة. كانت السَّاعة الواحدة ظهراً. فرغ النَّاس مِن صلاة الجمعة. والشَّوارع هادئة كعهدها. طرق على باب الشَّقَّة, فتحت إليه أمّه بنظرة اندهاش وفي عينيها ألف سؤال: "أمجد. أين كنتَ يا ابني؟"

أجابها أمجد وهو يجلس على أريكة الصَّالون الواسعة في الصَّالة: "كنتُ... لا شيء. أين إيهاب؟"

سألت مدام منال: "لمَ تركتَ هاتفك هُنا؟ لقد اتصلَ بك أحد الأطباء زملائك. اسمه كاظم. لم أرد عليه. فاتصلَ بعدها

مباشرةً هاني مطر, فأجابه أخيه إيهاب وأخبره أنَّك سافرتَ إلى القاهرة".

أومأ أمجد برأسه وقال: "نعم. وأين أخي الآن؟"

جلست مدام منال على مقعد الصَّالون وقالت: "إنَّه في غرفته. نائم, ولم يذهب للصلاة". ثُمَّ سألت بنبرة آمرة: "هل صَلَّيتَ؟"

أومأ أمجد برأسه. نهض, ودخل إلى الغرفة. فوجد أخيه نائم. اقتربَ مِنه. بدأ يُنهضه بلطف. فنهض إيهاب سريعاً. كان الضَّوء خافتاً في الغرفة. فأنار أمجد المصباح, وأمر أخيه أن ينهض لِيتحدَّث معه.

نهض إيهاب متزمراً. سأل عن الوقت. ثُمَّ ذهب إلى الحمَّام حَتَّى يغسل وجهه. وخرج مِن الحمَّام بعد عشرة دقائق كاملة. فوجد أخيه الأكبر جالساً في انتظاره على أحد مقاعد الصَّالون. فجلس على المقعد المجاور إليه وسأل في فضول: "نعم. ما الذي تريد أن تتحدَّث فيه؟"

سأل أمجد مباشرةً: "هل تتعاطى المُخدِّرَات؟"

انتبهت ملامح وجه إيهاب وقال الصَّدمة تحتل جفنيه: "مُخدِّرّات!" ثُمَّ قال بصوت مرتفع مكرراً الكلمات مرَّة أو

مرَّتَين: "لا. لا لا. مُخدِّرَات ماذا؟ لا بالطبع لا. أنا لا أتعاطى أيّ شيء". ثُمَّ ضحك ضحكة زائفة مُخاولاَ الفكاك مِن نظرات أخيه الثَّاقبة غير المعهودة به.

قال أمجد بهدوء وهو ينظر في عينيّ أخيه: "الحبوب المُخدِّرة. الكيمياء".

انفلتت صيحة حانقة مِن أسفل لِسان إيهاب رغم عنه: "كيمياء ماذا؟ أنا لا أتناول حبوب ولا مُخدِّرَات".

قال أمجد بهدوء: "هُناك لمعة داكنة في بياض عينيك يا إيهاب".

سأل إيهاب: "وما الذي في ذلك؟"

قال أمجد بنبرة الهدوء ذاتها: "أنا طبيب يا إيهاب".

سَمِعَ إيهاب صوت أقدام أمّه قادمة مِن المطبخ فقال بصوت هامساً حانقاً: "هلا تحدَّثنا عن هذا في وقتاً لاحقاً".

دخلت الأم الصَّالة وقالت بابتسامة: "منذ زمن طويل لم أراكما جالسان وتتحدَّثان مع بعضكما البعض. هل أجهِّز لكما الغذاء؟" ثُمَّ ضحكت وقال: "أو الفطور في حالكتما تلك؟"

قال أمجد بابتسامة غير معهودة في مثل تلك التَّجمعات الأسرية: "لا يا أمّي. سوف نفطر أنا وإيهاب في المطعم الذي فتح جديد في الشَّارع".

بالطبع كان إقناع مدام منال بتناول الطَّعَام خارج المنزل أمر صعب وشبه مستحيل, لكنها وافقت في الأخير بعدما أشار لها أمجد سِرَّاً أنَّه يريد أن يتحدَّث مع أخيه قليلاً. فوافقت مدام منال لكن بشرط أن يعودا سريعاً لأن لديهم موعد على الغذاء عند أختها مدام ميار.

نزل إيهاب وأمجد لكنها لم يقصدا المطعم, بل دلفا إلى السَّيَّارة وانطلق أمجد إلى كورنيش البحر.

كانت تلك هي المرَّة الأولى التي يقترب فيها أمجد مِن أخيه إلى هذه الدَّرجة. في البداية كانت مشاعر إيهاب مضطربة ومشتَّتة, مندهشاً للغاية مِن اهتمام أخيه المُفاجئ. لطالما كانت العلاقة بينهما سطحية وتقريباً عابرة, لم تجمعهما أحاديث أو مواقف ترتقي في درجاتها لأن تكون علاقة أخوية. حَتَّى أن إيهاب استنكر اهتمام أخيه في البداية وظنه اهتماماً مصطنعاً, لِيكون مدخلاً إلى شجار بسبب أمر المُخدِّرَات التي يتناولها. لكن سرعان ما تلاشت تلك الفكرة

تماماً مِن مخيلة إيهاب, بعدما رأى ابتسامة أخيه صادقة تماماً وحديثه الذي لا يرمي به إلى أيّ شيء ذو طابع مُريب. شعر إيهاب أن أخيه لا يريد أن يحجز إلى نفسه مقعد المُعلِّمُ الوَاعِظُ, أو الأخ الكبير النَّاصِحُ, فقط صديقين. والحق أنّهُما كلاهما, كانا في أمس الحاجة إلى تلك العلاقة. فأمجد نفسه لم يحظ بصداقة متينة طيلة حياته, وإيهاب تقريباً كان مجبراً على صداقته. لم يكُ إيهاب بغبي أو فاقد, بل كان واعياً ذكياً, لكن الظُّروف هي ما قرَّبته إلى مجموعة مِن شباب خاسر, وفي الوقت ذاته أبعدته عن أخيه.

قضيا حوالي السَّاعتين مِن الحديث, كان في قلب كل مِنهما ألف حوار أراد أن يفضي به إلى الآخر. رغم حياتهما وعيشهما في منزل واحد والنَّوم على سريرين متقاربين مِن بعضهما البعض, إلا أن كان بينهما سياجاً حديدياً شائكاً. خشيا الاقتراب مِن بعضهما البعض, رغم احتياجهما إلى تلك المقربة. فكانتا هاتين السَّاعتين بمثابة تجارب آداء لكل مِنهما. ثُمَّ عادا إلى المنزل بشعور البهجة الجديدة التي تملأ قلبيهما.

ومع الثَّالثة ظهراً, نزل أمجد وأمه مِن الشَّقَّة لِيذهبا إلى الخالة وابنتها. كان أمجد جاداً في القرار الذي اتخذه. وصرَّحَ إلى خطيبته في حضرة خالته وأمه, أنَّه لا يرغب في هذه العلاقة. بالطبع لم يُخبر أمّه بهذا القرار, وتفاجأت تماماً مثل هند ومدام ميار. أنهى أمجد مهمته سريعاً, واستأذن بالرحيل. وقفت مدام منال مصدومة ومذهولة تماماً مِن التَّغيُّر المفآجئ الذي طرأ على ابنها, حَتَّى أنَّها لم تدرْ ما الذي يجب عليها أن تفعله أو تقوله حينها. فانصرفت خلف ابنها وعينيها مثبَّتتين في الأرضيَّة.

لكن بالطبع بعدما تلقت الصَّدمة كاملة, بدأت في شجارها المعتاد ما أن وصلا شَقَّتهما في المعمورة. لكن الغريب في الأمر أن أمجد الذي لطالما فضَّلَ الهروب كحل سهل فضلاً عن مواجهة أمه, ثبت هذه المرَّة, ووقف يتناقش معها بنبرات ثابتة وإجابات لا هوادة فيها.

بينما كان إيهاب يقلِّب وجهه بين أمّه الحانقة وأخيه الثَّابت على موقفه, كان هاتف أمجد المحمول يصرخ على الكومدينو الصَّغير بجانب سرير أمجد. أشار أمجد إلى أمّه

بيده أن تنتظر, ويبدو أنَّها كانت مُرهَقةً, فصمت على الفور.
تناول أمجد الهاتف ونظر فيها.
(كاظم يتصل بك...)
ضغط أمجد على زِرّ الرَّد, وانفجر صوتاً غليظاً حانقاً في الجانب الآخر. إنَّه كاظم يتسآئل عن ما حدث مع رجب هذا الصَّباح, وينقل إلى أمجد مدى غضب هاني مطر.
فأخبره أمجد أنَّه سيعود هذه اللَّيلة ويخبره بما حدث. ثُمَّ نظر في الغرفة سريعاً لِيتأكَّد أن لا أحد بجانبه ثُمَّ قال بصوتاً هامساً: "سأقابلك اللَّيلة في الكابرية". وأغلق الهاتف سريعاً. كانت بطارية الهاتف ضعيفة. فأوصل الهاتف بالشاحن. ثُمَّ خرج لِيُكمل النِّقاش مع أمه. لم يجدها في الصَّالة فسأل إيهاب: "أين هي؟"
أخبره إيهاب سريعاً: "إنَّها في المطبخ. هل حقاً أنهيتَ خطوبتك مع هند؟"
زفر أمجد الهواء مِن أنفه لِينفِّس عن غضبه قليلاً: "بلى. لقد اكتفيتُ مِن هذه الاضطرابات".
عندها صاحت أمّه مِن خلف ظهره: "أيّ اضطرابات؟ هل تدَّعي بأنّي سبَّبتُ لك اضطرابات؟"

لم يجبها أمجد.

سألت مدام منال: "وأنتَ؟ بعدما كسرتَ قلب الفتاة المسكينة الوحيدة التي أحبتك, هل تشعر الآن بالاتزان؟"

شعر إيهاب بالوضع المتأزِّم, وفضَّل تهدأت الموقف: "يا أمّي. إن كل شيء قِسمة ونصيب".

صاحت فيه أمّه وأمرته أن يدخل إلى غرفته ولا يخرج. فدخل إلى الغرفة مستسلماً.

ثُمَّ استدارت مدام منال إلى أمجد وقالت: اخبرني أيُّها الطَّبيب, الطَّبيب العَاقِل النَّاضِج الذي أرهقتنا مصاريف ورعاية. هل تشعر بالرضا الآن؟"

قال أمجد بهدوء: "بلى. أشعر بالرضا".

فصاحت مدام منال: "بالطبع. تشعر بالرضا, فطرتَ قلب الفتاة, وهربتَ مِن المسؤولية. والآن لم يبقْ إلا أن تتمتَّع بشعور الرِّضا".

أسرع أمجد: "اهدئي يا أمّي. ودعيني أشرح لكِ حقيقة شعوري".

ضحكة الأم ضحكة زائفة بصوت صاخب وسألت بنبرة سخرية وتهكم: "شعور؟! منذ متى وأنتَ تشعر. لقد أضعتَ

شبابك في الهروب مِن المسؤولية, دون ذرَّة شعور واحدة. ما الذي طرأ الآن؟"

حاول أمجد أن يمتص غضب أمّه بكل طريقة ممكنة ثُمَّ تحدَّثَ بصوت هادئ ورصين: "هكذا أفضل يا أمّي. أنا لا أشعر تجاهها بأيّ شيء. بالإضافة, فأنتِ وأختكِ وضعتمانا في هذا الموقف, وما بني على خطأ فهو خطأ. ارتباطي بهند! هيَّا يا أمّي, إنَّها فكرة مشوَّشة تماماً".

هُنا خارت هِمة الأم, وخانتها قدماها, فسقطت على المقعد. ثُمَّ قالت بنبرة انهزاميَّة واهنة: "يا ابني. أريد أن أحمل حفيداً قبل أن أقضي نحبي".

اقترب أمجد مِن أمّه وجثا على ركبتيها أمامها, تناول يدها وقبَّلها قائلاً: "أستغفر الله العظيم. أطال الله عمركِ يا أمّي. أنا أعلم ما تريدينه بالضبط, وسأحقِّقه لكِ في أقرب وقت".

شعرت مدام منال بشيء مِن الوعد في حديث ابنها فسألته: "هل نويتَ الزواج؟"

قال أمجد: "عاجلاً أَمْ آجلاً".

قالت الأم: "بل عاجلاً".

ابتسم أمجد وقبَّل يد أمّه مرَّة أخرى وتمَّمَ على حديثها: "عاجلاً. عاجلاً يا أمّي. عاجلاً". ثُمَّ نهض مِن أمامها. وأخبرها أنَّه يجب أن يسافر بعد ساعة على أكثر تقدير, لأن هُناك أمراً حيوياً وهاماً طرأ في العمل, ويجب أن أكون في القاهرة هذه اللَّيلة.

قالت الأم في حنان: "أرجو أن تجد السَّعادة في حياتك, يا ابني".

ابتسم أمجد وقال: "قبل أن أجد السَّعادة. هل يمكنكِ أن تُعدي لنا وجبة دسمة؟ فنحن لم نتناول شيء طيلة النهار".

نهضت الأم. وفي غضوض ساعة كان الطَّعَام جاهزاً. وتناول أمجد الطَّعَام مع أخيه وأمه والتَّرابط الأسري الجديد في سابقة لا تتكرَّر كثيراً.

حضَّر أمجد حقيبته الخفيفة. استودع أمّه وأخيه في أمان الله. وانطلق بسيَّارته في الطَّريق إلى القاهرة مرَّة أخرى. وما هي إلا ساعات معدودة, مرَّت عليه بسرعة, ووصل أمجد إلى القاهرة. ثُمَّ قضى حوالي ساعة كاملة في الزِّحام المروريّ, حَتَّى وصل إلى الكابرية. فوجد كاظم و هاني مطر

في ينتظراه في الكابرية, حيث اتصل أمجد بكاظم أثناء عودته في الطَّريق, وأخبره بموعود وصوله إلى الكابرية.

الفصل الثَّاني عشر.

اهْتِمَام, وإِعْجَاب
وَشَرَكُ الْجِنون.

كان الرَّجُلان حانقان. تعتلي وجهيهما ملامح القيظ. عينيّ هاني مطر حمروان كالدم, وتشع مِنهما عشرات الأسئلة الحادة. أما كاظم فكانت عيناه حمروان مِن فرط الفودكا لا أكثر, لكنه حانقاً بعض الشَّيء هو الآخر مِن تجاهل أمجد لمكالماته.

جذب أمجد مقعداً وجلس بجانبهما. كان يعلم جيِّداً مدى غضب الرَّجُلان فبادر بتحية ودِّيَّة لِتلطيف الأجواء: "مساء الخير, كيف حالكما".

هاني صامت ويكتفي بالنظر. أمَّا كاظم فصاح بغضب مكظوم: "يالك مِن بارد, مِن أين لك بهذا الكم مِن البرود".

فتح أمجد فاه لِيتحدَّث لكن قاطعه هاني مطر: "انصت يا أمجد. هذه المَصَحَّة التي تعمل بها ليست مصلحة حكومية. وكما كانت إجراءات تعينك سهلة للغاية فإجراءات فصلك لن تكون أقل مِنها سهولة. والآن, مِن الأفضل لك أن تبدأ بالحديث... ويجب أن يكون كلامك واضح, إن كنتَ تخشى تشويه مستقبلك المهنيّ كطبيب".

أومأ أمجد رأسه بهدوء مُتمماً على حديثه الحاد: "أظنُّ أنَّكما تُعطيان للأمر أكثر مِن حجمه الطَّبيعيّ... إنــ" هُنا

قاطعه هاني مطر بغضب وقال: "ابدأ في التَّحدُّث أيُّها الطَّبيب, لماذا ذهبتَ إلى المَصَحَّة في يوم عُطلتك؟ وما الذي دار بينك وبين الحالة؟"

أشار أمجد بيداه للدكتور هاني مطر أن يهدأ, حيث كان غضبه هذا غير معهود به, حَتَّى أن كاظم نفسه نكص برأسه للخلف مُتعجِّباً مما يراه. ثُمَّ بدأ أمجد يروي ما حدث ببساطة: "يا دكتور هاني... كل ما في الأمر أن محفظتي سقطت في عنبر الرِّجال. وعندما عُدتُ حَتَّى أجلبها, وجدتها مع رجب, فسرتُ إليه وأخذتها مِنه ولم أمسسه بأيّ سوء. وقد حدث كل هذا في حضرة عَمّ صابر وكل مِن عادل وهيمة, يمكنك أن تسألهما".

زفر هاني الهواء مِن أنفه ثقيلاً ثُمَّ قال: "أمجد. لقد أخبرني الرِّجال بما حدث بالضبط. وأخبراني أنَّك كنتَ على وشك الهجوم عليه", ثُمَّ بلع بقايا كوبه, وَوَهَجَ لهيب سيجارته المحلية الرَّخيصة, ونفخ الدُّخان أبيضاً سميكاً مِن فاه.

كان أمجد ينظر بالضبط في وجه هاني, الذي اكتنفه دخان السِّيجارة, ثُمَّ قال بملامح وجه جامدة عندما كان وجه هاني

يذهب ويأتي كالموجة داخل دخان السِّيجارة: "إنَّها محفظة أبي".

سأل كاظم بفم مليئ بالطَّعَام: "وكيف وصلت محفظة والدك إلى رجب؟"

قال أمجد وهو ينظر إلى كاظم: "لا تتدخَّل فيما لا يُعنيك لو سمحت".

هاني بهدوء وثبات: "حسناً. كيف وصلت محفظة والدك إلى رجب؟ هل هذا لا يُعنيني أنا أيضاً؟"

أمجد بنبرة ثابتة: "لقد قلتُ لكما أنَّني أسقطتُ المحفظة في عنبر الرِّجال. وهي محفظة غالية للغاية بالنسبة لي. لذلك عُدتُ عندما تذكَّرتُ أين أسقطتها, ولم أنتبه إلى أن اليوم هو الجمعة لأنَّني كنتُ مُشتَّتاً تماماً. لقد أهداني أبي هذه المحفظة قبل أن يقضي نحبه بأيام قليلة, لِذلك هي غالية عندي بشكل كبير".

سأل كاظم والطَّعَام لا يزال يُمضغ في فمه: "ولماذا تغلق الهاتف عندما تتحدَّث إلينا؟ كُنَّا بحاجة ماسة إلى طبيب, لقد صدم الغبيّ مؤخرة رأسه في الحائط, واضطررنا إلى

استدعاء طبيب مِن المشفى العام. لقد خاط مؤخرة رأسه التي جُرجت بغُرزتين".

هُنا انتبه أمجد وانتصب في جلسته وسأل باهتمام: "حقاً. غُرزتين؟ أنا آسف للغاية, لم أدرْ أبداً أن هذا قد يحدث".

قال هاني مطر: "لأنَّك لستَ طبيب نفسيّ حَتَّى تتنبَّأ بتأثير أفعالك على الحالات".

ظلَّ الرِّجال الثَّلاث يتحدَّثون طويلاً. ومع الويسكي الحلو, وأمزجة الدُّخان التي تنبعث مِن السَّجائر مختلفة المُحتويات, زال الاحتقان بينهم. بدأت تتسلَّل إليهم الشَّهوات. فتايات كثر يتجولن حولهم. أنواع كثيرة مِن المشروبات أمامهم. وأصوات الغِناء وضَحِكات الغَانيات يثقب أغوارهم.

حَتَّى لاحظ أمجد اختفاء الفتاة التي كانت لاصقة به دوماً, فسأل وهو يلتفت يميناً ويساراً بحثاً عنها: "أين رحاب؟ ألمْ تأتْ اليوم؟"

مال كاظم نحوه بِضَحِكة زائمة مُتقطعة, وبقايا الطَّعَام يهرب مِن أسفل أسنانه الصَّفراء: "أرأيت؟ هاهاهاها لقد زاد الطَّلب على رحاب هذه الأيام".

لا يدري أمجد ما الشَّيء المُضحك بشدة فيما قاله ذكر الفيل, جعله و هاني مطر يضحكان بتكلُّف حَتَّى يبدوان كحالتين مِن حالات المَصَحَّة التي يُديرانها. فحاول أمجد أن يُغيِّر استراتجيته بسؤال آخر: "حسناً... أين عُرابي؟"

فوضع عُرابي يداه الأتنين على كتف أمجد وهو يقول: "هُنا. عُرابي هُنا". وجذب مقعداً حَتَّى يجلس بجانب أمجد, فأوقف أمجد المقعد بيده. ثُمَّ جذب عُرابي نفسه إلى الرُّكن البعيد في الصَّالة وسأله: "أين رحاب؟"

سأل عُرابي باهتمام: "لماذا هل فعلت لك شيء؟ هل سرقت مِنك شيء؟ اخبرني فقط وسأجلبها عارية أسفل قدميك".

أسرع أمجد قائلاً وهو يترنَّح مِن أثر المشروبات: "لا لا لا لا لا. أريد أن أسألها عن شيء فقط".

سأل عُرابي: "عن أيّ شيء؟"

لم يرْ أمجد طريقاً للهروب مِن أسئلة عُرابي سوى الكذب, فقال: "لا شيء يا عُرابي. فقط اشتقتُ إليها".

فسأل عُرابي مرَّة أخرى: "اشتقتَ لها؟ أَمْ اشتقتَ لِجسدها؟ هُناك فرق".

فَهِمَ أمجد ما يرمي إليه عُرابي, فحاول أن يظهر أمامه كشخص طبيعيّ يُفكِّر مثلما يُفكِّر الجميع هُنا فقال: "لا. بالطبع إلى جسدها".

اطمئن عُرابي ثُمَّ ضحك بصوت مرتفع وقال: "لكن هذه الأرنبة لن تفتح لك رجليها بسهولة. إنَّها تتقنَّع بقناع الشَّرف". ثُمَّ ضحك مرَّة أخرى وسأل بنبرة تهكمية: "هل رأيتَ مِن قبل غَانية شريفة؟"

أومأ أمجد برأسه وقال بضحكة مُزَيَّفة: "أظنَّني لم أرْ". والحقيقة أن أمجد فعلاً لم يرْ أبداً غَانية, لا شريفة ولا غير شريفة. ثُمَّ سأل مرَّة أخرى: "حسناً الآن. أين رحاب؟" وحَتَّى يُحسن شِبَاك خُدعته قال: "رحاب طماطماية؟"

قال عُرابي: "لم تأتْ منذ ثلاث أيام. فأمها, حبَّة الطماطم الكبيرة تحتضر, وفضَّلت أن تكون بجانبها حَتَّى تنتقل إلى الرَّفيق الأعلى... المسكينة عاشت مُحاطة بالرجال, وستموت وحيدة الآن".

سأل أمجد: "أين تسكن رحاب؟"

بدأ الشَّك يتسلل إلى قلب عُرابي وفقال: "أمجد. أنتَ تعلم أننا صديقين, حَتَّى لمَّا كنتَ أنتَ طبيب وأنا كما تعلم... لستُ طبيباً, فنحن صديقين, أليس كذلك؟"

أومأ أمجد رأسه بجدِّيَّة تامة: "بالتأكيد".

وضع عُرابي يده على كتف أمجد وسأل: "أنتَ لا ترغب في مضاجعة رحاب. أنتَ ترغب في شيء آخر أيُّها الطَّبيب, أليس كذلك؟"

بدأ التَّوتُّر يظهر على وجه أمجد, وآثر أن يُخبره الحقيقة بدلاً مِن الكذب فقال: "الحقيقة أنَّني أريد أن أساعدها, أريدها أن تنفصل عن حياتها هُنا. هذه الحياة ليست جيِّدة أبداً".

سأل عُرابي: "تريد أن تنتشلها مِن تيهها هُنا, حَتَّى تتزوَّجها؟"

اتسعت حدقتيّ أمجد وقال في صرامة: "لا لا. بالطبع لا. أنا رجل خاطب". وأشار إلى الدِّبلة التي نسى أن يُزيلها مِن إصبعه.

هزَّ عُرابي رأسه متمِّماً على حديث أمجد وقال: "حسناً. انتظرني نصف ساعة. سأُسَرِّح الفتايات, ثُمَّ أدلك على بيت رحاب".

أومأ أمجد رأسه, ولم يشأ الرِّجوع للجلوس مع كاظم و هاني مطر, وفضَّل الجلوس في الرُّكن المظلم وحيداً. طلب فنجان قهوة حَتَّى يستعيد رُشده. وجلس مُثبِّتاً عينيه ويتعمَّق النَّظر في قدح القهوة. بعد لحظات معدودة مِن الجلوس في الإضاءة الخفيفة, وشعور الهدوء والاتزان بالقرب مِن الصَّخب الذي بدأ يهدأ رويداً رويداً, ومع التَّعب والإرهاق مِن السَّفر, بدأ أمجد يُغمض عيناه, ثُمَّ بدأ يرواده هذيانه الحلو بعد انقطاع دام لأُسبوع: *تَخَيَّلَ أنَّه في منزل مُريح, تحديداً في المطبخ. جَالِسَاً على منضدة السُّفرة. وياسمين, صاحبة الوجه الخمريّ, طويلة القامة بشعر أصفر داعبته أشعة الشَّمس فلمع كالذهب المُضآء, واقفة مِن خلفه, تمسِّج له رقبته المُرْهَقة, وطَبَعَتْ قُبلة حارة عليها. عندها دخلت فتاة صغيرة حوالي أربع سنوات, نُسخة كربونيَّة مِن ياسمين, أسرعت إليه قائلة بصوت ملائكيّ ليس مِن عاَلمنا: "بابي, بابي". فحملها ووضعها على رجله اليمنى. عندها طُرِقَ الباب. فالتفت إليه ياسمين, وسارت حَتَّى تفتحه. خرجت مِن المطبخ وما هي إلا ثوانٍ, وسُمِعَ صوت صراخها عالياً. فنظر إلى ناحية قدوم صوتها, وضع ابنته على الأرضيَّة, وهَمَّ*

بالوقوف. وسار حَتَّى وقف على العتبة بين المطبخ والصَّالة, ثُمَّ هرول بقوة خارجاً إلى الصَّالة. وظلَّت الفتاة الصَّغيرة واقفة وحدها في المطبخ وهي تنادي: "بابا أمجد". لكنه لم يهتم بنداء ابنته, عندما وجد ياسمين رازحة على أرضيَّة الصَّالة, وبجانبها زُهْريَّة مِن الفُخَّار الصِّينيّ, مُحطمة إلى شظايا ومُتناثرة حولها, فهَمَّ مُسرعاً نحوها, إلا أن صوت الطَّرق العنيف على باب الشَّقَّة قد استوقفهُ. وصاح صوت الفتاة الصَّغيرة في المطبخ مرَّة أخرى "بابي بابي". لم يهتم بنداء ابنته, انحنى نحو ياسمين حَتَّى يُنهضها مِن رزوحها ثُمَّ فتح باب الشَّقَّة ووقف مصدوماً, يبلع ريقه بغُصَّة, عندما رأى رجب الصَّامت واقفاً أمامه ويُنادي "أمجد. أمجد". ـ اِستيقظَ أمجد مِن هذيانه الحلو الذي لم يَعُدْ حلو بعد ـ اِستيقظَ على صوت عُرابي وهو يناديه: "أمجد. أمجد". ففتح أمجد عيناه مفزوعاً. وضع عُرابي يده على كتف أمجد حَتَّى يُهدِّأ مِن روعه وهو يقول: "هذا أنا. اهدأ. لقد ذهبتَ بعيداً, على ما يبدو".

سأل أمجد والعرق يسيل على وجهه: "هل انتهيتَ؟"

أومأ عُرابي برأسه عِدَّة مرَّات: "نعم نعم. والآن, هيَّا لِنذهب". ثُمَّ نظر في ساعة يده وقال: "إنَّه العاشرة مساءً".

دلفا الأثنين إلى سيَّارة أمجد, وانطلقا إلى شقة رحاب غير البعيدة عن الكابرية. أوقف أمجد السَّيَّارة, وقال إلى عُرابي: "ألن تصعد معي؟ فلتترجَّل مِن السَّيَّارة".

قال عُرابي: "لا. أنا سوف أتَرَجَّلُ مِن السَّيَّارة, لكني لن أصعد معك. إنَّهُما لا يُحبَّان استضافتي في منزلهما".

مال أمجد برأسه وكأنّه يسأل عن مَن يتحدَّث.

فقال عُرابي: "رحاب, ووالدتها. إنَّهُما لا يُحبَّان استقبال أيّ شخص مثلي أنا, في الحقيقة لا يُحبَّان استقبال أيّ شخص له عِلاقة بالكابرية". ثُمَّ تَرَجَّلَ مِن السَّيَّارة.

فترجَّل أمجد هو الآخر وقال إلى عُرابي: "لماذا ترجَّلتَ مِن السَّيَّارة. ابق بداخلها حَتَّى أعود".

هزَّ عُرابي رأسه يميناً ويساراً وقال: "لا. يجب أن أعود إلى الكابرية. أنتَ اصعد, وسنتحدَّث عن زياتك تلك فيما بعد".

سار عُرابي عائداً إلى الكابرية. صعد أمجد المنزل. إلى الطابق الثاني كما أخبره عُرابي. طرق الباب بهدوء. فتحت

رحاب الباب, ووقفت مكانها مصدومة مِن المُفاجأَة, وقد بدت على وجهها ملامح الفرحة والعديد مِن الأسئلة. ثُمَّ تداركت هول انفعالاتها وقالت: "اتفضل. اتفضل يا دكتور أمجد. اتفضل".

دخل أمجد إلى الشَّقَّة, وكانت بسيطة, ثلاث غرف يطلُّون جميعاً على صالة واسعة تتوسَّطها منضدة سفرة مُحاطة بأربعة مقاعد خشبيَّة متينة, حوائط الصَّالة مدهونة باللَّوْن البيج الفاتح خاطف الأنظار, وأيضاً قد لفت نظره برواز كبير ذو إطار ذهبيّ, وخلفية قطيفة سوداء خِيطت فيها آية الكرسيّ بِخَيْط فِضِّيّ لامع, فضحك بصوت. سألت رحاب بابتسامة الدَّهشة: "ما المضحك؟"

تنهَّد أمجد قائلاً: "لا شيء. لا شيء". والحقيقة أنَّه تَخيِّل وجود رجال غريبة في الشَّقَّة, وَرُبَّمَا يجد بعض فتايات البغي, وبالتأكيد سيرى لأول مرَّة فتى شاذ جنسياً, يقوم على خدمتهن ويسير بِدَلالٍ وضيعٍ, مُحاكياً العاهرات, حاملاً صينية وعليها أكواب الخمر مصفوفة. لم يتوقع أبداً هذا الهدوء والفراغ, وما الذي جلب برواز لآية الكرسيّ في شقة عاهرتين؟ وخشى ما خشاهُ أن يجد أمّها تفرغ مِن صلاة

العِشاء وتنهر ابنتها لإستضافة رجل غريب في الشَّقَّة, فضحك مرَّة أخرى.

قالت رحاب بعينين لامعتين: "إذاً تفضَّل بالجلوس". وأشارت إلى غرفة الصَّالون.

سار أمجد خلف رحاب. عيناه مثبَّتتين في الأرضيَّة, يتحاشي النَّظر إلى مؤخرتها المشدودة بشكل يُثير أمراً بداخل جميع الرِّجال. ثُمَّ جلس أمجد على مقعد, ونظر في عينيها وسأل: "هل نحن وحدنا؟ في الشَّقَّة؟"

لمعت عينيّ رحاب ومالت نحوه وسألت بِدَلالٍ: "هل يجب أن أخشى مِن هكذا سؤال؟"

تنحنح أمجد وأسرع بخجل قائلاً: "ظننتُ أن والدتكِ مريضة, لذلك أتيتُ للسؤال عنها".

عادت رحاب إلى نصابها, وقالت: "حسناً. إنَّها في غرفتها, تستريح قليلاً. انتظر لحظات حَتَّى أبدِّل ملابسي".

نظر أمجد إلى ملابسها, وأدرك فجأة أنَّها ترتدي قميص نوم أبيض لطيف, فثبَّت عيناه في راحتيّ يداه وظلَّ يتعمَّق فيهما النَّظر.

ضحكت رحاب وخرجت مِن غرفة الصَّالون, ودخلت إلى الغرفة المجاورة.

بعد لحظات خرجت مرَّة أخرى, مُرتدية روب أبيض يُغطي جسدها, يبدو أن الرُّوب كان قطعة أخرى تُكمِّل قميص النَّوم. أشارت إلى أمجد بيدها وقالت: "تعال. أمّي في انتظارك, لقد أخبرتها أنَّك تُريد أن تطمئن عليها".

دخلت رحاب ومِن خلفها أمجد. كانت الأم ممدَّدة على سرير وتُغطيها بطانية ثقيلة للغاية على الرَّغم مِن درجات الحرارة المرتفعة والأجواء الحارة. اقترب مِنها أمجد بحذر وبدأ يطمئن على صحتها, وفجأة طغت العادة, بدأ على الفور بالكشف والفحص, تحسَّس درجة حرارتها, ثُمَّ نبضها. وجهها شاحب للغاية, وعيناها باهتتين, شفتاها تهتزَّان بوهن, شعرها فاتر هش, ورقبتها مُجعَّدة, وجبينها مائع مُتعرِّق. تلتقط أنفاسها بصعوبة, وكأن هُناك ثقل على صدرها. التفتَ أمجد إلى رحاب وسألها: "منذ متى وهي في هذه الحالة؟"

أجابت رحاب: "منذ حوالي ثلاث أشهر".

سأل أمجد: "ما التَّشخيص الذي شُخِّصَتْ به؟"

ربتت رحاب على كتفه الأيسر وقالت باستسلام: "لا تُرهق نفسك أيّها الطَّبيب".

تابع أمجد فحصه.

قالت رحاب بنبرة مخنوقة, وكأنّها تحاول أن تمسك عَبرة: "قلتُ لك لا تُرهِق نفسك أيّها الطَّبيب".

نظر إليها أمجد نظرة مُشفقة وسأل بصوت منخفض: "ما بها؟ هل هو ما أظنّه؟"

جذبته مِن يده إلى خارج الغرفة وقالت: "بلى. في آخر مراحله".

سأل أمجد: "وأين الورم بالتحديد؟"

أجابته وبدأت الدُّمُوع تنهمر مِن عينيها بالفعل: "في المخ. إنَّها بحجم حبة الخوخ".

فَهِمَ أمجد أن الأم تُفارِق الحياة. فسأل بهدوء: "هل تعتقدين بأن هُناك أمل؟"

أجابته وهي تختنق بالبُكاء: "لا. حاولنا منذ ثلاث أشهر أن ننقلها إلى إحدى المشافي الفرنسيِّة, لكن كانت التَّكاليف باهظة للغاية".

بحكم امتهانه بالطب, فَهِمَ أمجد سريعاً أن لا جدوى مِن التَّحدُّث في هذا الموضوع, فحاول أن يشد مِن أزر رحاب, لكنها تأبى السُّكوت عن البُكاء. فحاول أن يصرفها عن الأمر بشيء لا يُلفت نظرها, فطلب مِنها كوباً مِن الماء.

مسحت الفتاة دُمُوعها, وأخبرته أن يعود إلى غرفة الصَّالون. فعاد أمجد وجلس على المقعد, فدخلت رحاب سريعاً بصينية صغيرة وكوباً مِن الماء. قدَّمت الكوب إلى أمجد ثُمَّ سألته: "قهوة أَمْ شاي؟ أَمْ رُبَّمَا مشروباً بارد؟"

فكَّر أمجد لثانيتين ثُمَّ قال: "لا شيء. اجلسي. أريد أن أتحدَّث إليكِ".

قالت: "أعلم أنك تُريد التَّحدُّث إليَّ".

سأل: "كيف عرفتِ؟"

ابتسمت وقالت: "وما الذي قد يجلبك إلى هُنا غير هذا؟"

أومأ أمجد برأسه, ثُمَّ بلع ريقه وقال: "حسناً. قهوة سادة".

قالت رحاب: "حسناً. تعال معي".

نظر إليها أمجد نظرة ارتياب, كأنَّه يسأل لماذا؟ وإلى أين؟

فأسرعت رحاب قائلة: "إلى المطبخ. حَتَّى لا تجلس وحدك".

قال أمجد وهو يفتح كلتى يداه: "لا. أنا سأنتظرك هُنا".

تجعَّد جلد جبينها وقالت: "لا تخف, أنا لا لن أغتصبك".

ضحك أمجد وقال: "هل تقولين هذا حَتَّى تُطمْئنيني؟ حسناً, أظنُّ أنَّني بدأتُ أخشاكِ الآن". ثُمَّ ضحكا كلاهما. نهض أمجد, وذهبا إلى المطبخ. وقف أمجد صامتاً, يداه مطويتان على صدره. ظهره مُسنداً إلى الحائط بجانب رحاب التي سألت فجأة: "ما الذي تُريده يا أمجد؟"

قال أمجد على الفور: "أن أطمئن على والدتكِ".

ضحكت رحاب ضحكة مُزَيَّفة ثُمَّ قالت: "كيف عرفتَ أنَّها مريضة مِن الأساس؟"

غمغم أمجد بكلمات غير مفهومة.

قاطعته رحاب: "حسناً. هل تزور كل المرضى؟ الذين لا تعرفهم؟ أنتَ لم ترْ أمّي مِن قبل, كيف لك أن تذهب لِزيارة مريض لا تعرفه؟"

تلجلج أمجد مرَّة أخرى, وقال: "أنا أعرفكِ". ثُمَّ نظر إليها, كان ضوء المصباح قوي, سطع على وجهها الأبيض,

فبدت جميلة للغاية, برقبة طويلة, تُثير الجماد. فقال أمجد كأنَّه شارب الخمر وكان كذلك بالفعل: "أنتِ حسناء للغاية".

سألت رحاب وهي تصب القهوة: "ما الذي تُريده أيُّها الطَّبيب؟" ثُمَّ اقتربت مِنه حَتَّى لامس صدرها صدره. وهمست في أذنه: "هل تُريد أن تفعل شيء؟"

فكَّر أمجد لِثانيتين, وفتح فاه حَتَّى يتحدَّث, فوضعت رحاب إصبعيها على شفتاه. وأشارت إليه أن يخرج مِن المطبخ.

خرج أمجد ورحاب مِن خلفه ودخلا إلى غرفة الصَّالون مرَّة أخرى. جلس أمجد صامتاً, فيما كانت رحاب تنظر في وجهه وكأنَّها تقرأ كتاباً سهلاً. ثُمَّ قالت: "أنا أعرف لماذا أتيتَ".

انتبه أمجد إليها وقال: "حقاً؟ لماذا؟"

قالت رحاب: "مِن أجل ياسمين".

انتبه أمجد. توتَّرَ. وضع فنجان القهوة على المنضدة أمامه. ثُمَّ سأل بنبرة متقطعة, في محاولة ساذجة لإخفاء ما في صدره: "مَن؟ ياسمين؟ لا. مَن هي ياسمين؟"

ضحكت رحاب, وقالت: "الآن فقط أعرف لماذا أحببتك".

قال أمجد: "ماذا؟ هل تحبيني؟ أنا؟"

قالت رحاب بصوت هامس, لم يسمعه أمجد: "أحمق".

سأل أمجد: "ماذا قلتي؟"

قالت رحاب بنبرة جادة تماماً: "أمجد. يجب أن تبتعد عن ياسمين, ولا تُفتِّش فيما طواه الزَّمن. ومِن الأفضل أن تبقى بعيداً عن أيّ شيء له عِلاقة بهذه الفتاة".

قال أمجد: "أنتِ تكرهيها".

قالت رحاب بشيء مِن الغضب: "يا لك مِن أحمق. بالطبع لا أكرهها. إنَّها صديقتي".

سأل أمجد: "صديقتكِ؟ كيف؟"

قالت رحاب: "كُنَّا زميلتيّ دراسة. درسنا في نفس الكُلِّيَّة. دار علوم, جامعة القاهرة". ثُمَّ توقَّفت لِثانيتين كأنَّها تتذكَّر ثُمَّ أتبعت: "حَتَّى عادت هي إلى المَصَحَّة مرَّة أخرى". ثُمَّ نظرت إلى أمجد, نظرت في عيناه مباشرةً وقالت: "ابتعد عنها إن كنتَ تهتم إلى أمرها. إنَّها فتاة غير صالحة لأيّ عِلاقة".

حاول أمجد أن يفهم أكثر. حاول التغلغل إلى تفاصيل أكثر دِقة. لكن رحاب رفضت تماماً التَّحدُّث في هذا الأمر. حَتَّى أن أمجد أخذ مِنها موقفاً, وخرج مِن الشَّقَّة غاضباً.

في الطَّريق إلى شقَّته, مَرَّ أمجد بسيَّارته مِن الشَّارع الخلفيّ للمَصَحَّة, ونظر مِن خلف زجاج السَّيَّارة, لكنه لم يجد ما يبحث عنه, وواصل القيادة حَتَّى شقَّته, وما أن دخل الشَّقَّة, دقَّت السَّاعة الواحدة بعد منتصف اللَّيل. لا يوجد مياه في الصِّنبور حَتَّى يحصل على حمَّامه البارد المُقدَّس. اتصل بأمه وأخيه, اطمئن عليهما. ثُمَّ وضع رأسه على الوسادة وغاص نوماً.

مرَّت السَّاعات كأنَّها دقائق. إنَّها الثَّامنة صباحاً. نهض أمجد مِن النوم, عيناه واهنتين, جسده مُرهَق, ورأسه ثقيل. لكنه تحامل هذا التعب, ونهض حَتَّى يحصل على حمَّامه. لا بُدَّ أنَّه استنشقَ كمِّيَّة كبيرة مِن دخان السَّجائر أمس في الكبارية بالطبع ناهيك عن الكحوليات التي لم تتعوَّد معدته عليها بعد, يجر قدميه بصعوبة, يفتح عينها نصف فتحة, ضوء مصباح الحمَّام قوي وعنيد. أعادت المياه الباردة كالثلج إليه شيء مِن وعيه واتزانه. وبدأ يسترد باقي هِمته عندما بدأ يقود سيَّارته إلى المَصَحَّة. كانت السَّاعة التَّاسعة. لا تزال المَصَحَّة شبه فارغة, أقدام قليلة, وهدوء يتنفَّس الحذر. كل شيء طبيعيّ بشكل مُريب. وفجأة لمح أمجد

أحدهم يقف في الحديقة, بالقرب مِن السُّور الغربيّ, لقد تعرَّف عليه ما أن لمحه مِن ظهره, إنَّه الحاج أحمد الأعرج, لقد عاد مرَّة أخرى. أسرع أمجد نحوه وهو يُنادي مِن بعيد: "حاج أحمد. حاج أحمد".

التفتَ الحاج أحمد بملامح وجه السَّمِحَة.

سأل أمجد وهو واقفاً أمامه: "الحمد لله على سلامتك. أين ذهبتَ أيُّها الرَّجُل الطَّيِّب, وأين اختفيتَ؟ وأين ابنك سعيد؟ نوَّرتَ المَصَحَّة والحديقة مرَّة أخرى يا حاج أحمد".

ربت الحاج أحمد الأعرج على كتف أمجد وهو يقول: "كُنَّا نزور أقاربنا في البلد".

ابتسم أمجد ونظر يميناً ويساراً كأنَّه يستعرض الحديقة: "انظر. لقد أصبحت الحديقة في حالة يُرثى لها مِن بعدك, أيُّها الرَّجُل الطَّيِّب".

ابتسم الحاج أحمد هو الآخر وقال: "سوف تكون مثلما كانت وأفضل".

سأل أمجد: "أين سعيد؟ أريد أن أسلِّم عليه".

أجابه الحاج أحمد: "لقد سافر إلى إحدى دول الخليج... سافر مع ابن عمِّه, لعلَّ الله بيُغنيه بحلاله عن حرامه".

أومأ أمجد رأسه عِدَّة مرَّات وكأنّه يحسب الأمر في عقله ثُمَّ قال: "خير والله. لعلَّ الله يفرِّج عنه, ويُزيد مِن رزقه".

أمَّنَ الحاج أحمد على دعاء أمجد. ثُمَّ انصرف, حاملاً فأس في يده اليمنى, وبلطة حمراء طويلة في يده اليسرى, ودخل إلى المَصَحَّة. بحث أمجد عن عادل وهيمة, لم يجدهما, فبدر في ذهنه على الفور أنّهُما دخلا إلى غرفتهما, حَتَّى يناما ن. فدخل غرفة الأطباء, وجلس على مكتبه. أخرج أمجد محفظة والده. فتحها. إنَّها كما هي منذ أن أخذها رجب. المال كما هو, وصورة أستاذ أحمد الإسكندراني وهو يحمل أمجد رضيعاً كما هي في مكانها. ووصلين مِن شركة الكهرباء, وبعض الأوراق الأخرى. ظلَّ أمجد يحملق في الصُّورة لِدقائق طويلة حَتَّى اقتحم كاظم باب الغرفة. فوجد أمجد يضع المال وبعض الأوراق في محفظة رثَّة, فسأل كاظم: "هذه هي المحفظة؟ محفظة والدك؟"

لم يجبه أمجد ووضع المحفظة في جيب بنطاله الخلفيّ.

كرَّر كاظم السُّؤال: "هذه هي المحفظة الغالية؟"

أجابه أمجد: "صباح النُّور".

أومأ كاظم برأسه وجلس على مكتبه, أخرج كيساً بلاستيكيَّاً, وبه بعض الشَّطائر, ثُمَّ انفعل فجأة, وانتفض مِن مكانه وسأل أمجد: "أين دوائك السِّريّ الذي سيخلِّصني مِن السِّمنة؟"

تلجلج أمجد ثُمَّ قال سريعاً: "نعم. نعم نعم... إنَّه معي في الشَّقَّة, سأجلبه لك غداً".

جلس كاظم على مقعده مرَّة أخرى وقال: "لا. لا تجلب شيء". ثُمَّ قضم قطعة كبيرة مِن الشَّطيرة التي في يده وقال بصوتاً هامساً للغاية والطَّعَام يتناثر ويتقلَّب في فمه: "لا شيء سيُعيد مَن ذهب".

لم يسمع أمجد ما قاله فسأل: "ماذا قلتَ؟"

قال كاظم وهو يبلع الطَّعَام بشراهة: "لا شيء".

خرج أمجد إلى الطُّرقة, التي زادت الحركة فيها. نظر يميناً ويساراً, فوجد المدير هاني مطر يقف مع أحد الأشخاص بجانب مكتبه, ثُمَّ دخلا الأثنين إلى المكتب. سار أمجد في الطُّرقة, مَرَّ بجانب النَّافذة المطلَّة على عنبر الرِّجال, أدار وجهه عنها, حَتَّى وصل إلى سرير ياسمين. كانت ياسمين جالسة على سريرها. وإحدى الممرِّضات تحاول أن تتحدَّث

معها, ثُمَّ خرجت عندما دخل أمجد, الذي انتبه إلى وجه ياسمين الأهيف فقال: "صباح الخير".

لم تردْ ياسمين واكتفت بالابتسامة الهادئة.

سأل أمجد: "ما الذي تريده مِنكِ هذه الممرِّضة؟"

قالت ياسمين: "لا شيء. إنَّها فقط تريد أن تعرف مِن أين أحصل على البرفيم".

ضحك أمجد بصوت منخفض وقال: "صحيح. رائحتكِ تصدح بالياسمين طيلة الوقت كأنَّها ترنيمة تأبى أن تصمت عنكِ أبداً".

قالت ياسمين: "بالتأكيد".

جذب أمجد مقعد وجلس بجانبها وسألها: "هل تناولتِ الفطور؟"

أومأت ياسمين برأسها.

فأراح أمجد ظهره على المقعد للحظة, ثُمَّ سأل وهو يتصنَّع عدم الاهتمام: "هل تذكرين رحاب؟ لقد تحدَّثتُ معها".

سأل ياسمين: "تحدَّثتَ فقط؟"

ضحك أمجد وقال: "بلى. تحدَّثتُ فقط".

"جيِّد".

قال أمجد: "بلى, جيِّد".

"جيِّد".

ضحك أمجد وسأل: "هل تغارين؟"

قالت ياسمين بانفعال أنثويّ: "مَن؟ أنا؟! بالطبع لن أغار مِن إحداهن".

قال أمجد بشكل تلقائيّ: "جيِّد". ثُمَّ نكص بظهره إلى الخلف. ظلَّ لِحوالي عشرة ثواني يفرك جبينه بإصابعه, ثُمَّ التفت يميناً ويساراً, بلع ريقه, وعاد يفرك جبينه مرَّة أخرى.

سألت ياسمين: "ماذا تريد أن تقول؟"

أسرع أمجد قائلاً: "أريد أن أخرجكِ مِن هذه المَصَحَّة. لقد أنهيتُ خطوبتي, ومِن حقي أن أطالبكِ بالارتباط الحقيقيّ".

أشارت ياسمين بيدها بأن الحديث في موضوع خروجها مِن المَصَحَّة, هو حديث مجدب ولن يعود بالنفعل. ثُمَّ أدارت وجهها.

اِقتربَ أمجد مِنها وسألها: "هل تتزوَّجيني؟"

تنهَّدت ياسمين ثُمَّ نظرة في وجهه وقالت: "أنا لا أصلح لك أيُّها الطَّبيب. أنا مُجَرَّد حالة".

نهاها أمجد على حديثها وسأل: "ما الذي تخفيه عني يا ياسمين؟"

تعرَّق وجه ياسمين, بدأت يداها في الارتعاد, ازدادت حرارة جسدها, قلبها ينبض بقوة وسرعة, تهتزّ خائفة كالعصفور الذي سقط بجانب قط أثناء تحليقة.

أمسك أمجد يده وحضن كفها بكفيها وقال: "يجب أن تثقي بي يا ياسمين".

قالت: "أنا أعلم أنَّك جدير بالثقة. لكنك في الوقت ذاته أعمى, أو رُبَّمَا أنتَ تتظاهر بعدم الرؤية, أنا لا أدري".

سأل أمجد: "لا أفهم, لماذا تقولين هذا الأمر؟"

"هل عرفتَ مَن الذي قتل راضي؟ يجب أن تخشى مِنه".

"مِمَن؟"

"مِن هاني مطر".

سأل أمجد بنبرة تهكمية: "أنتِ تتفوهين بكلام خطير, هل تقولين أن هاني مطر هو مَن قتل راضي؟"

أومأت ياسمين برأسها.

قال أمجد: "حسناً. ماذا إن قلتُ لكِ أنَّني ذهبتُ إلى المشفى التي شُرِّحت فيها جثة راضي, وحصلتُ على ملفه مِن

المشرحة, وأخبرني الذي قام بتشريح جثته أنَّه مات غريقاً؟"

فكَّرت ياسمين لِثانيتين: "لا أدري. رُبَّمَا هاني مطر أعطاه مال حَتَّى يقول هذا".

"ياسمين. يجب أن تزيلي هذه الفكرة المجنونة مِن رأسكِ".

قالت ياسمين بغضب: "مجنونة؟ نعم أنا مجنونة".

حاول أمجد أن يتحدَّث معها مرَّة أخرى. لكنها رفضت التَّحدُّث, وعادت إلى عُزلتها مرَّة أخرى. ووضعت رأسها بين فخذيها. فخرج أمجد وعاد إلى غرفة الأطباء لِيجد كاظم لا يزال يتناول الطَّعَام. فجلس على مكتبه, يتابع بعض التَّقارير عن الأوضاع الصِّحيَّة للمرضى. لاحظ أمجد أن مصاريف الرِّعاية الطِّبية كثيرة, ومِن المؤكد أن المَصَحَّة لن تنهض على تلك المصاريف, فاستدار إلى كاظم وسأله عن مصادر دخل المَصَحَّة وأضاف: "بالتأكيد مصاريف دخل المَصَحَّة محدود للغاية".

قال كاظم: "بالطبع. بالطبع لن تكفي بضعة الآلاف التي يدفعها أقارب النُّزلاء كل فترة", ثُمَّ صَمَتَ قليلاً حَتَّى يبلع

الطَّعَام وسأل: "هل تذكر اللَّجنة التي وصلتَ إلى هُنا منذ عِدَّة أيام؟"

أجاب أمجد بالإيجاب.

أتبع كاظم: "إنَّها لجنة مِن مؤسسات دعم المجتمع المدنيّ, والمُؤسَّسات الخيريَّة. طالما تلك اللَّجنة النِّصف سنوية راضية عنَّا, فَهُم يدفعون لن الكثير, وكذلك الحكومة تدعمنا بشكل غير دوريّ".

أومأ أمجد برأسه وقال: "نعم. نعم".

سأل كاظم: "لماذا تسأل؟"

أجاب أمجد: "لا شيء".

سأل كاظم: "ألا يكفيك راتبك هُنا؟ إنَّك تأخذ نفس الرَّاتب الذي كان راضي- رحمة الله عليه- يأخذه بعدما أمضى سنوات طويلة في المَصَحَّة".

قال أمجد: "لا لا. أنا أسأل عن أمراً آخراً". ثُمَّ حاول تغْيير الموضوع وسأل: "هل كانت علاقتك طيِّبة بالطَّبيب راضي؟"

تنهَّد كاظم وقال بملامح الأسى على وجهه: "المسكين. لقد كُنَّا صديقين جيِّدين". ثُمَّ أخرج هاتفه المحمول, وأخذ

يقلِّب في الصُّور. ثُمَّ ناول أمجد الهاتف وقال: "انظر. هذه صورنا في آخر سفريَّة لنا في السَّاحل. إنَّه الرَّجُل الطَّويل الذي يرتدي قميصاً أبيضاً".

تناول أمجد الهاتف وظلَّ يقلِّب في الصُّور. صور كثيرة, للدكتور هاني مطر وكاظم والطَّبيب راضي. ظلَّ أمجد يقلِّب الصُّور, حَتَّى توقَّف عند صورة جذبت انتباهه للغاية, كان الطَّبيب راضي يقفز في الهواء, مِن القارب الكبير في وسط المياه. فسأل: "هل راضي يستطيع السِّباحة؟"

ضحك كاظم وقال: "بلى. لقد كان سبَّاحاً". ثُمَّ تناول الهاتف مِن يد أمجد, وشغَّل مقطع فيديو للدكتور راضي وهو يسبح في وسط المياه باحترافيَّة شديدة.

فسأل أمجد: "كيف لِهذا الرَّجُل في مقطع الفيديو أن يغرق في نهر هادئ, كنهر النِّيل؟"

توقَّف كاظم عن الابتسام وبدت على وجهه ملامح الدَّهشة ثُمَّ قال: "لقد انتحر".

سأل أمجد مرَّة أخرى: "حقاً. ولماذا انتحر راضي؟"

"ماذا؟"

كرَّر أمجد السؤال: "لماذا انتحر راضي؟"

فكَّر كاظم قليلاً. ثُمَّ جذب كتفيه إلى أعلى وقال: "لا أدري. لكني لاحظتُ عليه تغيُّر واضطرابات في سلوكه لعلَّه كان يمرُّ بمشاكل لم يرغب في الإفصاح عنها أمام أيّ شخص. الله يرحمه, لقد كان كتوماً بطبعه". ثُمَّ سكت قليلاً وتناول شطيرة مِن الكيس البلاستيكيّ أمامه وقال كأنَّه يتذكَّر أمراً: "لِكل مِنَّا أسْراره".

فسأل أمجد: "وما هو سرَّك؟"

قضم كاظم قضمة مِن الشَّطيرة وقال وهو يمضغ الطَّعَام: "هل رأيتَ الحاج أحمد؟ لقد عاد الأعرج".

"بلى. لقد سلَّمتُ عليه".

بلع كاظم الطَّعَام وقال: "سرِّي ليس أكثر تخفِّياً مِن سرَّك".

ابتسم أمجد وقال: "سري؟ أنا لا أخفي أيَّة أسْرار".

"الإنكار هو بداية الاعتراف".

ضحك أمجد وأدار وجهه عن كاظم وقال وهو ينظر إلى النَّافذة المرتفعة: "ياله مِن مهندس غبي, كيف له أن يفعل هذه الجريمة".

قال كاظم: "ابتعد عن ياسمين أيُّها الطَّبيب. حَتَّى لا ينتهي بك المطاف غارقاً في قاع النِّيل. لقد انتحر راضي بعدما وقع في حب النَّداهة".

سكت أمجد. وظلَّ ينظر إلى النافذة المرتفعة. وتابع كاظم تناول الطَّعَام.

بعد انتهاء اليوم الأول مِن ذاك الأُسبوع. ذهب أمجد إلى ياسمين لِيخبرها أن تنتظره عند شجرة الياسمين اللَّيلة. لكنها رفضت التَّحدُّث إليه. لم يكرِّر أمجد محاولته, وخرج مِن المَصَحَّة إلى شَقَّته. تناول الطَّعَام الذي اشتراه مِن أحد الكافتريات القريبة مِن شَقَّته. حصل على حمَّامه البارد. اتصل برحاب. أراد أن يقابلها اللَّيلة في الكابرية, لكنها اعتذرت كارهة, لإشتداد مرض والدتها. فاتصل بعُرابي, وأخبره أنَّه يريد أن يقابله في الكابرية, واتفقا كلاهما على موعد مُحَدَّد. بدَّل أمجد ملابسه, وقاد سيَّارته حَتَّى وصل للكابرية.

كان الهواء داخل الكابرية مُغبَّراً بدخان السَّجائر, والآلاف مِن الرَّوائح الحلوة التي تترك طعم السُكَّر في الأنف والفم,

خليط مِن البرفانات النِّسائيَّة والخمور السُّكَّريَّة. لِسوء الحظ كان الرُّكن المعتم الذي اعتاد أمجد أن يجلس فيه مشغولاً. فجلس أمام البار لِدقائق حَتَّى أتاه رجل البار وسأله: "ماذا تشرب؟"

فكَّر أمجد قليلاً.

فقاطعه رجل البار: "أنتَ؟ أنتَ مرَّة أخرى؟"

نظر إليه أمجد وابتسم. ثُمَّ أومأ برأسه: "بلى. أنا".

ضحك رجل البار وسأل: "حسناً. كوب ماء؟ أَمْ صودا؟ أَمْ ستجرِّب شيء آخر؟"

قال أمجد: "أريد أن أجرِّب شيئاً خفيفاً, لا أنواع الفودكات الحارة تلك".

سعد رجل البار بتلك المغامرة وقال في بهجة: "إذاً... سايدر. براندي تفاح. إنَّه الاختيار الأمثل".

"هل هذا يُسكر؟"

هربت البهجة عن وجه الرَّجُل وقال: "هل أنتَ في حفل مدرسيّ لأوائل الطُّلاب؟!"

فكَّر أمجد لثوانٍ ثُمَّ سأل: "هل لي بكوب ماء مِن فضلك؟"

ذهب رجل البار, وعاد بكوباً مِن الماء, وضعه أمام أمجد وذهب حَتَّى يُتابع زبائنه. ترك أمجد الكوب مكانه, لم يلمسه, ثُمَّ استدار بالمقعد حَتَّى يُشاهد الرَّاقصة غير الموهوبة. وحينما كان يُتابع حركات الرَّاقصة البليدة, وضع رجلاً يده الغليظة على كتف أمجد وقال بصوته الأجش: "لماذا تجلس وحيداً يا بك؟" وألقى إحدى فتيات البغي في أحضانه عنوة وكانت تُدعى عواطف. ثُمَّ قال إلى رجل البار بصوت كأنَّه بابور زراعيّ قديم: "زجاجة بيرة للبك هُنا يا ابني".

ثُمَّ نظر إلى أمجد وربت على كتفه بيده الثَّقيلة وقال بشفتاه الغليظتين: "لا تخش تجرُّع البيرة يا صغير, فلا تصحبُها خشية الإدمان... حَتَّى وإن أدمنتَها, فلا تخف, أنا خبير الإقلاع عن الخمر, أقسم لك بشرف عواطف, لقد أقلعتُ عن شرب الخمر أكثر مِن ألف مرَّة وما يزيد, هذه اللَّيلة وحدُها أقلعتُ فيها عن الشُّرب ثلاث مرَّات". ثُمَّ ضحك كأنَّه خنزير مذبوح وتركه وسار عنه.

ظلَّ أمجد يحدِّق في ظهر الرَّجُل العريض كالبرميل وهو يسير عنه. كان ضخماً, أسود الوجه, بشارب غليظ, يده كأنَّها يد أحد مخبرين أمن الدَّولة, يرتدي بذة أنيقة لكنها لا تُناسب

جسده الغليظ, قفاه سميك وبه بعض الطَّيَّات, أصلع وهناك جرح قديم في مؤخرة رأسه مُمتد حَتَّى جبهته. إنَّه يستحق لقب زعيم القوَّادين بجدارة. نظر أمجد إلى الفتاة التي تُداعب صدره وتتلوَّى فيه كالحيَّة بجانب الشَّجرة المُقدَّسة, وزجاجة البيرة الخضراء بجانبه. فتحت الفتاة زِرّ قميصه, فخرجت شعيرات صدره حرة طليقة. فدفع الفتاة في صدره حَتَّى تبتعد عنه, ثُمَّ وقف منتصباً, أراد بشدة أن يخرج مِن هذا المكان, لكن إلى أين يذهب؟

جلس أمجد مرَّة أخرى مكانه وأخبر الفتاة أن تذهب وتتركه. فذهبت الفتاة وعلى وجهه ملامح الخيْبة.

دقائق قليلة وانتهى عُرابي مِن تسريح الفتايات. ثُمَّ ذهب إلى أمجد, فوجد زجاجة البيرة بجانبه, فسأله بنبرة التَّحذير: "هل طلبت هذه الزُّجاجة؟"

نظر أمجد إلى الزُّجاجة وقال: "لا. لقد طلبه رجل يشبه شب الجاموس ووضعها أمامي".

قال عُرابي بنفس نبرة التَّحذير: "إياك وشرب الخمر".

ضحك أمجد وقال: "خذوا الحكمة مِن أفواه القوَّادين".

قال عُرابي: "وماذا بهم القوَّادين؟"

جذب أمجد كتفيه إلى أعلى وقال: "يبيعون الجنس؟".

قال عُرابي وهو يجذب أمجد مِن ذراعه حَتَّى يسيرا إلى خارج الكابرية: "أتدري يا أمجد؟ نحن القوَّادين, ملائكة هذا القرن".

"عُذراً؟!"

"لا. لا أظنُّ أنَّني سأقبل عُذرك أيُّها الطَّبيب".

"أنا لم أعتذر".

"بلى. لقد اعتذرتَ لِتوك".

قال أمجد: "أنتم شياطين يا عُرابي. هل جننتَ؟ أنتَ تبيع الهوى وترعى البغي يا رجل".

قاطعه عُرابي: "لا. أنا لا أبيع الهواء. الغانيات هن مَن يبعن الهوى. أنا مُجَرَّد سمسار, وقد بعثني الله حَتَّى أقوم بعملي, ليس إلا".

"عُذراً؟!"

"قلتُ لك مُسبقاً أيُّها الطَّبيب. أنا لن أقبل عُذرك".

سأل أمجد: "أنتَ تزعم أن الله أرسلك؟!"

"بلى".

سأل أمجد: "كيف؟"

أومأ عُرابي رأسه, ثُمَّ وضع يده على كتف أمجد وقال: "هل تعرف هاروت وماروت؟"

أجاب أمجد: "إنَّهُما مِن الملائكة. مَلَكَان".

أسرع عُرابي بالقول: "وأيضاً ساحران".

"بلى".

سأل عُرابي: "مَن أرسلهما؟"

تهكَّمَ أمجد: "انتظر لحظة. إنَّها حكمة لن يستطيع أمثالك فهمها".

ضحك عُرابي: "وحكمتنا, نحن القوَّادين, لن يستطيع أمثالك أن يفهمها".

سكت أمجد, زفر الهواء مِن أنفه ثُمَّ قال: "اشرح لي".

اتخذ عُرابي موضع أستاذ الجامعة وبدأ يشرح: "ما لا ولن ولم تعرفه وحدك أيُّها الطَّبيب, أن هاروت وماروت كانا تاجرين, وليس ساحرين. كانا تاجرين يبيعين النَّاس السِّحر, *يُعلِّمان النَّاس السِّحر*. وهُما مَلَكَين, مُقرَّبين, مُنعَّمَين, سيخلَّدان في الجنَّة".

سأل أمجد: "وما دخلك أنتَ بهما؟"

أتبع عُرابي: "أرسلهما الله حَتَّى يقوما بعملهم في فتنة النَّاس, وما يُعَلِّمَانِ مِن أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ. كذلك أنا. أنا تاجر, أبيع ما لا يُباع. لا أمارس الجنس, لكني فقط أفرش الأسِرَّة, لا أتذوَّق الزَّانيات, لكني فقط أصنعهن. أنا الزَّاهي. أنا الوسيط. أنا مَن يخلق الفرص. وقبل أيّ صفقة أوشك على عقدها, أحذِّر الطرف الثاني, *المُشتري*. ولأكثر مِن عشرة أعوام وأنا أحذِّرهم. وهُم في غفلة عما يصنعون. أنا الذي تـــ".

قاطعه أمجد: "أنتَ المخدوع. أنتَ الخادع".

سأل عُرابي وهو يضحك: "وأنتَ؟ ألستَ مخدوعاً وخادعاً؟"

"أنا؟ لا. بالطبع لا. أنا لا أبيع الهوى, ولا أبيع الكذب".

ضحك عُرابي وسأل: "وما الذي أتى بك إلى الكابرية هذه اللَّيلة؟ لكي تُصلِّي العِشاء؟"

تلجلج أمجد قليلاً.

قطع عُرابي التَّوتُّر الذي ارتفع بينهما وسأل: "هل قابلتَ رحاب أمس؟"

"بلى. ماذا؟ لا. نعم, قابلتها".

ضحك عُرابي وقال: "لا يهم".

وظلَّ الأثنين يسران على أحد أرصفة الشَّارع. عُرابي صامت للغاية, وأمجد ليس أقل مِنه صمت. حَتَّى قطع أمجد هذا الصَّمت بسؤال: "مَن هذا الرَّجُل ذو الشَّارب الغليظ والجسد البدين؟"

سأل عُرابي: "أيّ رجل؟"

قال أمجد: "القوَّاد الكبير, في الكابرية؟ الرَّجُل صاحب البذة الأنيقة غير المهندبة".

سأل عُرابي: "الجحش؟"

"مَن؟"

قال عُرابي: "فتحي الجحش؟ إنَّه مدير الكابرية وتقريباً مالك الكابرية".

أومأ أمجد برأسه: "مممممم نعم. نعم. لذلك يتحرَّك في الصَّالة بِحُرَّيِّة كاملة, ويصرخ في العُمَّال بصوت غليظ".

"بلى".

سأل أمجد مرَّة أخرى: "ماذا تُعني بـ "تقريباً"؟"

قال عُرابي: "إنَّه يملك نصف الكابرية. يملك 51% مِن الكابرية".

قال أمجد: "لا يهم". ثُمَّ سأل: "ومَن يملك النَّصف الآخر؟"

أجاب عُرابي: " هاني".

توقَّف أمجد عن السَّير وسأل في صدمة: " هاني مطر؟"

أجاب عُرابي تلقائياً: "بلى".

وقف أمجد مصوماً.

قال عُرابي: "ظننتَ تعرف".

قال أمجد: "لا. لم أكْ على علم بذلك".

ضحك عُرابي بصوت وقال: "أنتَ بريء براءة الْعِيرُ مِن الكأس, عندما أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ".

سأل أمجد: "ما الذي تقوله؟"

"لا شيء".

سأل أمجد: "وعن أيّ براءة تتحدَّث؟ هل كنتُ موضع اتهام؟"

أومأ عُرابي برأسه وسأل: "لماذا كنتَ تريد مقابلة رحاب أمس؟"

قال أمجد: "لا شيء. فقط كنتُ أريد أن أسألها عن فتاة كانت زميلة لها في الجامعة".

قال عُرابي: "ياسمين".

وقف أمجد مرَّة أخرى مصدوماً, ثُمَّ سأل في اهتمام وحذر شديدين: "هل تعرف ياسمين؟"

حرَّك عُرابي رأسه يميناً ويساراً مُجيباً بالنفي وقال: "لا. فقط سمعتُ عنها".

سأل أمجد: "وماذا سمعتَ؟"

قال: "سمعتُ أنَّها تأثر قلوب الرِّجال".

أشاح أمجد بعينيه.

سأل عُرابي بنبرة سخرية: "هل هذا صحيح أيُّها الطَّبيب النَّقيّ؟"

"ماذا؟"

سأل عُرابي: "هل تحب المفاجآت؟"

سأل عُرابي: "ماذا الآن؟ هل هذه هي ليلة المفاجآت؟"

قال عُرابي: "بما أنَّك لا تعرف شيء, فهذا يعني أنَّك لستَ مُشتركاً معهم". ثُمَّ صَمَتَ لثانيتين وأتبع: "هذا يعني أن حياتك رُبَّمَا تكون في خطر".

سأل أمجد: "ما الذي تقوله".

قال عُرابي: "لا بد أنَّهم أخبروك أن راضي قد انتحر".

شعر أمجد أن الدِّماء تجمَّدت في عروقه في تلك اللَّحظة فسأل: "هل لديك شيء آخر لِتقوله؟"

نظر عُرابي يميناً ويساراً ثُمَّ قال: "أمجد, يجب ألا تتحدَّث في هذا الموضوع, والأفضل أن تعود مِن حيث أتيتَ".

سأل أمجد بشيء مِن الغضب: "عُرابي. ما الذي تعرفه عن موت راضي؟"

قال عُرابي: " راضي لم ينتحر... بل قُتل, ثُمَّ ألقوه في النِّيل".

قال أمجد: "لكني رأيتُ المَلَف الخاص به في المشفى, وكان الغرق هو سبب الوفاة, أنا متأكِّد مما أقول".

فقال عُرابي: "وهو غرق بالفعل, لكن ليس في النِّيل".

سأل أمجد: "أين غرق؟"

قال عُرابي: "في الكابرية".

قال أمجد بغضب وتهكم: "غرق أسفل قدميّ الرَّاقصة؟"

"لا. بل في مخزن الكابرية. لقد ربطه هاني مطر وفتحي الجحش, وكتما أنفاسه بقطعة قماش, ثُمَّ صبَّا الماء على قطعة القماش, فمات غرقاً".

فكَّر أمجد لثوانٍ ثُمَّ سأل: "وكيف عرفتَ؟"

قال عُرابي: "تعال معي".

ذهبا كلاهما إلى الكابرية مرَّة أخرى, ثُمَّ تجاوزاه ودخلا في المنزل المجاور إليه. ونزلا إلى قبو هذا المنزل. أطلع عُرابي, أمجد على ثقباً في الجدار الذي يفصل مخزن الكابرية عن القبو, وقال: "لقد رأيتهم مِن هُنا".

سأل أمجد: "وكيف عرفتَ أنهم هُنا مِن الأساس".

قال عُرابي: "أخبرتني رحاب بذلك, وأردتُ أن أتأكَّد بنفسي".

سأل أمجد: "هل رحاب هي الأخرى تعرف بذلك؟"

قال عُرابي: "بلى".

فسأل أمجد بانفعال: "لماذا لم تبلغا الشرطة؟ إنَّها جريمة قتل".

قال عُرابي: "هل جننتَ؟ كلانا نهرب مِن الشُّرطة, أنا قوَّاد ورحاب فتاة ليل, شهادتنا مجروحة أمام القضاء, وكذلك لا نملك دليل, وحَتَّى إن ملكنا الدَّليل, لن نزج بأنفسنا إلى متاهات ومشاكل كلانا في غِنى عنها".

ذهب أمجد, وترك عُرابي في مكانه وخرج مُسرعاً, مُتجاهلاً صوت عُرابي الذي يناديه, ودلف إلى سيَّارته التي

كان قد ركنها أمام الكابرية وانطلق في طريقه, إلى منزل رحاب.

طرق بابها بشيء مِن الغضب. فتحت رحاب وأدخلته بهدوء. ملامح وجهه تتحدَّث عنه. فسألت رحاب: "لمَ أنتَ حانق إلى هذه الدَّرجة؟"

فسأل أمجد بشكل مُحَدَّد: "هل تعرفين راضي؟"

فهمت رحاب أن أمجد عرف أن راضي قُتل ولم ينتحر, فحاولت أن تصطنع التَّجاهل, وأدارت وجهها وقالت: "حالة أمّي الصِّحيَّة تتردَّى يوماً بعد يوم".

قال أمجد بغضب: "لا تغيِّري الموضوع. لقد أخبرني عُرابي بكل شيء".

قال رحاب بانفعال: "لقد أخبرتك أن تبتعد عن كل ما يتعلق بياسمين. أنتَ فقط تجلب الهلاك إلى نفسك".

سأل أمجد بغضب: "وماذا يُعنيكِ أنتِ؟ نفسي وأنا حرٍ بنفسي".

نظرة إليه رحاب نظرة مُعاتبة, ثُمَّ وضعت عينيها في الأرض.

سأل أمجد: "ما الذي تعرفيه ولا أعرفه؟"

قالت رحاب: "أنتَ غبيّ".

نهض أمجد بغضب وأمسكها مِن ذراعيها وسألها بقوة: "كيف عرفتِ أن راضي قُتل؟"

قالت رحاب في انكسار: "أنا أحبك يا أمجد".

"فلتخبريني بكل شيء".

انسلت دمعتان مِن عينيّ رحاب وقالت في خنوع واستسلام: "سأخبرك بكل شيء".

جلس أمجد, وأجلسها على المقعد المجاور وقال: "ابدأي".

قالت: "لكن يجب أن تعدني بشيء أوَّلاً. عِدني أنَّك ستساعدني".

سأل أمجد: "بالطبع لن أخلي بكِ. ما الذي تعرفيه؟"

هدَّأت رحاب مِن روعها وبدأت تروي: "في البداية, يجب أن تعرف أنَّني فعلتُ كل هذا مِن أجل أمّي. لقد أخبرتك مِن قبل أن مدير الكابرية لديه شيكات بإمضاء أمّي وأبي".

أومأ أمجد برأسه وقال: "بلى, لكني أسأل عن راضي".

قالت رحاب: "كُل ما أعرفه أن راضي كان على خِلاف مع هاني مطر, ولا أعلم سبب الخلاف. لكني سمعتُ هاني مطر

يتحدَّث مع فتحي الجحش في تلك اللَّيلة عن خطة وضعاها لقتل راضي. وعندما وصل راضي أخذاه إلى مخزن الكابرية, فذهبتُ إلى عُرابي وأخبرته أن يحاول تسجيل ما سيحدث داخل المخزن. فوافق وذهب حَتَّى يفعل ذلك".

سأل أمجد: "وافق بهذه السِّهولة؟"

"عُرابي يريد أن أنضم إلى عمله, فهوه يعرف جيِّداً أنَّه سيكسب الكثير إن وافقت على العمل معه".

قال أمجد بغضب: "تقصدي إن أصبحتِ عاهرة".

أومأت رحاب برأسها ووضعت وجهها في الأرض.

قال أمجد: "اكملي".

أتبعت رحاب: "هذا كل شيء. لم يعود عُرابي بالتسجيل. وأخبرني أنَّهما قتلا راضي, واتفقنا كلانا, أنا وعُرابي, ألا نخبر أحداً بهذا".

فقال أمجد: "أنتِ أردتِ عُرابي أن يُسجِّل ما سيحدث في للدكتور راضي, حتي تستخدمي شريط الفيديو في مساومة فتحي الجحش على الشِّيكات".

أومأت رحاب برأسه وقالت: "بلى".

سأل أمجد: "وما هو الخلاف الذي قد يدفع هاني لِقتل راضي؟"

قالت رحاب: "أقسم لك أني لا أعرف. لكني أعرف مَن يعرف".

سأل أمجد على الفور: "مَن؟"

أجابة رحاب: "ياسمين".

"ياسمين؟"

"بلى. أنا متأكِّدة أن الموضوع برمته يتمحور حول ياسمين, ما عرفته فيما بعد أن راضي كان يُحِبُّ ياسمين, رغم أنَّه كان يكبرها سناً بكثير".

خمَّن أمجد: "يمكن أن يكون هاني هو الآخر يُحِبُّ ياسمين, فنشأ صراع بينهما؟"

قالت رحاب: "رُبَّمَا". وجذبت كتفيها إلى أعلى.

قال أمجد بصوتاً هامساً لم تسمعه رحاب: "ألهذا يدعونها النَّداهة".

في تلك اللَّحظة, سُمِعَ صوت والدة رحاب تأن بصوتاً واهناً. فهرعت رحاب إلى والدتها, ومِن خلفها أمجد. صرخت أسماء عندما علمت أن أمجد يعمل في المَصَحَّة وأخبرته أن

يخرج مِن هُنا ولا يعود مرَّة أخرى. حاولت رحاب أن تُهدِّأ أمّها, لكن أمجد لم يتردَّد كثيراً وخرج مِن الشَّقَّة ونزل إلى سيَّارته التي قادها مُسرعاً إلى الشَّارع الخلفيّ للمَصَحَّة. تَرَجَّلَ مِن السَّيَّارة وبحث عن ياسمين. لكنه لم يجدها. نظر في ساعته إنَّها الرَّابعة والنِّصف صباحاً. تبقَّى حوالي ساعة على آذان الفجر. لم يرغب أمجد في العودة إلى شَقَّته, وظلَّ يدور بسيَّارته في محيط المنطقة, حَتَّى خرج رويداً رويداً إلى الطَّريق المفتوح, وظلَّ يقود السَّيَّارة بسرعة فائقة ذهاباً وإياباً في الطَّريق السَّريع الذي كان خالياً تماماً مِن أيّ سيَّارات.

الفصل الثَّالِث عشر.

المُوْت:

الأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ.

قضى أمجد ساعتين تامتين مِن القِيَادة المُتَهوِّرة. قطع عشرات الأحياء. حاوية سيَّارته ممتلئة. توقَّف للتزوُّد بالوقود مرَّتَين دون داعٍ. يدعس عِظام الأسفلت أسفل عجلات سيَّارته الأربعة. ترتطم أضواء المصابيح بوجهه. يتذكَّر كل إخفاقاته طيلة حياته. يُفكِّر في كل الفرص التي كانت سانحة إليه, لكنه لم ينتهزها, حَتَّى انتهى به المطاف في مَصَحَّة عفنة, كل مَن فيها إمَّا مُختلاً عقليَّاً وإمَّا قاتلاً بارداً. يدعس دوَّاسة الوقود أسفل قدمه اليمنى. لقد سأم الهرب. يريد أن يصل سريعا. *يصل إلى أين؟* لاح أمامه الضُّوء الأول للصباح. خيطاً رفيعاً وواهناً. ضوء بلا شمس. رياح عاتية بلا عاصفة. يحاول أن يتخذ قراراً. لكنه لا يعرف بشأن ماذا يجب عليه أن يتخذ ذاك القرار. اللَّعنة, ما هذه؟ زجاجة فودكا id؟ ما الذي جلب زجاجة الخمر تلك إلى يده؟ كيف وجدت تلك الزُّجاجة طريقها إليه! ألقى الزُّجاجة بعنف مِن السَّيَّارة وهي تهرول كالمعتوهة. يصب وجهه عرقاً رغم الهواء الذي أشنج عضلات وجهه. ظهره مثلجٍ وصدره جمراً مُلتهباً. دقات قلبه تتزايد. يريد أن ينتقم. لكن مِن مَن؟ لا يدري. مِن رجب؟ رُبَمَا! أَمْ رُبَّمَا مِن كاظم وفتات الطَّعَام

الذي يندفع مِن فاهه؟ مِن والدته التي قضت آخر عشرة سنوات في الشِّجار معه؟ أَمْ مِن ياسمين التي تُخفي عنه ما تخفيه؟ رُبَّمَا مِن نفسه! رُبَّمَا لم يكره نفسه بما يكفي؟! السَّيَّارة مُنطلقة. الطَّريق واسعاً وخالياً. ضوء السَّيَّارة يلمع في الخطوط البيضاء على الأسفلت الأسود. وعمود دخان أبيض خفيف يرتفع مِن بين أصابعه. اللَّعنة مُجَدَّداً, إنَّها سيجارة! كيف شقت هذه السِّيجارة طريقها إلى أصابعه؟ هُناك عُلبة كاملة تستريح بِحُرِّيَّة على المقعد المجاور إليه. لا بُدَّ أنَّه اشتراها مِن محطة الوقود عندما وقف للتزوُّد بالوقود دون داعٍ, وأخبره عامل المحطة أن حاويته ممتلئة بالفعل. ألقى السِّيجارة مِن النَّافذة. هُناك بجانب أعمدة الكهرباء الخشبيَّة التي لا تُعد ولا تُحصى, أعمد تسير مُندفعة إلى الخلف بلا توقُّف أو إرهاق ولا حَتَّى نهاية. ما نفع تلك الآَمنفعة؟ وفجأت تذكَّر ياسمين. سَمِعَ صوتها وهي تصرخ: *"ليس السَّرير الذي أُغتصبت عليه"*. فزاد- دون شعور- مِن سرعة السَّيَّارة. السَّيَّارة تصرخ هلعاً, والرِّياح تعوي رجفاً, قبضتى يداه تقويا على مقود السَّيَّارة عصراً. يبلع ريقه بغُصَّة وألماً, هُناك ما يُعيق بلعومه, لا بُدَّ أنَّها حرارة الـ id

قد خدشت جدران حنجرته. ألماً يصرخ في معدته, فيدعس دوَّاسة الوقود. ولم يعدله عن هرولته الحانقة تلك إلا رنين هاتفه.

(أمّي يتصل بك...)

أوقف أمجد السَّيَّارة في قارعة الطَّريق. زفر الهواء سريعاً وقويَّاً مِن صدره. التقط أنفاساً تقطَّعت بها السُّبل فأعياها التَّهدُّل. تناول هاتفه. ضغط على زِرِّ الرَّد, وقال: "مرحباً...".

صوت أمّه في الهاتف: "صباح الخير".

سأل أمجد: "ماذا هُناك يا أمّي؟ هل أنتِ بخير؟" وبدت نبرته مُشَوَّبةً بشيء كثيراً مِن الهلع.

أجابت أمّه بهدوء: "لا شيء يا أمجد. لقد صلَّيتُ الفجر وأردتُ أن أطمئن عليك لا أكثر". ثُمَّ سألت: "هل صَلَّيتَ الفجر؟"

تنهَّد أمجد وأجاب: "بلى... بلى صَلَّيتُ..." ثُمَّ صَمَتَ لِثانيتين وقال على عجل: "لا. لقد نسيتُ".

سألت الأم: "هل أنتَ بخير يا أمجد؟ صوتُكَ وكأنَّكَ كنتَ ترمح في سِباقٍ للعَدْو!"

أجاب: "بلى يا أمّي. أنا بخير. فقط ضغط العمل والإرهاق".

هدَّأته أمّه وقالت: "لا تقسو على نفسك يا ولدي, سلِّم الأمر لله".

سأل أمجد: "هل إيهاب بخير؟"

أجابت: "بلى. إيهاب بخير. لقد وصل لِتوه مِن المسجد".

سأل أمجد عن دون قصد: "المسجد؟!"

أجابت أمّه وهي تضحك: "نعم نعم. لا تخش شيئاً. لقد شاهدته بنفسي وهو يخرج مِن باب المسجد المواجه لِمنزلنا".

تنهَّد أمجد وكأنَّه أراد أن يضحك: "أمَا زلتِ تختلسين النَّظر مِن خلف النَّافذة؟"

سألت الأم سؤال تقرير: "هل لديَّ مَن هُما أهمَّ مِنكُما حَتَّى أختلس عليهما النَّظر؟"

قال أمجد على الفور: "أنتِ يا أمّي. أنتِ أهمَّ مِنَّا كلانا".

أنهى أمجد مكالمته الهاتفيَّة, التي أراحته مِن قيظه بعض الشَّيء, وبدأ يشعر بهدوء مِن حوله, حَتَّى أنَّه سَمِعَ صوت

طنين الصَّمت مُدَوِّياً. وعندما أدرك ضوء الشَّمس انطلق مُسرعاً باتجاه المَصَحَّة.

طلَّق أمجد الخِمول. تدور في مخيلته آلالاف الأسئلة. حديقة المَصَحَّة خاوية تماماً إلا مِن حفيف الأشجار, وأصوات الطُّيور المُختلفة, وكهلاً يقف بعيداً, مُمسكاً ببلطة حمراء في يده اليسرى, يتلفَّت النَّظر يميناً ويساراً. لم يأبه له أمجد ودخل المَصَحَّة مُسرعاً. إنَّها الثَّامنة صباحاً. لا تزال المَصَحَّة في سُبَاتِهَا. نَظَرَ أمجد مِن خلف نافذة عنبر الرِّجال. بعضهم يتجوَّلون بِحُرِّيَّة بين الأسِرَّة. عندما لمحه رجب هرع إلى زاوية العنبر ووقف فيها ووجه للزاوية. اقترب مِنه عوض العارِف. عندها لمح أمجد لمعة خفيفة في عينيّ العارِف, لم يرْ تلك اللَّمعة في عينيه مِن قبل وتقريباً لم تبرق عيناه بتلك اللَّمعة قط, بدا واعياً, غير مُتخبِّطاً, وغير مغيَّباً. اقترب العارِف للغاية مِن النَّافذة, يداه ترتعشان, فخذيه بالكاد يحملاه. وفجأة... توقَّف. تصلَّب. تجمَّدت العضلات في جسده. تخثَّرت الدِّماء في عروقه. خطى خطوتين إلى الخلف ثُمَّ هرع إلى السَّرير وجلس بجانبه على الأرضيَّة مُتخفِّياً خلفه وكأنّه رأى ملك الموت.

وقف أمجد فاغر الفم بعض الشَّيء, عيناه تتسائلان باهتمام عن ما حدث لِتوه. ثُمَّ استدار للخلف, وفُزِعَ عندما رأى هاني مطر يقف خلفه, بقامته الطَّويلة العريضة, وشفتاه اللاتان أكلتهما الفودكا والبيرة الرَّخيصة المحليَّة, وقد صبغهما تبغ الغليون بالأسود الدَّاكن. يزفر الهواء مِن أنفه كالثور. وتفوح مِن فاه رائحة الخمر الممزوجة بالغضب. عيناه حمروان. وتبدو عليه مظاهر العربدة للغاية. فسألهُ أمجد: "هل أنتَ تحت تأثير المشروب؟"

سأل هاني بنبرته الغليظة: "ما الذي تفعله هُنا؟"

قال أمجد: "لا شيء. أنا فقط كنتُ - - - ".

عندها قاطعته إحدى الممرِّضات, التي وصلت لِتوها إلى المَصَحَّة: "صباح الخير". ثُمَّ التفتت إلى دكتور هاني وقالت: "باقي ساعتين على جلستيّ الكهرباء. هل أبدأ بالتحضيرات الآن؟"

سأل أمجد: "جلستيّ كهرباء! لِمَن هاتان الجلستان؟"

أجابت الممرِّضة وهي تنظر في المَلَف الكبير في يدها اليمنى: "النَّزيل أحمد الحيثي... والنَّزيل غالي سعيد غالي".

فأضاف هاني: "وعوض العارِف".

فحصت الممرِّضة المَلَف في يدها مُجَدَّداً وقالت: "لا. عوض العارِف لديه جلسة في الغد مع الآنسة ياسمين محمود العربي".

فصرخ فيها هاني: "هل أنتِ طبيبة أَمْ ممرِّضة؟ جلسة المخبول اليوم. اليوم ثلاث جلسات. أوَّلهم جلسة عوض العارِف. والآن انصرفي".

انصرفت الممرِّضة باستياء.

اِنتظرَ أمجد الممرِّضة حَتَّى بعُدت ثُمَّ سأل بوجهٍ أصم: "متى وُضِعَتْ ياسمين على جدول الجلسات الكهربائيَّة؟ لقد أخبرتكم أن حالتها الصِّحيَّة لن تتحمَّل صدماتكم الغبيَّة تلك".

عندها غضب هاني وقال برزاز الماء وبقايا الفودكا تندفع مِن فاهه: "اِلزمْ حدود مهنتُك أيُّها الطَّبيب".

قال أمجد بنبرة أكثر غضباً: "هذه ليست حدود مهنتي, بل إنَّها لُبُّ مهنتي".

فقال هاني: "لقد عرفتُ منذ رأيتُك أنَّك ستكون عبئاً على المَصَحَّة وأنَّك ستعرِّض صفو عملنا للخطر والتَّدهور".

خرج عَمّ صابر مِن غرفته مفزوعاً, عندما سَمِعَ صوت الشِّجار يرتفع للغاية بين الرَّجُلان, هرع إليهما وجذب أمجد وخرج به إلى الحديقة.

جذب أمجد ذراعه مِن بيد يداي عَمّ صابر الحاكمتان. وخرج مِن الحديقة دَلِفاً في سيَّارته التي اِنطلقَ بها مُسرِعَاً مرَّة أخرى. في تلك اللَّحظة دخل كاظم الحديقة فوجد العَمّ صابر مُجعَّداً الوجه, جازِ الأسنان, فسأله: "ماذا هُناك يا عَمّ صابر؟ لماذا خرج أمجد غاضباً هكذا؟"

لم يجبه عَمّ صابر ودخل إلى المَصَحَّة والدِّماء تغلي في عروقه!

نظر كاظم يميناً ويساراً. لا أحد سوى الحاج أحمد يقف بعيداً في منأى عمَّا يحدث في المَصَحَّة, وتقريباً في منأى عمَّا يحدث مِن حوله في العالَم بأسره. فسار إليه كاظم رويداً رويداً. جسده البدين يحول بينه وبين السَّير بسلاسة بين أغصان الأشجار المقطوعة, وأثناء بذله المجهود المُضني للعبور, لاحظ الحاج أحمد الأعرج يسير إلى خلف المَصَحَّة وبيده اليسرى بلطة حمراء طويلة, والتي لم يسبق أن رآها مِن قبل. فنادى عليه بصوتاً مبحوحاً مُصاباً بغِلظ وخشونة

مِن داءٍ الخمر أو رُبَّمَا بسبب كثرة الصِّياح كأنَّه يتصنَّع الغِناء الحَشرَجِيّ: "يا حاج أحمد. يا حاج أحمد. اِنتظرْ".

لكن لا حياة لِمن تُنادي. مضى الكهل في طريقه إلى خلف المَصَحَّة وكأنّه أصم, يجر البلطة بصعوبة وكأنَّه يسير في عزاء.

لم يَجِدْ كاظم جدوى مِن اقتفاء أثر الكهل, كما أنَّه سيبذل مجهوداً ويُصاب بالتعرُّق بلا طائل, فوقف في مكانه قرابة الخمس دقائق حَتَّى أنهى سيجارته, وعندما تأخَّر الحاج أحمد مِن العودة, قرَّر كاظم أن يرجع إلى بوابة المَصَحَّة. وعندما عاد كاظم إلى البوابة الرَّئيسيّة, وجد أمجد يَتَرَجَّلَ مِن سيَّارته ويغلق باب السَّيَّارة خلفه بهدوء ورصانة شديدين. وكأنّه لم ينطلق منذ بضعة دقائق وهو قاضب الوجه مُنتفخ الأوداج! ذهب إليه كاظم وسأله في اهتمام وفضول: "ما الذي حدث؟ لماذا خرجتَ منذ قليل وأنتَ غاضب؟"

أجاب أمجد في برود تام: "لا شيء... في الحقيقة لقد نشب شجار بيني وبين هاني مطر".

سأل كاظم: "شجار بخصوص ماذا؟"

أجاب أمجد بنفس نبرة البرود: "بشأن جلسات الكهرباء المُخصَّصة إلى ياسمين".

لم يَجِدْ كاظم ما يقوله, فَصَمَتَ.

دخلا كلاهما إلى المَصَحَّة في هدوء. دخل كاظم إلى غرفة الأطباء. طرق أمجد باب المدير. فَسُمِعَ صوت هاني مطر مِن داخل مكتبه: "اِدخلْ".

دخل أمجد بهدوء. كانت هُناك إحدى الممرِّضات, تتحدَّث مع هاني مطر, فوقف أمجد في منتصف الغرفة إلى أن أشار إليه هاني أن يجلس, لكنه فضَّل الوقوف في البداية, وعندما طال الحديث بين هاني والممرِّضة, اضطرَّ أمجد أن يجلس على أحد المقاعد المُهْتَرِئة. ظلَّ أمجد يقفز بعيناه بين السَّرير ذو القوائم الحَديدِيَّة الأربعة, والدَّلافين التي تُزِّينه - - - إلا أنَّها, في الحقيقة, تُضفي عليها طابعاً مِن التَّشاؤم وتلبسها رِداءٍ مِن الغموض, وبين الصُّورة القديمة التي تعلوه.

جذبت الصُّورة اهتمام أمجد المُفرط, حَتَّى أنَّه غاب فيها وبدأ يتخيَّل العلاقة بين الرِّجال المبتسمين بتكلّف ومُغالاة. فنهض مِن مقعده واقترب مِن الصُّورة ووقف جامداً يُحدِّق في ابتسامة عوض العارِف, الذي أصبح اليوم نزيلاً, وبدرت

في مخيِّلته أسئلة, كيف للدكتور هاني مطر الذي يضع ذراعه حول عوض العارِف بصورة حميميَّة هكذا, أن يتحوَّل مع الوقت إلى بعبع يخافه النَّزيل عوض العارِف إلى هذه الدَّرجة!! ومَن هذا الآخر الذي يلف ذراعه حول كتفي هاني مطر؟ وما هذا االمبنى الأبيض الضَّارب إلى الصُّفرَة في خلفيَّة الصُّورة؟

طال الانتظار, وبدأت قدماه في القرص. التفَّ أمجد إلى هاني وقال: "هل آتي إليك في وقت لاحق؟"

أسرع هاني مطر: "لا. لقد انتهيتُ. تفضَّل بالجلوس. انتظرني لثوانٍ معدودة أيُّها الطَّبيب".

جلس أمجد على المقعد الخشبيّ أمام المكتب. خرجت الممرِّضة في صَمْتٍ على غير رغبة, وكأنَّها أرادت أن تستمع إليهما. فتحدَّث أمجد على الفور ودون مُقدِّمَات: "دكتور هاني. أنتَ محق فيما قلته. أنا لا أصلح لأن أعمل في هذه المَصَحَّة. لذلك... لذلك, أنا أقدِّم إليك استقالتي". وأخرج ورقة مطويَّة مِن جيب قميصه ووضعها أمام هاني مطر.

قال هاني دون أن يفتح الورقة أو حَتَّى يلمسها: "لم أنتوي أن تفعل ذلك يا أمجد. أنتَ طبيب جيِّد للغاية. لكن هُناك أمور لا يمكنك أن تفهمها في عملنا نحن الأطباء النَّفسيّين".

أومأ أمجد برأسه: "بلى. بالتأكيد".

تناول هاني الورقة, فتحها, ونظر فيها لِثانيتين ثُمَّ طواها وناولها إلى أمجد مرَّة أخرى.

لم يأخذ أمجد الورقة وقال: "أظنُّ أنَّ الأمر سيكون أفضل على هذا النَّحو".

قال هاني: "لا بُدَّ أنَّكَ حسمتَ أمرك منذ فترة".

قال أمجد بابتسامة: "لا. صدِّقني, لقد اتخذتُ هذا القرار منذ عشرة دقائق, لا أكثر".

ناول هاني الورقة إلى أمجد مرَّة أخرى وقال: "فقط اِكملْ معنا هذا الشَّهر. وفي تلك الفترة يمكنك أن تُقرِّر- بُناءً على تفكير واضح, وبدون ضغوطات- إن كنُتَ ستستمر معنا أَمْ ستفعل ما تراه صواباً".

تناول أمجد الورقة وقال بابتسامة غير مُوارية بعثت على شيء مِن البلبلة غير المفهومة: "حسناً. أظنَّه سديدُ

الرَّأي". وبدأ في الخروج مِن مكتب المدير بهدوء, تماماً مثلما دخل مُسبقاً.

لقد علم أمجد بحق أن هذه الخطوة ستنتهي على هذا النَّحو بالتحديد, كان على يقين أن هاني مطر سوف يطلب تأجيل قبول الاستقالة, على الأقل لِمُدَّة أُسبوع حَتَّى يُرتِّب أمره لِعرض الوظيفة على طبيب بشريّ أخر. باقي أُسبوعين على انتهاء الشَّهر, اثنى عشر يوماً على وجه الدِّقة. وهو ما ظنَّه كافي تماماً لإماطة اللِّثام عن الحقيقة. بالرغم مِن نوبات الهذيان التي تُجثم عليه يقظاً مِن وقتاً إلى آخر, وبالرغم مِن الاضطرابات النَّفسيَّة التي راودته مؤخراً, إلا أنَّه يشعر الآن برزانة وصفاء ذهنيّ غريبين. وقف أمجد في الطُّرقة قليلاً, تقفز نظراته بين مكتب المدير في بداية الطُّرقة تارة وبين باب العنبر النِّسائيّ تارة أخرى. حَتَّى خرج العَمّ صابر مِن غرفته فوجد أمجد في الطُّرقة يتحدَّث مع إحدى الممرِّضات, فسار نحوه: "كيف الحال الآن يا دكتور أمجد؟"

قال أمجد بابتسامة رائجة لا تُزيِّنها تجاعيد حول العينين: "بخير. كيف حالك أنت؟"

ضحك العَمّ صابر: "حالي أنا؟"

"بلى. حالك أنت".

"بخير".

"دوماً ما حييتَ, إن شاء المولى".

"لماذا ينفلت زمامك بسرعة يا دكتور؟ أنتَ تتعصَّب لأتفه الأسباب".

سأل أمجد وهو يضحك: "أتفه الأسباب؟!"

"بلى. أتفه الأسباب".

أومأ أمجد برأسه وقال: "لا عليك يا عَمّ صابر. كل شيء على ما يرام".

اِبتسمَ العَمّ صابر ودخل مكتب المدير دون أن يدق الباب, ثُمَّ أغلقه خلفه بقوة. فسار أمجد ودخل مكتب الأطباء.

جلس العَمّ صابر على المقعد الخشبيّ أمام مكتب هاني مطر وسأل في حزم: "لماذا لم تقبل استقالته وَتَرِحْنَا مِن فضوله الزَّائِد عن حده هذا؟"

سأل هاني بغضب: "ألن تكفَّ عن التَّنصُّت عليَّ؟"

قال العَمّ صابر: "كان يجب أن تقبل استقالته".

وضع هاني ألبوم صور مِن يده وقال: "أنا لا أدري ما الذي يعرفه. أريد أن أتأكَّد أوَّلاً أنَّه لا يدري عنَّا شيئاً".

"إن كان على علم بشيء لكان بدا عليه".

"رُبَّمَا".

خبط العَمّ صابر بيده على المكتب وقال: "كان يجب أن تُرِيحَنَا مِنه".

"أتأكَّدُ أوَّلاً... وعلى أيّ حال, سوف يرحل أمجد في نهاية الشَّهر, أنا متأكِّد مِن هذا. هو لا يُحِبُّ العمل هُنا على أيّ حال".

فيما كان كاظم مشغول بترتيب أوراقه على المكتب, كان أمجد مُنهمكاً بشدة في التَّفكير, حَتَّى أعيته الحرارة وداهمت عيناه الإضاءة الواهِنة فخرج إلى الحديقة.

وقف أمجد قليلاً بالقرب مِن إحدى الشُّجيرات المُزهرة. كان مُرهَقاً ويشعر بالتعب, في حاجة ماسة إلى النَّوم. وبدأ تأثير المشروب يظهر على جفنيه. وقدماه لا تكادان تحملاه. أنامله باردة وزرقاء, فطواها في جيبيّ بنطاله, ثُمَّ جلس على أريكة خشبيَّة مُتداعية إلى حد ما. أسند رأسه إلى الخلف,

وظلَّ يُحدِّق بالسماء. وفجأة صَمَتَ كل ما حوله, توقَّفت أصوات السَّيَّارات في الطُّرقات, توقَّفت أصوات الممرِّضات وَالزُّوَّار, وتبقَّت أصوات الرِّياح وهي تمرُّ برفق بين أغصان الشَّجر والنَّخيل, وَيُسْمَع دَويَّاً خَفيفاً مُبْهماً ومُتّصِلًا. ثُمَّ صَمَتَ الدَّويّ, بقى الصَّمْتُ في أذنيه لا يشقه إلا صوت أنفاس ياسمين تخرج وتولج إلى صدرها العَطِرُ, لا يدري كم مِن الوقت ظلّ على هذه الحالة, لكنه وجد راحته على هذا النَّحو, حَتَّى صرخ عوض العارِف في غرفة الكهرباء, فانتفضَ أمجد فزعاً على المقعد الخشبيّ. كانت تلك المرَّة مختلفة تماماً عن المرَّات السَّابقة, انتابه شعور جديد وغريب في الوقت ذاته عندما سَمِعَ صوت إنسان يتعذَّب بالكهرباء, حَتَّى أنَّه لم يُفزع هكذا في المرَّة الأولى التي سَمِعَ فيها هذا الصُّراخ- لأول مرة- في تلك المَصَحَّة. عَرِفَ جيِّداً أنَّه سيسمع هذا الصَّوت غداً, لكن تلك المرَّة ياسمين هي التي سوف تصرخه. فنهض بزخم ودخل إلى المَصَحَّة قاصداً عنبر النِّساء.

كانت الطُّرقة شاغرة بالممرِّضات والعُمَّال والأطباء, لم يشغل أحداً له بالاً, فدلف سريعاً إلى عنبر النِّساء, كانت

إحدى الممرِّضات تجلس بجانب ياسمين لِتُعطيها الدَّواء.
وقف أمجد صامتاً, بعيداً بعض الشَّيء عن السَّرير الذي تجلس عليه ياسمين. لاحظ أمجد على الفور أن السَّرير مُرتَّباً, وبجانبه كومدينو حديديّ صغير, وعليه باقة مِن الورود داخل زُهْريَّة زجاجيَّة شَفَّافَة بها القليل جِدَّاً مِن الماء. فابتسمَ دون قصد.

لاحظت ياسمين بزاوية عينيها أنَّه يبتسم, فقالت إليه بعد أن تناولت دوائها: "ألم ترْ أحدهم يتناول دوائه مِن قبل؟"

خرجت الممرِّضة لِتتركهما يتحدَّثان وعلى وجهها ابتسامة تُريد أن ترتقي إلى ضحكة, وكأنَّها سعيدة بإخلاء الجو للعاشقَين!

قال أمجد عندما تأكَّدَ أن الممرِّضة خرجت: "لا. بل أنَّني لم أرْ ياسمينة تضع بجانبها باقة مِن الورود".

نظرت ياسمين إلى الباقة وصمتت.

اقتربَ مِنها أمجد حَتَّى يجلس بجانبها على السَّرير, لكنها نهضت سريعاً, فسأل أمجد وعلى وجهه ملامح الدَّهشة: "ماذا بكِ؟ ألا تريديني أن أجلس بجانبكِ؟"

قالت ياسمين وهي تُعيد للسرير استوائه: "لا. بل أنَّني لا أريد أن يتسخ السَّرير". ثُمَّ أشارت إلى منضدة حَديدِيَّة وبجانبها مقعد وكومدينو صغير استخدمته كمقعد! وعلى المنضدة زُهْرِيَّة مِن الفُخَّار الصِّينيّ مؤلوفة المنظر بالنسبة إلى أمجد, وقالت وهي تبتسم: "تعال لِنجلس على طاولة الاستقبال".

سأل أمجد وهو يضحك: "أنتِ فعلتي هذا؟ أنتِ نظَّفتِ ورتَّبتِ كل هذا؟"

قالت ياسمين بحياء وابتسامة أبدت ثغرين كأنَّهُما زهرتين, داعبتهما قطرات النَّدى فأينعتا عند مطلع الرَّبيع: "بلى أنا... وحدي".

فرفع أمجد حاجبه الأيسرى فيما بقى الأيمن مكانه.

ضحكت ياسمين وقالت في دلال: "لقد افتقدتُ ذاك الوجه كثيراً".

"أنا أيضاً افتقدتُ تلك الضِّحكة كثيراً".

"إذاً... لِهذا الأمر سترحل عني؟"

"ماذا؟"

"أنت. قدَّمتَ استقالتُك".

سأل بملامح الدَّهشة والحيرة تتكلَّفان المُبالغة على وجه الشَّاب السَّكندريّ: "كيف عرفتِ بأمر استقالتي؟"

ضحكت وقالت: "لا تخف هكذا. لقد أخبرتني الممرِّضة لا أكثر".

هدأت ملامح الحيرة عن وجه الطَّبيب الشَّاب وقال: "لا شيء يبقى سِرَّاً في هذه المَصَحَّة... على ما يبدو".

"ستتركني".

"لا".

"بلى. ستتركني".

"أقسم لكِ, أني لن أتركَكِ. تعالي معي".

صَمَتَتْ لثوانٍ. زفرت الهواء مِن أنفها. جلست على المقعد الحديديّ, ثُمَّ سألت: "أزلتَ ترغب في كوب شاي بالياسمين؟"

اِبتسمَ أمجد: "بلى".

"انتظرني اللَّيلة".

سأل في اهتمام: "بجانب شجرتُكِ؟"

أومأت برأسها برويَّة وقالت: "لا. بجانب شجرتنا".

في تلك اللَّحظة دخل كاظم إلى العنبر برفقة أحد الأطباء النَّفسيّين. وأخبرا ياسمين أن جلسات الكهرباء سوف تبدأ مِن الغد. الغريب في الأمر أن ياسمين لم تُمانِع, بل على العكس تماماً, تقبلَّت الخبر بمنتهى الاعتياديَّة. خرجا الطَّبيبين النَّفسيَّين. عاد أمجد وتحدَّث مع ياسمين عن أمر الجلسات الكهربائيِّة, لكنها آثرت أن تُبدِّل الموضوع بسؤال غريب, فسألت: "هل تعلم, أيُّها الطَّبيب, ما هو الفرق بين المُوتَين... الْمَوْتُ الأَبْيَضُ وَالْمَوْتُ الأَسْوَدُ؟"

انتاب أمجد شعور لم يُراوده منذ وقتاً طويلاً فسأل: "هل هذا اختبار؟"

أجابت ياسمين: "شيء كهذا".

"لم أفهم. ما الذي ترمين إليه؟"

كرَّرت ياسمين مُجَدَّداً: "ما هو الفرق بين المُوتيَن... الأَبْيَضُ والأَسْوَدُ؟"

ضحك أمجد ضحكة فِكاك مِن الارتباك والحيرة وقال: "لا أدري. لم أدرس اللُّغة مثلكِ".

قالت ياسمين: "مَن قال لا أدري فقد أفتى".

سأل أمجد: "وما هو الفرق بين المُوتَين؟"

أجابت ياسمين بعدما نظرت مليَّاً في عينيه وهي صامتة: "أمَّا الْمَوْتُ الأَبْيَضُ: فَهو زَوَالُ الْحَيَاةِ عَنِ الكَائِنِ طَبِيعِيَّاً أيّ بِبَسَاطة الْمَوْتُ الطَّبِيعِيُّ".

فسأل أمجد: "وماذا عن الْمَوْتُ الأَسْوَدُ؟"

أجابت ياسمين بجدِّيَّة تامة: "أمَّا الْمَوْتُ الأَسْوَدُ: فَهو زَوَالُ الْحَيَاةِ خَنْقاً".

فَهِمَ أمجد ما ترمي إليه ياسمين وقال: "حسناً. لقد كنتِ على حق". ثُمَّ اِقترب مِنها وقال بصوتاً هامساً للغاية كأنَّهُما تاجرين هروين: "لقد قُتِلَ راضي. قُتِلَ خَنْقاً بالمياه".

اقتربت ياسمين مِنه هي الأخرى وقالت بنبرة أكثر همساً ساخرةً مِن صوته الهامس: "فعلاً؟! هل أخبرَتك الفتاة الممحونة؟ جيِّد. أنتَ صدَّقتَ فتاة بغي ولم تُصدِّقني أنا".

غمغم أمجد ولم يدرْ ما يجب أن يقوله. فبادرت النَّداهة قائلة: "انتظرني اللَّيلة عند شجرتنا أيُّها الطَّبيب. حَتَّى أخبرك السِّرَّ الذي أخفيته عنك".

الفصل الرَّابِع عشر.

الْمَوْتُ الأَحْمَرُ:

زَوَالُ الْحَيَاةِ قَتْلاً.

اللَّيلُ, وَآنَائِه. الرَّبُّ, وَءَالاَئه. النَّهَارُ, وَأطرافِه. شَهْرٌ فات. شَهْرٌ آت, واللَّيلة: - - - تُزهق فيها الرَّوْحُ حَتَّى المَمَات. رَمَحَ الشَّاكون نَحْو الطَّبيب. يُطالِبون بالدَوَاءِ, تُرى أينفع الدَّوَاءُ أمَام القَضَاءِ. يَفِرُّ مِنهُم الحَشْدُ خِيفَةً, تُرى هل يُعْدِي الْمَوْتُ الجُبنَاءِ. إِنَّمَا نَحْنُ حَسْرَة, وَالْحَسْرَة اللَّيلة على فَنَاءِ. وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ.

بعدما حصل أمجد على حمَّامه البارد اليوميّ. ارتدى أكثر ملابسه أناقة. ونزل مِن شَقَّته قاصداً الشَّارع الخلفيّ للمَصَحَّة. لم يَقُدْ السَّيَّارة في تلك اللَّيلة, بل ذهب إلى هُناك سيراً على الأقدام. الجُّو لطيفٌ للغاية. السَّماءُ صافية على نحوٍ يبعث على الهدوء. إنَّه مُنتصف الشَّهر والقمر في بدر تمامه! لا أحد في الطُّرقات سوى العاشقين. ضوء القمر يمتزج مع أضواء المصابيح في الشَّوارع. الأجواء هادئة للغاية. إنَّها إحدى أفضل السَّاعات التي يُمكن لِطبيبٌ بشريّ أن يقضيها وحده في طُرقات القاهرة. وصل أمجد إلى الشَّارع الخلفيّ للمَصَحَّة. الشَّارع مُظلم... كعادته. نظر مِن خلف القضبان الحَديدِيَّة. لا يوجد أحد. يبدو أن ياسمين لم تشرق بعد. بدا إليه كل شيء اعتيادِيّاً. بدأ يتسلَّق القضبان

بهدوء, وأريحيَّة. قفز مِن فوق القضبان بسهولة ويُسر, لقد احترف هذا الأمر بالفعل. لا أحد بجانب شجيرة الياسمين. جلس بجانب الشُّجيرة مُمدَّداً رجليه على طبقة مِن الحشائش التي التفت حولها. مرَّت دقيقة, ودقيقة أخرى, ودقيقة أخرى. لا شيء. وفجأة سَمِعَ أمجد صوت أقدامٍ تقترب. لا بُدَّ أنَّها ياسمين. نهض حَتَّى يستقبلها, لكنه وقف مُتصلِّباً عندما وَجَدَ هاني مطر يقف مِن خلفه ولا تبدو مِن وجهه سوء تلك الأجزاء المُتهجِّمة, بدا وجهه كأنَّه منحوتة خشبيَّة جامدة, أتقنَ نَاحِتُهَا فبدت كالجماد أصابته روحاً شاردة.

قال أمجد ومقلتيه ثابتتين كأنَّهُما مسمارين: "دكتور هاني!"

سأله هاني بنبرة الاتهام: "ماذا تفعل هُنا أيُّها الطَّبيب؟"

أجاب أمجد بِحَشْرَجَة وتَرَدَّدَ صَوْتِهِ فِي حَلْقِهِ كأنَّها غرغرة الموت: "لا أفعل شيئاً".

"بل تفعل".

سأل أمجد بنفس النَّبرة لكن امتزجت بشيئاً كثيراً مِن إعيَاءُ الخوف: "ماذا أتى بك إلى هُنا في تلك السَّاعة؟"

خطى هاني مطر ثلاث خطوات إلى الأمام حَتَّى أصبح مُواجهاً إلى أمجد بالضبط, ثُمَّ قال بغِلْظة وفوران كأنَّه الجُشَاءُ: "أنا مَن يسأل هُنا". ثُمَّ زفر الهواء مِن فاهه وأتبع: "كنتُ أعلم أنَّك كالرياح تَذِرْ الرَّماد مِن فوق النِّيران".

سأل أمجد: "عن أيّ نيران تتحدَّث؟"

جَذَبَ هاني ذِراع أمجد بعنف وغِلظة شديدتين وسحبهُ خلفهِ سيراً نحو البوابة الرَّئيسيّة للمَصَحَّة, ولم ينتبه إلى غمغمات أمجد المُتكرِّرة. كان هاني مطر طويل كالعامود, أسود كالفحم, قويٌّ كالثور, يجذب أمجد خلفه كالنعجة التي شردت عن القطيع. حَتَّى وصلا كلاهُما إلى البوابة الرَّئيسيّة للمَصَحَّة. كانت البوابة مفتوحة على مصرعايها. عادل وهيمة في مكانهُما. لم يندهش الرَّجُلان مِن ذاك المنظر, بل وضعا وجهيهما في الأرض خجلاً مما يُعرض أمامهما مِن هُراء. عَرِفَ أمجد أنَّهُما تماماً مثل هاني مطر, كانوا جميعاً على عِلْم بزيارته تلك, والجميع انتظره هذه اللَّيلة بشغف ولـهِيبٌ على جَمْر.

دَفَعَ هاني مطر, الطَّبيب أمجد, بكلتى يداه إلى داخل المَصَحَّة. كانت أضواء المصابيح قويَّة خارج المَصَحَّة, وكان الضَّوء خافت في داخل الطُّرقة الكبيرة. فأخذ أمجد عِدة ثواني حتى اعتادت عيناه على تلك الظُّلمة. وما أن بدأ أمجد يُدرك مكانه ومَن حوله, أدرك أوَّل ما أدرك عينيّ العَمّ صابر حمروان كالدم. ومِن خلفه يقف الحاج أحمد الأعرج ليس ببعيد. دُفِعَ أمجد مُجَدَّداً في ظهره. فاستدار إلى هاني وقال إليه بغضب: "لا تلمسني. إن لمستني مرَّة أخرى سأكسر لك يداك".

فدفعه هاني مرَّة أخرى لكن في صدره.

اِنفعلَ أمجد وبدأ يصرخ في الجميع. دلف كل مِن عادل وهيمة إلى داخل المَصَحَّة, لِيُشاهدا الشِّجار. تتطاير الاتهامات والأسئلة بين الجميع. كلمات حادة كالرصاص تخرج مِن الأفواه مع رزاز اللُّعَاب.

"أنتَ قاتل".

"ما الذي جلبك إلى هُنا في تلك السَّاعَة؟"

"هذا ليس شأنك".

"أنتَ ساذج".

"وأنتَ مُغْتَصِب".

"وأنتَ خائن".

"وأنتَ شيطان".

"ماذا بينك وبين النَّداهة؟"

"لا تنعتها بهذا الاسم".

"أنتَ أحمق".

"وأنتَ قاتل".

بدأت المُشادات الكلاميَّة تتحوَّل إلى نغزات ولطمات. الجميع على شف الهاوية. قد ينفجر شجار عنيف في أيّ لحظة. بدا الأمر إلى أمجد كأنَّه قربان لا أكثر, وقد سقط فجأة فالتفت السَّكاكين مِن حوله, مسكينة تلك النَّعجة.

سأل هاني مطر بعنف وصوت قويٍّ كالمطرقة الثَّقيلة: "ما الذي جاء بك إلى هُنا اللَّيلة؟"

قال أمجد بنبرة ليست أقل عُنفاً: "سأجيبك إن أجبتني أنتَ أوَّلاً".

بدت الصَّفقة عادلة إلى هاني مطر, فأشار إلى العَمّ صابر أن يصمت, ثُمَّ قال: "حسناً. لعبة جيِّدة. سل".

قال أمجد وقد هدأت نبرته بعض الشَّيء: "إنَّها ليست لعبة... كيف عرفت أنَّني سآتي إلى المَصَحَّة ليلاً؟"

سأل هاني: "إن أجبتك, هل ستخبرني ما أريد؟"

أجاب أمجد: "بلى".

قال هاني: "أخبرتني إحدى الممرِّضات أنَّك ستقابل النَّداهية اللَّيلة بجانب الشَّجيرة".

سأل أمجد: "مَن هي تلك الممرِّضة؟"

قال هاني: "لا. حان دوري وسؤالي. ما الذي بينك وبين النَّداهية؟"

صرخ أمجد: "قلتُ إليك لا تنعتها بهذا الاسم".

صرخ هاني: "ما الذي بينك وبينها؟"

قال أمجد: "أُحِبُّهَا".

ضحك هاني مطر, وضحك العَمّ صابر مِن خلف ظهر أمجد.

عندها غضب أمجد, وسأل: "مَن تلك الممرِّضة؟"

مسح هاني ذقنه بيده وقال: "إنَّها حبيبتُك الثَّانية. رانيا الواشي. إن حبيباتُك كُثر على ما يبدو, هل جميع حبيباتُك يفتحن لكَ رجليهن دائماً على نحو اليُسر هكذا؟".

صرخ أمجد مُجَدَّداً وصرخ هاني مطر هو الآخر. عاد الشِّجار مرَّة أخرى في الاشتعال. عادل وهيمة يقفان ثابتين. يتفرَّجان مِن بعيد لا أكثر. الحاج أحمد الأعرج يُحاول أن يُهدِّأ أمجد. العَمّ صابر و هاني مطر يُمطران أمجد بالأسئلة والأخير يُمطرهما بالاتهامات. صخبٌ شديدٌ. حالة مِن الفوضى العَارِمة. لا أحد منهم يسمع إلا صوته. حَتَّى صرخت النَّداهة مِن آخر الطُّرقة المُظلمة. فسكتوا جميعاً. هرول أمجد إلى آخر الطُّرقة ومِن خلفه الجميع. باب عنبر النِّساء مفتوح. نظر في العنبر. ياسمين ليست هُناك. صرخت ياسمين مُجَدَّداً. الصَّوت يصدر مِن داخل غرفة الحجز الانفراديّ. هرع أمجد نحو باب الغرفة الحديديّ السَّميك. حاول عبثاً أن يفتحه. لكنه كان مُصداً. طلب المِفتاح. لم يُعطى. بدأ يفقد أعصابه. نادى على ياسمين: "ياسمين. ياسمين. ياسمين".

صوتها ضعيف.

الصَّخب حوله مرتفع.

توجَّه أمجد بالسؤال إلى ياسمين: "ياسمين. اخبريني. ما هو السِّرُّ؟"

قالت ياسمين شيئاً ما لم يسمعه أمجد جيّداً بسبب الرِّجال الذين يحولون بينه وبين سماع صوتها.

بالصراخ... سأل أمجد مُجَدَّداً: "أرجوكِ يا ياسمين. اخبريني. ما هو السِّرُّ؟"

قالت ياسمين نفس الجملة التي لم يُميِّز مِنها أمجد سوى "رأس السَّنة". فأدرك أمجد أنَّها تتحدَّث عن حادثة اغتصاب أمّها. لكن زاد صخب الرِّجال خارج غرفة الحجز. وبدأوا يجذبوه بعيداً. فكرَّر أمجد سؤاله: "ما هو السِّرُّ؟"

قالت ياسمين نفس الجملة. لكن الرِّجال كانوا قد أبعدوا أمجد عن الغرفة. قام هاني مطر بطرد أمجد خارج المَصَحَّة. وأمر عادل وهيمة ألا يسمحان إليه بدخول المَصَحَّة تحت أيّ ظرف. وقال هاني مطر إلى أمجد أن عقده قد انتهى. وهدَّده بغلظة وغضب شديدين: "اذهب مِن هُنا. ولا تعد أبداً. وإلا قتلتُك".

ذهب أمجد رغم عنه إلى شَقَّته. حضَّر حقيبة ملابسه. وضعها في سيَّارته. اتصل بعُرابي وأخبره أن يُلاقيه عند منزل رحاب بعد ثلاث ساعات.

وبالفعل, بعد ثلاث ساعات, وصل أمجد بسيَّارته أمام منزل رحاب. تَرَجَّلَ مِن السَّيَّارة. ووقف ينتظر عُرابي. مرَّت ساعة كاملة مِن الانتظار الحار. حاول فيها أمجد أن يتصل بعُرابي أكثر مِن مرَّة لكن كان هاتف عُرابي مغلق. في النِّهاية لم يَجِدْ أمجد سبيل سوى الصُّعود إلى شقة رحاب دون عُرابي. طرق أمجد الباب. لم يُجاب. طرق مُجَدَّداً بقوة. لم يُجاب كذلك. بدأ الشَّك يتسلَّل إلى قلب أمجد. طرق الباب بقوة أكبر وظلَّ يطرق حتى خرجت إليه سيِّدة مِن الشَّقَّة المُجاورة وأخبرته أن سيَّارتة الإسعاف قامت بنقل مدام سعاد إلى المشفى الوطنيّ. إنَّه المشفى الذي قصده أمجد مِن قبل. نفس المشفى الذي نُقِلَ إليه راضي. وهو المشفى ذاته الذي أنقذ حياة مدام عِصمت بعد عملية الاغتصاب في ليلة رأس السَّنة.

نزل أمجد الدَّرج بسرعة. دلف إلى سيَّارته وقادها نحو المشفى الوطنيّ. ما أن وطأت قدمه بوابة المشفى الرَّئيسيَّة, اصطدم بإحدى الممرِّضات التي كانت تهرول نحو مريض آخر يبدو عليه التَّعب والإرهاق... والجنون. يصرخ المريض بعصبيَّة وقِلَّة حِيلة: "فُتنة. يا فُتنة. دعيني وشأني أيَّتها الحقيرة. أخرجوني مِن هذا الكابوس". لم يهتم أمجد بهذا

المريض كثيراً قدر ما اهتمَّتْ به الممرِّضات ورجال الأمن. سار أمجد نحو الاستقبال. سأل الموظَّفة: "سيِّدتي. هل السَّيِّدة سعاد هُنا؟ لا بُدَّ أنَّها وصلت منذ أربعة ساعات على أقل تقدير؟"

سألت الموظفة: "مَن أنت؟"

"أنا طبيب بشريّ. كنتُ أتابع حالة السَّيِّدة سعاد. إنَّها مصابة بالسرطان... سرطان في المخ".

أومأت الموظَّفة رأسها وقالت بعد أن فحصت جهاز كومبيوتر محمول أمامها: "بلى. لقد وصلت سيِّدة تُدعى سعاد. إنَّها في العناية المركَّزة في الطَّابق الثَّاني".

تجاهل أمجد المصعد وآثر الصُّعود على الدَّرج. وأثناء هرولته على الدَّرج رأى فتح الجحش وهو ينزل. مَرَّ الرَّجُلان بجانب بهضهما البعض. لم يتعرَّف فتح الجحش على أمجد. لكن أمجد عرفه. ما أن وصل أمجد إلى العناية المركّزة, وجد رحاب جالسة على مقعد حديديّ تبكي أمّها. ويقف بجانبها عُرابي ويده على كتفها يُواسيها. أسرع عُرابي نحو أمجد وأخبره أن السَّيِّدة سعاد قضت نحبها وأن طاقم التمريض نقلها إلى غرفة أخرى. اِقتربَ أمجد مِن الفتاة التي بلَّلت

دُمُوعها الأرضيَّة الرُّخاميَّة. ما أن رأته رحاب قفزت نحو حضنه, ألقت بنفسها في صدره وزاد بكائها حسرة وألماً. تنهيدات وشهقات وغُصَّة روح. تنهمر مِن عينيها الكثير مِن الدُّمُوع السَّاخنة, وحشرجة صوتها النَّاتجة عن ضِيق التَّنفُّس, وضعها يُرثى له, وقد أبدت دُمُوعها الحقيقة الكاملة, حقيقة أن لا خير في حياة. ولا يجب أن تُضع ثقة في زمان. شيء ما غريب, دفع أمجد لأن يحتضنها بكثيراً مِن الود والرَّحمة, هو نفسه لا يدري لِمَ أقدم على هذا الفعل, في النِّهاية, وحَتَّى يُريح ضميره, إدعى إلى نفسه أنَّه حضنها مِن باب الشَّفقة, إلا أنَّ أمر الشَّفقة تلك كانت مُشابة بشيء آخر, هو نفسه لا يعرفه, رُبَّمَا لأنَّه لم يحتضن فتاة جامحة كتلك مِن قبل؟ أَمْ هو مُجَرَّد إشفاق على فتاة يتيمة فقدت أمّها لِتوها؟ لم يُفكِّر كثيراً. وآثر أن يعيش لحظته على أنَّها لحظة مُقتطعة مِن تاريخ حياته. لم يفصلهما عن بعضهما البعض إلا يد عُرابي قائلاً: "لقد بدأ طاقم التَّمريض والأشخاص يلتفتون إلينا. اِبتعدْا عن بعضكما البعض!"

اِبتعدَ أمجد عنها بعض الشَّيء لكنه ظلَّ يمسكها مِن كتفيها, فيما كانت رحاب راغبة في الغوص مُجَدَّداً بين

أضلاعه, رُبَّمَا أنَّها وجدت ملازها الآمن هُناك, أَمْ رُبَّمَا تُريد أن تستمد شيء مِن العزاء, أو شيئاً ولو قليلاً مِن القوَّة... مِن رجولته!

سأل أمجد: "أين نُقلت؟"

أجابت رحاب وهي تجلس على المقعد الحديديّ: "لا أدري. أرجوك ساعدنا. لا بُدَّ أنَّك تعرف أين تُنقل الـ... فقط ساعدني", ثُمَّ وضعت رأسها بين قدميها وشرعت في البُكاء مرَّة أخرى.

بحكم كونه طبيب. استطاع أمجد سريعاً أن يعرف عن طريق إحدى الممرِّضات التي وجدته وَسِيمَاً, أين مكان جثَّة السيِّدة سعاد. كما أنّه استطاع أن يُخرج شهادة الوفاة وتصريح الدَّفن مِن مكتب الصِّحة المُختص. ونُقلت الجثَّة إلى محل إقامتها لإتمام إجراءات الغُسل والدَّفن.

بعد حوالي خمس ساعات تقريباً, كانت الأمانة مُجهَّزة للوداع. لا أقارب. لا أصدقاء. فقط ديَّانة. وبالطبع على رأسهم الخنزير فتحي الجحش. دُفِنَتْ عند صلاة الظهر. دُفِنَتْ سريعاً. وانفضَّ الأمر سريعاً. عادت رحاب إلى منزلها خالية. لا عزاء. لا سُرادِق. لا بُكاء. كأنَّ شيء لم يكن. دلفت الفتاة

إلى شَقَّتها. أغلقت الباب خلفها. وما استدارت سَمِعَتْ صوت طرق خفيف على الباب. استدارت وفتحت. دلف أمجد بهدوء.

"البقاء لله".

"بلى. لقد قِيل لي هذا".

"كيف حالكِ الآن؟"

"كحال الفَاقِد لِروحه".

"كفى دُمُوعاً".

"كم تبقَّى؟ ومَن تبقَّى؟ حَتَّى تُخبرني أن أكفَّ؟"

"تبقَّى شبابُكِ, حُسنُكِ, روحُكِ".

لم تجبه الفتاة إلا بالدُمُوع. دخلت إلى غرفة والدتها. أغلق أمجد الباب. دخل خلفها. لا أحد في الغرفة سواهما. ازدادت الدُّمُوع. اختلجت الأنفاس بالتنهيدات. ضوء الغرفة واهناً. بدأ يسيل العرق على جبين أمجد. أمسكها مِن ذراعها وأشار إليها برأسه أن تتبَّعه. خرج مِن الغرفة وهي مِنْ خلفه. دخلا كلاهما غرفة الصَّالون. أجلسها وجلس بجانبها. إنَّها مُغيَّبة قليلاً عن الواقع. سألها: "أترغبين في كوب ماء؟"

سألت: "هل مِن المفترض أن يُساعِد؟"

أجاب: "... لا".

"حسناً. أريد كوب ماء".

أحضر أمجد كوب الماء. تناولته رحاب بيدها. وضعته أمامها دون رشفة واحدة وسألت: "إن اعتبرنا أن اليوم هي نقطة فاصلة في حياتي. فهل سأعيش حياة أخرى كالتي عِشتها مِن قبل؟"

قال أمجد: "لم أفهم".

"أقصد... لقد عِشتُ خمسة وعشرون عاماً, هل سأعيش خمسة وعشرون عاماً آخرون؟"

أجاب أمجد: "رُبَّمَا. وَرُبَّمَا أكثر".

قالت: "إن ضِباع مدينتي يكرهون أن أتمَّ الخامسة والعشرون دون زواج", ثُمَّ سألت: "هل تُحقِّق للضِباع أمنيَّتهم؟ هل تتزوَّجني؟"

أجاب أمجد: "أنتِ في حاجة إلى الخلود إلى النَّوم".

سألت: "هل هذا مِن شأنه أن يُفيد؟"

أجاب أمجد: "بلى".

"حسناً. لن أخلد إلى النَّوم". ثُمَّ سقطت على الأريكة بجانب أمجد وبدأت عينيها تتحاملان على الإرهاق والتَّعب.

اِنتظرَ أمجد حَتَّى ذهبت في النَّوم بعيداً. حملها بهدوء. كانت مُرهَقة وشائكة. وضعها في سريرها. خرج مِن الشَّقَّة وأغلق الباب خلفه.

كان عُرابي في انتظاره أمام مدخل العِمارة. وملامح الضَّجر تحتل وجهه. سأل أمجد: "هل تأخَّرتُ؟"

أجاب عُرابي: "لم أصعد إلى تلك الشَّقَّة أبداً, سوى مرَّة واحدة. هل رحاب بخير؟"

زفر أمجد الهواء مِن أنفه, ثُمَّ أومأ برأسه مرَّتَين وقال: "بلى".

دلف كلاهما إلى السَّيَّارة. اِنطلقَ أمجد بهدوء. لا يدري أين يذهب. وعُرابي بطبيعة الحال لا يدري. بعد دقائق, بدأ يشعر عُرابي أن أمجد يقود السَّيَّارة دون وِجْهَة. آثر عُرابي الصَّمت. الجو حاراً إلى حد ما. أدار أمجد ذراع صغيرة مُثبَّتة في الباب, فنزل الزُّجاج. تسلل الهواء إلى الدَّاخل. خرج أمجد بالسيَّارة إلى الطَّريق المفتوح. كُلما زادت السُّرعة, زاد اندفاع الهواء إلى الدَّاخل. وقبل أن يدعس أمجد دوَّاسة البنزين أكثر, سأل عُرابي: "إلى أين تذهب؟"

أدرك أمجد أن عُرابي بجانبه, فأوقف السَّيَّارة في قارعة الطَّريق.

كرَّر عُرابي السُّؤال: "إلى أن تأخذني؟"

جذب أمجد كتفيه إلى أعلى وقال: "لا أدري".

سأل عُرابي: "لماذا اتصلتَ بي وأخبرتني أن أنتظرك عند منزل رحاب؟ هل كنتَ تعلم بما سيحدث للسيِّدة سعاد؟"

"ماذا؟ لا. لا لا. لقد أردتُ أن تصعد معي إليها حَتَّى نسألها عن أمراً ما".

سأل عُرابي: "أيّ أمر؟"

أجاب أمجد: "لقد انتهى عقدي في المَصَحَّة. طردني هاني مطر".

سأل عُراب بشيئاً مِن الفزع: "لماذا؟! هل أخبرته عن موت الطَّبيب راضي؟"

مسح أمجد وجهه بكلتى يداه وقال: "لا. لكن حدث أمراً أكثر غموضاً مِن ذلك".

سأل عُرابي: "وما دخلي في هذا الغموض؟"

نظر إليه أمجد نظرة ناكصة وقال: "لا دخل لك. لكني لم أجد أيّ شخصاً آخراً أثق فيه إلا أنت". ثُمَّ أدار السَّيَّارة

وانطلق بها عائداً إلى داخل المدينة. بعد نصف ساعة مِن القيادة. وصلا إلى الكابرية. تَرَجَّلَ عُرابي مِن السَّيَّارة. كانت أمسيلة صاخبة. لم يشأ أمجد أن يدخل إلى الكابرية. ودَّعَ عُرابي وانطلق لِيُكمِل دوائره في شوارع المدينة - - - وفجأة, سَمِعَ أمجد آذان الفجر, ووجد نفسه في الشَّارع الخلفيّ للمَصَحَّة. لا يدري ما الذي جاء به إلى هُنا. ولا يدري كيف مرَّت السَّاعات السَّابقة هكذا دون وعي مِنه بذلك. حَتَّى أنَّه وجد نفسه يقف في مُنتصف الشَّارع. أين السَّيَّارة؟ لا سيَّارة. نظر مِن خلف القضبان الحَديدِيَّة. أين ياسمين؟ لا ياسمين. سار أمجد بمحاذاة القضبان الحَديدِيَّة. غبَّرَ العُفار حِذائه الجلديّ. قطع شارع. وشارع آخر. ضاحية كاملة. وضاحية أخرى. خيط نور ضعيف بدأ يظهر على وجه الأرض. استدار وأخذ يُعاود أدراجه. يسير عكس عقارب السَّاعة. وصل إلى الشَّارع الخلفيّ للمَصَحَّة. بالضبط كما تركه. لم يطرأ عليه أيّ تغْيير. سوى شيئاً صغيراً تافهاً, إنَّها السَّاعة السَّابعة. آذان المغرب. أين اقتُطِعَتْ تلك السَّاعات؟ لا يدري. بدأ يشعر بالارتباك. قليل مِن الاضطراب. أكمل سيراً. وصل إلى شقَّته. السَّيَّارة أمام العِمارة. حقيبة ملابسه داخل

السَّيَّارة. هاتفه المحمول على الطَّابلون. الهاتف يصرخ جوعاً. البطارية شبه فارغة. دلف إلى السَّيَّارة. قادها حَتَّى وصل إلى منزل رحاب. تَرَجَّلَ مِنها. صعد الدَّرج. طرق الباب. فُتِحَ له بعد مُدَّة. دخل سِرَّاً. رحاب ترتدي قميص نومها الشَّفَّاف, وتسأل في ريبة: "ماذا؟ هل أصبحت عيناك وقحتان الآن؟ غض بصرك".

دلفا إلى الصَّالون. جلسا. ارتشفا القهوة. بكت رحاب كثيراً. سَمِعَ لها أمجد كثيراً. تبادلا النَّظرات طويلاً. صمتا قليلاً. سأل أمجد فجأة: "هل أخبرتْك ياسمين عن حادثة اغتصاب أمّها؟"

سألت رحاب: "تلك التي شاهدتها في ليلة رأس السَّنة؟"

أجاب أمجد بالإيجاب وأومأ رأسه على مهل.

أجابت رحاب بالنفي وهزَّت رأسها يميناً ويساراً.

سأل أمجد: "كيف عرفتِ أن الحادثة وقعت في ليلة رأس السَّنة؟"

"سمعتُ ما قِيل".

قال أمجد: "أتمنى أن يأخذ المُجرم عِقابه يوماً ما".

أمَّنت رحاب على كلامه ثُمَّ قالت: "سوف يُظهرهم الله يوماً ما".

انتبه أمجد إلى ما قالته وسأل: "ما الذي تقصدين بـ هُم؟"

تلجلجت رحاب. فكَّرت قليلاً ثُمَّ قالت: "لم أقصد شيء. أنا أتحدَّث في مُجمل الأمر... لا أكثر". ثُمَّ ابتسمت ابتسامة صفراء. حاولت أن تُخفي خلفها غامضاً.

سأل أمجد: "هل أخبرتكِ ياسمين مِن قبل أن هاني مطر قد اغتصبَ أمّها ليلة رأس السَّنة؟ برفقة أبيها. لم يكْ أبيها وحده مَن تهجَّم على مدام عِصمت؟"

سألت رحاب: "هل ياسمين أخبرتك بهذا؟"

أجاب أمجد: "بلى. أخبرتني أنَّهُم كانوا ثلاثة. وأخبرتني أساميهم جميعاً. لكن لم يُحالفني الحظ كثيراً. لم أعرف الثَّالث".

قالت رحاب في شيء مِن الهزيمة: "إن أخبرتُك... هل ستُطاردهم؟"

سأل أمجد في اهتمام مُشاوَّب بكثيراً مِن الغضب: "هل تعرفي الحقيقة؟"

أومأ رحاب برأسها خوفاً.

انزعج أمجد مما يسمعه وقال في قيظ: "اخبريني كل ما تعرفيه".

بعد أن أخذت مِنه وعداً كاذباً بأنَّه لن يُطاردهم بدأت تروي بحذر: "ما أعرفه قد وصل إليَّ عن طريق أمّي. لقد أخبرها هاني مطر بهذا, في ليلة سُكْر. جائت عليه فترة وكان على عِلاقة بأمّي... لا أدري لماذا أخبرك بهذا, لكن... أخبرها يوماً أن محمود العربي لم يكْ الوحيد الذي اغتصب مدام عِصمت أمام ياسمين". ثُمَّ صَمَتَتْ قليلاً وتغرغرت الدُّمُوع في عينيها.

قال أمجد في حزم: "اكملي".

"كان رهاناً. كانوا ثلاث أصدقاء. تراهنا الأثنين على الإيقاع بأستاذ محمود العربي. وجائت ليلة رأس السَّنة. ليلة مَلْعُونَة. على عكس جميع تلك اللَّيال, كانت برداً سقيعاً. شتاءً غاضباً. اتفقا فيها على الإيقاع بالفريسة. قضوا جميعاً اللَّيلة في منزل أستاذ محمود العربي. كانت ياسمين حينها مُجَرَّد طفلة. ظنَّوا أنَّها نائمة. تناول محمود العربي الخمر بكثرة, وكانت مُستصاغة. فقد رشده تماماً. ظنَّا الرَّجُلان أنَّه سيفقد الوعي. لكنه ساعدهما على إتيان زوجته. كانت مدام عِصمت

فائرة ثائرة الجسد. كالمرجل كما قال هاني مطر. تعرَّضت لاغتصاب جماعيّ. وقد كانت ـ"

قاطعها أمجد: "مَن هو الثَّالث؟"

"ألا تعرف؟"

كرَّر أمجد السؤال بغضب: "مَن هو الثَّالث؟"

أجابت رحاب: " عوض العارِف".

تبلَّدت ملامح وجهه. فغر فاه بعض الشَّيء. صَمَتَ لثوانٍ كأنَّه يتذكَّر أمراً أو يتدارك موقفاً. لا يُعلم ما الذي دار في مُخيِّلته. رُبَّمَا لم يدر شيء على الإطلاق! لكن الشُّعور في حد ذاته كان شعوراً أحمقاً ساذجاً, كيف لِشخصٍ يتمتَّع بمقدار ذكاء عالي مثل أمجد ألا يُدرك هذا مِن اليوم الأول؟!

سأل أمجد وهو يضرب بقبضة يده على ذراع الأريكة: "لماذا لم تُخبريني بهذا مِن قبل؟"

زفرت رحاب الهواء إلى خارج صدرها كأنَّها تطرد شيطاناً جاثماً على صدرها ثُمَّ قالت: "لقد خِفت. ولقد حِرتُ ماذا أفعل".

سأل أمجد: "خفتِ مِن ماذا؟"

"لم أخف مِن شيء. بل خِفتُ أن يُصيبك أذى. قد يقتلوك. أنتَ لا تفهم".

"بلى. أفهم. أفهم أنَّهُم قتلة وعُصبة مِن المارقين".

قلتُ لك أنَّك لا تفهم".

سأل أمجد وهو ينهض بزخم شديد: "أفهم ماذا؟"

قالت بصراخٍ: "أنَّني أُحِبُّكَ". ثُمَّ ضعت رأسها بين يداها وقالت في انكسار ونبرة صوتها هزيلة كأنفاسها: "قلتُ لك أنَّك لا تفهم".

استدار عنها أمجد وهَمَّ بالرحيل, ثُمَّ توقَّف في منتصف الصَّالة وعاد إليها بسؤال: "لقد ذكر هاني مطر أن ياسمين عاشت مع خالتها فترة. هل تعرفين أين تسكن خالتها؟ وما هو اسْمُهَا؟"

أجابت رحاب: "اسْمُهَا؟! أنا لا أدري أين تسكن. لكني أظنُّ أن اسْمُهَا... هَنَا أو رُبَّمَا هناء... لا أتذكَّر جيِّداً". ثُمَّ صَمَتَتْ قليلاً وأتبعت: "لكني أعرف مَنْ يعرف".

سأل أمجد: "مَنْ؟"

"كاظم".

"كاظم؟!"

"بلى".

نزل أمجد مِن الشَّقَّة. دلف إلى السَّيَّارة. قادها قاصداً شقَّته. مُرهَقاً للغاية. جسده يُؤلمه. رُبَّمَا أعياه السَّهر. تناول حقيبة ملابسه مِن على المقعد الخلفيّ. التقط هاتفه المحمول. لقد فصل الهاتف. قضت بطَّارِيَّته نحبها. صعد إلى شقَّته. أنار المصابيح. أوصل الهاتف بالشاحن. حصل على حمَّامه البارد. خرج مِن الحمَّام أكثر إرهَاقاً. التقط الهاتف مِن على الشَّاحن. فتحه واتصل بكاظم. ثُمَّ ارتمى على السَّرير. سُمِعَ صوت كاظم جهوريَّاً في الهاتف. وضع أمجد الهاتف على أذنه وقال: "مرحباً. كاظم أريد أن أسأل عن أمراً..."

صرخ فيه كاظم: "أيّ أمر؟ هل أنتَ غبيّ؟ أحاول الاتصال بك منذ البارحة. أين كنتَ؟ ما الذي حدث بينك وبين هاني مطر؟ ما الذي فعلته حَتَّى يمسي الرَّجُل غاضباً إلى هذا الحد؟"

سأل أمجد: "هل يمكنني أن أراك اللَّيلة؟"

"يبدو فعلاً أنَّك فقدتَ عقلك تماماً. إنَّها الخامسة بعد الفجر أيَّها الطَّبيب".

نظر أمجد وهو مستلق على السَّرير نحو نافذة مفتوحة عِدَّة سنتيمترات, بدأ يتسلَّل الخيط الأول للصباح مِنها, فسأل: "إذاً... متى يُمكنني أن أراك؟ الأمر في غاية الخطورة. إنَّه أمر حياة أو موت".

قال كاظم: "اللَّعِب مع هاني مطر هو أمر حياة أو موت".

سأل أمجد: "هل تعرف؟"

"أعرف ماذا؟"

"تعرف مَن الذي قتل الطَّبيب راضي, والأستاذ محمود العربي, ومدام عِصمت وما خفي كان أعظم".

قال كاظم بنبرة الغضب: "أنا لا أدري عن ماذا تتحدَّث. هدِّأ مِنْ روعك قليلاً, واروي لي ما حدث بالضبط".

سأل أمجد: "هل يمكنك أن تمرَّ عليَّ بعد انتهاء عملك؟"

"بالطبع. أين أراك؟"

فكَّر أمجد قليلاً ثُمَّ قال: "سأخبرك فيما بعد. لكن يجب ألا يعرف هاني مطر أننا تحدَّثنا. عِدني بذلك".

"حسناً. لن يعرف".

أغلق أمجد الهاتف. أوصله بالشاحن. ثُمَّ غاص في النَّوم سريعاً. كان قد أرْهقَهُ السَّهر حُساماً. منهوك القوى, لذلك

قضى عشرة ساعات مِن النَّوم العميق. لم تُراوده كوابيس. اِستيقظَ أمجد في تماما الثَّالِثة عصراً. جسده مُقتولاً تعباً. سار يتخبَّط طريقه إلى الحمَّام. يترَّنح بين اليمين واليسار كأنَّه قِلادة معدنيَّة مُتدلِّية على صدر إحدى كلاب الحِراسة اللَّيليَّة. لم يَذُقْ طَعَاماً منذ مُدَّةً. كما أن خلايا مُخه بدأت تشتاق الفودكا. لا طعام في الشَّقَّة. فقط الماء. تجرَّع نصف زجاجة مياه. كانت معدته خاوية. صرخت المياه داخل معدته الخاوية. بدَّل ملابسه. نزل قاصداً أحد المطاعِم القريبة. تناول فطوره غذاءً. احتسى فنجان قهوة. وفنجان آخر. وفنجان آخر. تصَّفح الجريدة المحليّة الرَّخيصة. لا أخبار مهمَّة. جميعها مُباركات وتهانٍ لِعرسان وحفلات عيد ميلاد. الجو حار بعض الشَّيء. ورق الجريدة ساخن إلى حد ما. ورائحة الأوباش ثقيلة, يدخلون ويخرجون مِن خلال الباب الزُّجاجيّ. صوتٌ مُزعج. ازدادت الحرارة. فجأة تحوَّل المطعم إلى وَرْشة لِنَافخ الكير. نظر في ساعة يده. إنَّها السَّابعة والنِّصف. مرَّ الوقت كالسيف. لا بُدَّ أن كاظم يَسْتَعِدُّ للمُقابلة الآن. أخذ أمجد يُقلِّب في هاتفه المحمول, ثُمَّ ضغط على زِرّ الاتصال.

(جارٍ الاتصال بكاظم...)

رنَّ الهاتف - - - رنَّ مُجَدَّداً - - - رنَّ مُجَدَّداً.

(لا يوجد رد...)

ضغط أمجد على زِرّ الاتصال مرَّة أخرى.

(جارٍ الاتصال بكاظم...)

أجاب كاظم سريعاً: "ألو. أمجد. سوف أُعاود الاتصال بك بعد قليل. سلام". ثُمَّ أغلق الهاتف بحركة خاطفة, مثل لصٍّ مُخْتَلِسٌ, على الأرجح أنَّه تعلَّمها في أروقة الكابرية.

تحيَّر أمجد. وضع الهاتف على الطَّاولة أمامه. جائه النَّادل مرَّة سابعة. حمل النَّادل فنجان القهوة الفارغ وقال في هدوء وتبسُّم: "هل أُحضرُ لك فنجاناً آخراً؟"

أومأ أمجد رأسه: "مِن فضلك". عاد الأوباش في الدُّخول والخروج مِن المطعم. صوت الباب الزُّجاجيّ وهو يُفتح ويُغلق... آه, ياله مِن صوتاً مُزعجاً. وللحظة: كَرِهَ أمجد حقيقة وجوده... وجوده هُنا. في تلك السَّاعة. بين هؤلاء الأوباش. لِسببٍ ما, هو ذاته لم يعرفه.

تصدح أصوات الفناجين والضَّاحكات والمُنافقات والواشيات في رأسه. ماذا؟! الواشيات؟ انتبه أمجد فجأة.

اِعتدلَ في جلسته. وقال بصوتاً هامساً: "رانيا الواشي".
وبدأ يُفكِّر في الأمر... ما الذي جعل تلك الممرِّضة اللَّطيفة تفعل ما فعلته... بالتأكيد مِن أجل سبباً ما... إمَّا أنَّ هاني مطر كلَّفها بمراقبة أمجد... وإمَّا أنَّها فقط نيران الغيرة. ذاك الشُّعور الحارق. التَّعلُّق الشَّديد بشخص الحبيب، والقلق الدَّائِم خِشية مَيْله إلى شخصٍ آخر قد يُشَارِكه في حُبِّه. تلك الفكرة التي تُسيطر على المرء مِنَّا, فتدفعه إلى الجنون, أو إلى الخيانة. هل رانيا الواشي تعشق أمجد؟

فرك أمجد جبينه بيده اليمنى. وفجأة رنَّ هاتفه.

(كاظم يتصل بك...)

ضغط أمجد على زِرّ الرَّد: "مرحباً كاظم. هل انتهيتَ؟"

"بلى. أين سنتقابل؟"

"أنا في مطعم يُدعى *ابني ليس غبيًا*، هل تعرفه؟"

صَمَتَ كاظم بُرهة. ضحك بشيء مِن الرِّيبة ثُمَّ قال: "أنا أعرف كل مطعم في هذه المدينة. لقد قمتُ بزيارتهم جميعاً. هذه هي المرَّة الأولى التي أسمع فيها عن مطعم بهذا الاسْم الغبيّ!"

"إنَّه مطعم كبير. كيف لا تعرفه. يرتاده الأوباش بكثرة. هيَّا يا رجل. إنَّه في نفس الشَّارع الذي أسكن فيه. بعد عِمارتي بضاحيتين تقريباً".

"أقسم لك أني لا أعرفه. لكن أنا أعرف شقَّتك. سأحاول الذَّهاب إليها, وسأتصل بك مِن هُناك".

أغلقا - - - عاود كاظم الاتصال بعدها بقليل: "أنا أمام العِمارة. سأتخطاها بضاحيتين. وسوف أكـ... حسناً. لقد رأيتُ المطعم. تنبعث مِنه أضواء حمراء كالدماء. أليس كذلك؟"

"بلى. هيَّا, ادلف بسرعة".

دفع كاظم الباب الزُّجاجيّ. أصدر الباب صوته الحقير. الجو حار في الدَّخل كالموقد. نظر كاظم يميناً ويساراً, ها هو أمجد يجلس في أبعد ركن في المطعم, وأكثرهم عتمة. سار كاظم نحو أمجد بخطى مُتردِّدة. وصل إليه. لم يقف أمجد حَتَّى يستقبله. جلس كاظم. وما أن فتح فاه لِيتحدَّث, قاطعه النَّادل: "مساء الخير سيِّدي. كيف أخدمك؟"

أجاب كاظم: "شطيرتين لحم مفروم, وعُلبتين بطاطس, والكثير مِن عِبوات الكاتشب".

دَوَّن النَّادل الطَّلبات وذهب.

سأل أمجد: "هل تعرف مَن الذي قتل الطَّبيب راضي؟"

"ماذا تقصد بقتل؟"

"لقد قُتِلَ راضي. على يد هاني مطر".

ضحك كاظم وبدا بقايا الطُّعام بين أسنانه, وطبقات مِن الاصفرار تُغطي المينا: "أنتَ تتَّهم الرَّجُل الآن؟ أنتَ تلومه على طردك مِن المَصَحَّة!" وضحك كالخنزير. جسده برمته يهتزّ وهو يضحك. تهتزّ تلك اللَّحمةُ بين حَنَكِه وصفحة عُنقه. بدا أخرقاً للغاية.

وضع النَّادل الطَّلبات أمامهما.

شطيرة على طبق أمام كاظم وعُلبة بطاطس. ومثلها أمام أمجد.

قال أمجد بعد أن رحل النَّادل: "أنا لستُ جوعان".

جذب كاظم الأطباق مِن أمام أمجد ووضعها أمامه وقال: "أنا لم أطلب هذا الطَّعَام لك مِن الأساس". وبدأ يمضغ كالفرس المُدبرُ بعد سَفَرُ الحج.

سأل أمجد: "كيف قضى ابنك نحبه؟"

توقَّف الطَّعَام في حلق كاظم. أعاد الشَّطيرة إلى مكانـها.

سأل وقد أَحْمَى لُغْدَهُ واحْمَرَّت وجنتيه غَضَباً: "كيف قضى ابني نحبه".

سأل أمجد: "كيف قضيتَ أنتَ نحبكَ؟"

سأل كاظم وبدت عليه ملامح الغضب العَارِم: "كيف سينتهي هذا الحوار؟"

"بشكل أفضل مِمَّا بدأناه".

تناول كاظم الشَّطيرة مُجدَّداً. قضم قضمة كبيرة. وأخذ يمضغ بغضب, وهو يزفر الهواء عنيفاً كالرياح في ليلة شتاء مَلْعُونَة.

اِنتفضَ أمجد وجذب الشَّطيرة مِن يد كاظم عنوة وقال في غضب: "هذا لن يُعيد لك ابنك".

نـهض كاظم بزخم. وخرج مِن المطعم وهو صامتاً.

أخرج أمجد المال مِن جيبه. وضعه بجانب الشَّطيرتين. وخرج خلفه مُسرعاً: "كاظم. كاظم. اِنتظرْ لحظة".

لم يهتم كاظم إلى صوت أمجد وسار عنه.

هرول أمجد خلف كاظم وأمسكه مِن كتفه مِن الخلف, فاستدار كاظم ولَكَمَ أمجد في وجهه وقال في حَمِيَّةُ الغضب: "كيف عرفتَ بأمر ابني أيَّها اللَّعين؟"

إِعتدلَ أمجد والدِّماء تسيل مِن أنفه: "أرجوك. ساعدني. لا تتركني".

تذكَّر كاظم: *ابنه الصَّغير عندما كان يجذبه الأطباء مِن بين ذراعيه وصَدَحَ صوت ابنه في أذنيه: "أبي. لا تتركني يا أبي. لا تتركني"*. انتابته رجفة مِن خوفٍ أو رهبةٍ أو رُبَّمَا مِن اضطراب. فسقط كاظم على الأسفلت في قارعة الطَّريق, يصرخ كالمجنون. ويبكي دُمُوعاً حارة مثل دماء الأورطيّ, حَتَّى فقد وعيه مِن شِدَّة الصُّراخ.

استفاق ذكر الفيل لِيجد نفسه مُمدَّداً على أريكة مُريحة في شقَّة أمجد. نظر في السَّاعة التي تدلَّت على الحائط. إنَّها الواحدة بعد مُنتصف اللَّيل. نهض بزخم إِنتصبَ جالساً على الأريكة. ثُمَّ انتبهَ إلى صوت أمجد قادماً مِن المطبخ: "الحمدُ لله على سلامتك. كيف حالك الآن؟" ثُمَّ جذب مقعد وجلس أمامه.

سأل كاظم: "ماذا تُريد؟ وما الذي أفعله هُنا؟"

"اِطمئنَّ. أنتَ بخير. إنَّها مُجَرَّد حالة إغماء خفيفة, بسبب إرهاق العمل لا أكثر".

كرَّر كاظم سؤاله: "ماذا تُريد؟"

"مُساعدتك".

قال كاظم عندما كان ينهض: "أنا لا أصدِّق تلك التَّافاهات. هل تُخبرني أن الرَّجُل الذي أعمل معه منذ أكثر مِن ثلاث سنوات, هو في الحقيقة قاتل؟! بل وتُخبرني أنَّه قَتَلَ أكثر مِن مرَّة؟! أظنُّك على خطأ".

قال أمجد بنبرة الجدِّيَّة والرَّزانة: "أقسم لك بأن ما أخبرك به وما سأخبرك به صحيح ولا هوادة أو لبسٌ فيه".

قال كاظم: "اخبرني أوَّلاً... هل حقيقي أن هاني مطر أمسك بك وأنتَ تُضاجع ياسمين؟"

سأل أمجد: "هل هذا ما أخبرك به؟"

"بلى".

سأل أمجد: "وأنتَ.. هل صدَّقتَ ما قاله؟"

صَمَتَ كاظم للحظات. بدا أنَّه يُفكِّر في الأمر, ثُمَّ قال: "في الحقيقة لم أفعل".

قال أمجد: "يمكنك أن تسأل الحاج أحمد الأعرج أو عامليّ الأمن إن أردتَ".

قال كاظم: "هذا ما أنوي أن أفعله بالضبط". ثُمَّ أخرج عُلبة سجائر محليّةٍ مِن جيب بنطاله وأشعل سيجارة. نفخ النَّفسُ الأول ثُمَّ سأل: "هل أنتَ مُتأكِّد أن هاني مطر هو مَن قتل راضي؟"

أجاب أمجد بقوة ودون رجفة واحدة: "بلى".

سأل كاظم: "كيف عرفتَ؟"

"لا وقت لذلك الآن. هُناك ما هو أكبر مِن هذا".

"أكبر مِن القتل؟"

"الأمر منوط بإنقاذ حياة ياسمين. وحياتك. وحياتي. وحياة جميع مَن يعرفون".

سأل كاظم بنبرة الحيرة: "يعرفون ماذا؟"

"أن هاني مطر مريضاً نَفسيّاً".

صَمْتٌ

أتبعَ أمجد: "لقد أُخبِرتَ أن الأستاذ محمود العربي اِغتصبَ زوجته أمام ابنته ياسمين في ليلة رأس السَّنة, أليس كذلك؟"

"بلى. وهو ما حدث بالفعل".

"نعم نعم. أعرف. وقد حدث بالفعل. لكنها نصف الحقيقة".

"وما النِّصف الثَّاني؟"

"لم يكن محمود العربي هو الوحيد الذي قام بذلك. لقد شاركه اثنين آخرين".

"أرجوك لا تُخبرني أن هاني مطر أحدهما".

"هاني مطر وعوض العارِف".

صَمْتٌ

أتبع أمجد: "هل ستساعدني؟"

قال كاظم وعلى وجهه ملامح الصَّدمة: "أساعد؟! كيف؟"

"لقد قضت ياسمين سنتين عند خالتها. أريد أن أعرف أين تسكن خالتها تلك؟"

سأل كاظم: "إن كان ما تقوله صحيحاً... فكيف لم يُعرف هذا الأمر؟ لقد دخلت مدام عِصمت المشفى الوطنيّ في نفس اللَّيلة. كيف لم يُكتشف أنــ..." صَمَتَ كاظم كأنَّه يذكَّر أمر جلل.

أسرع أمجد بالسؤال: "ماذا؟ ماذا هُناك؟"

قال كاظم: "دكتور سعد الفقي".

سأل أمجد: "مَن هو سعد الفقي؟"

أجاب كاظم: "إنَّه مُدير المشفى الوطني في تلك الفترة. وهو صديق هاني مطر كذلك. إنَّه يضحك بفاه فغر كالدببة في تلك الصُّورة أعلى الدَّلافين, في مكتب هاني مطر. آه. ذلك الشَّيطان الأخرس".

سأل أمجد: "أين يمكنني أن أجد هذا الأخرس؟"

"لن تجده".

"لماذا؟"

"لقد وُجِدَ مقتولاً في شقَّته منذ سنة تقريباً".

صَمَتَ الرَّجُلان. كأنَّهُما في دائرة معارف كبيرة. آلالاف الخيوط المُتداخلة. يفركان وجهيهما بقلة حيلة. أنفاسهما تتزايد. ملامحهما تتبدَّل ألف مرَّة في الدَّقيقة. كُلما أمعن النَّظر أكثر, كُلما شاهدا أكثر وأكثر. سأل كاظم: "ماذا تُريد مِني أن أفعله بالضبط؟"

"أريدك أن تُساعدني. أريد أن أعرف أين تسكن خالة ياسمين. حَتَّى أقنعها أن تتقدَّم بطلب لفتح تحقيق. وتنتشل ابنة أختها مِن تلك المَصَحَّة".

قال كاظم بعد تفكير عميق: "هُناك خزينة حَديدِيَّة أسفل مكتب هاني مطر. يحتفظ بها بنسخ مُطابقة لِملفات النُّزلاء. يجب أن يكون الملف الخاص بمدام عِصمت هُناك".

سأل أمجد: "هل يمكنك أن تجلبه؟"

"أنا؟! بالطبع لا. لكن هُناك مَن يستطيع. وبسهولة أيضاً".

سأل أمجد: "مَن؟"

"رانيا الواشي".

"آه. تلك الحقيرة. مِن المُستحيل أن تُساعدني. لقد أوقعت بي أمام هاني مطر. إنَّها على الأرجح مُرغَمةً... أو تُحبه على ما أظنُّ".

"بل تُحبُّك أنت".

"أنا؟! لا أظنُّ هذا, لقد أبدت اهتمامها بي لِفترة... لكن تُحبني؟! أمراً غريباً!"

"صدِّقني".

"ولمَ إذاً خانتني؟ لماذا أخبرت هاني مطر عن ظهوري في تلك اللَّيلة؟"

"رُبَّمَا لأنَّها كانت تغار مِن ياسمين؟"

"الأمر مُحيِّر للغاية".

تابعا الرَّجُلان حديثهما. واتفقا على أن يقوم كاظم بجلب رانيا الواشي إلى أمجد في إحدى الكافيهات العامة. وبالفعل, دون إضاعة وقت, ذهب كاظم إلى رانيا في اليوم التَّالي, وأخبره أن أمجد يرغب في لقائها وأعطاها العنوان والوقت.

لم تُضِعْ رانيا الفرصة. وتبيَّنَ أنَّها حقاً تعشق أمجد. تقابلا كلاهما في مساء تلك اللَّيلة. كان الكافيه يعج بِالزُوَّار. قد يراهما أحدهم يجلسان فيخبر هاني مطر. جذبها أمجد مِن ذراعها بلطف. خرجا إلى الشَّارع ودلفا إلى السَّيَّارة سريعاً. اِنطلقَ أمجد إلى شقَّته. وهُناك: بدأ يرسم عليها الحُبّ.

كانت الفتاة ذكيِّة, لكن كانت أيضاً ساذجة. رُبَّمَا أعياها الحُب فأفقدها بعض قدراتها على التَّحكم في الذَّات, فانفلتت مِنها العديد مِن الآهات والتَّأوهات عندما كانت راقدةً أسفل أمجد. كان السَّرير واسعاً. لكن جسديهما قد ملئه عن بكرة أبيه. لم تَكْ مُضاجعة بل كان صراعاً إلى أقرب تقدير. اِستفذَ أمجد جميع قواها التي خارت سريعاً مِن فرط الشَّهوة, جرَّدها مِن أي قدرات. فقدت جيشها أمام السِّحِرُ السَّكندريِّ. سقطت أقنعتها وبان لُبَّها. امتلكها الشَّاب حق امتلاك. سقطت

رانيا ذليلة بين قبضتيّ أمجد, الذي أصرَّ على تجنيدها إلى صالحه, فقدَّمت الفتاة فروض الولاء والطَّاعة العمياء - - - بعد أن تشاركا كلاهما حمَّاماً بارداً. ارتدا ملابسهيما. وبدأت أولى خطوات التَّجنيد.

سأل أمجد: "لماذا أوقعتيني في تلك المُعضلة؟ ما الذي دفعكِ لإخبار هاني مطر بمكان وتوقيت وجودي ليلتها؟"

أجابت رانيا وهي بين يديّ أمجد: "الغيرة".

سأل أمجد: "كيف عرفتِ أنَّني سأقابل ياسمين مِن الأساس؟"

أجابت رانيا بمنتهى الاستسلام: "سمعتُكُما عندما كنتُ أتجسَّس عليكُما".

سأل أمجد: "مَن الذي أمرك بالتجسُّس علينا؟ هل هو هاني مطر؟"

أجابت ياسمين: "لم يكُ هاني مطر وحده هو مَن دفعني إلى التَّجسُّس عليكما".

سأل أمجد: "مَن أيضاً أمرك بذلك؟"

أجابت رانيا: "عوض العارِف".

اِندهشَ أمجد. اندهاش دفعه عن صدره بقوَّة. نهض بهِمَّة. سأل بعزيمة: "وأيّ أهمِّيِّة قد تعود على مجنون باقتصاص أخباري وأخبار ياسمين؟"

أجابت رانيا وهي أسفل قدميّ أمجد: "إنَّه ليس مجنون".

سار أمجد عنها ثُمَّ اِستدارَ إليها وقال: "كيف تتحدَّثين معه؟ ولماذا تنصاعين إلى أوامر مجنون مِن الأساس؟"

أجابت رانيا وهي تبكي: "إنَّه ليس مجنون. إنَّه أبي".

صَمْتٌ يصحبه السُّكُون.

اِقتربَ أمجد مِنها على مهل. خطواته حذرة وفُضُوليَّة. أمسكها مِن ذراعيها وساعدها على النُّهوض. كانت مُرهَقة مِن الجنس ومِن الاعتراف في آنٍ واحد. طلب مِنها أمجد أن تروي إليه كل شيء بإسهاب. وبالفعل بدأت الفتاة- بعد أن كفَّفَ دُمُوعها- في القص. أخبرته أن هاني مطر يستخدمها للضغط على أبيها في حين أنَّه يستخدم أبيها للضغط عليها في الوقت ذاته.

سأل أمجد: "هل تعرفين ما الذي حدث ليلة رأس السَّنة؟ ليلة اغتصاب السَّيِّدة عِصمت, زوجة أستاذ محمود العربي؟"

أجابت: "لقد اِعترفَ لي أبي بكل شيء..." وبدأت تنوح, ثُمَّ قالت بالبُكاء يخنق كلماتها: "سأخبرك بما حدث".

قال أمجد: "ليس هُناك داعٍ لذلك. أنا أعرف كل شيء. أعرف كل إثمٍ ارتكبه أبيك. وأعرف كل جريمة نفَّذها هاني مطر".

قالت رانيا وهي تهزُّ رأسها يميناً ويساراً: "ليس كل جريمة".

سأل أمجد باهتمام: "ماذا تقصدين؟ هل هُناك ما خفي عني؟"

قالت رانيا: "أعلم أن ياسمين لم ولن تُخبرك بهذا. وأعلم أيضاً أن لن يُخبرك أيّ شخص آخر بهذا سواي".

قال أمجد: "حسناً. اخبريني بهذا المُحرَّم على الجميع ذكره".

"لم يك هاني مطر قاتلاً دائماً. لقد كان عاشقاً في وقت مِن الأيام".

"كفى ألغاز. أطالبك بتوضيح أكثر".

"بعد أن اِغتصبَ مدام عِصمت, غرق في عِشقها كما يغرق الملّاح بسفينته في المحيط الواسع".

"وَ؟"

"أراد أن يحصل عليها. لقد أحبَّ امتلاكها. أرادها في متحفه. وبالفعل... أحاطها بالزجاج وحنَّطَ ذكراها. أغلق عنها جميع العيون. حَتَّى بعد موتها. دُفِنَتْ مدام عِصمت في الحديقة الخلفيَّة للمَصَحَّة, أسفل شجيرة الياسمين".

قال أمجد بشيء مِن العصبيَّة التي شابتها حيرةُ الاندهاش والقليل مِن الفضول: "أرجوكِ, ليس هُناك داعٍ لكل هذه الأكاذيب".

سألت: "أنتَ لا تثق فيّ؟"

"أظنُّ ذاك. وظنِّي سوء على ما يبدو".

نهضت رانيا وقالت بأنين العِتاب: "لا تُحادثني عن سوء الظَّن: فهو دائماً يؤذي... اِهجرْ الشَّك: فهو لن يُجدي نفعاً... لا تُخضعُني للمقارنة: فهي لن تنصفني".

زفر أمجد الهواء مِن أنفه رويداً. تذكَّر دِفء فرجها الذي تذوَّقه مِنذ قليل, صدحت رائِحته في عقله طرباً, فهم نبرة

عِتابها. رقَّ قلبه شيء ليس بقليل, ثُمَّ قال: "اعذريني. فما تقوليه جنونيّ. أرجوكِ, أكملي ما كُنتِ تقوليه. فأنا أودُ أن أستمع".

بعد ليلة الاغتصاب, دخلت مدام عِصمت المشفى. واستطاع هاني مطر بطريقة ما لا أعرفها أن يُخرجها مِن المشفى إلى المَصَحَّة. اتُهِمَ محمو العربي باغتصاب زوجته بوحشيَّة. وَاِعترفَ بذلك أيضاً. واستطاع هاني مطر فيما بعد أن يضمه إلى المَصَحَّة إلى زوجته, والتمس في ذلك أن حالته وحالة زوجته سيتحسَّنان في المَصَحَّة. عُزِلتْ مدام عِصمت في القسم النِّسائيّ. حينها كُنتُ لا أزال طالبة في الفرقة الأولى في كلِّيَّة التَّمريض. ألحقني أبي للعمل في المَصَحَّة. عرفت أن هاني مطر يغتصب مدام عِصمت يوميَّاً على السرير الحديديّ ذو الدَّلافين الأربع, وفي بعض الأحيان كان الخنزير صابر يأخذ نصيبه مِن تلك القذارة. بعد ذلك, أَحَبَّهَا هاني مطر للغاية. وكفَّ تماماً عن اغتصابها. وفي مُحاولة بائسة مِنه, جلب ياسمين إلي أمّها حَتَّى يسترضيها. لكن هيهات تنهض الرِّيم مِن موتها بعد نحرها".

"اكملي".

"وفي لحظة, لا يدري المرء مِنَّا متى تأتيه! استفاق أبي مِن هذا الجنون. لِيجد نفسه في وضعاً يُشبه الماخور. فقام بتمرير بعض المعلومات إلى الطَّبيب راضي, الذي عُيِّنَ حديثاً حينها. عَرِفَ هاني مطر بما فعله أبي. فقاد أبي إلى الجنون. ثُمَّ أدخله عنبر الرِّجال". سكتت رانيا قليلاً لِتستعيد ذكرياتها التي خضَّبتها الدُّمُوع.

اِنتظرَ أمجد حتى كفكفت دُمُوعها ثُمَّ قال: "أنتِ قُلتِ أنَّ ياسمين لن تُخبرني بهذ! لماذا قلتِ هذا الأمر؟ لقد بدوتِ واثقة بنفسُكِ وأنتِ تُخبريني!"

"بلى. هي لن تُخبرك بهذا أبداً. ولن تُخبر أيّ شخص بهذه المُعاناة دون غيرها".

قال أمجد: "لقد عاشت ياسمين حوالي عامين مع خالتها. هل تعرفين أين تسكن خالتها تلك؟ وهل هي لا تزال على قيد الحياة؟"

"بلى. أعرف أنَّ اسمُهَا هناء. لكن لا أعرف أين تسكن. أقسم لك أني لا أعرف".

مسح أمجد وجهه بكلتى يداه وقال: "إذاً... ساعديني أن أعرف".

"كيف؟"

"هُناك خزينة كبيرة الحجم. أسفل مكتب هاني مطر".

"أعرفها".

"كاظم يؤمن أن بها ملف خاص بمدام عِصمت. هل يمكنكِ أن تجلبيه؟"

"بلى. بكل سهولة. لكن لدي سؤال أوَّلاً".

"تفضَّلي".

"هل تحب ياسمين؟"

"مَن؟ أنا؟! بالطبع لاء. أنا فقط أقوم بما يُمليه عليَّ ضميري".

في اللَّيلة التَّالية. جلبت رانيا الملف الخاص بمدام عِصمت إلى أمجد. عرف أمجد أين تسكن الضَّالة هناء. وَاِتضحَ أنَّها تسكن في نفس الشَّقَّة التي ورثتها عن أختها. في تلك اللَّيلة, بعد أن نهض أمجد مِن فوق رانيا, التي كانت أكثر شهوانيَّة عن الأمس. حصل على حمَّام بارداً. بدَّل ملابسه. نظر في السَّاعة: إنَّها الثَّامنة وخمس دقائق. أخرج صورة مدام عِصمت مِن جيبه, التي قد طبعها مِن الصُّورة الأصليَّة التي أعطاها إلى ياسمين, وقال بصوتاً خافتاً: "هذا ما وعدتُكِ به

سيِّدتي, هذا مهرٌ ابنتكِ". ثُمَّ أدخل الصُّورة في جيبه. خرج, وأغلق باب الشَّقَّة, فيما كانت رانيا تقف مِن خلفه وتنصت بحرص إلى كلماته التي اعتبرتها خيانة.

دلف أمجد إلى سيَّارته. ووصل إلى الشَّارع رقم 18 العقار رقم 19. صعد إلى الشَّقَّة في الطَّابق الثَّاني. رفعِ يده لِيطرق الباب, لكن استوقفه صوت رنين هاتفه.

(عُرابي يتصل بك...)

ضغط أمجد على زِرّ الإلغاء. رفع يده لِيطرق مُجدَّداً. فاستوقفه صوت الرَّنين مرَّة أخرى. نظر في هاتفه المحمول.

(عُرابي يتصل بك...)

ضغط أمجد على زِرّ الإلغاء. وطرق الباب... سَمِعَ صوت امرأة في طور الكهولة تُجيب بصعوبة: "ثوانٍ... ثوانٍ".

مرَّت الثَّواني التي طلبتها. يتصل عُرابي وأمجد يضغط على زِرّ الإلغاء. لم يُفتح الباب بعد. طرق أمجد الباب مِن جديد. أجاب الصَّوت ذاته بنفس النَّبرة لكنها أصبحت قريبة للغاية: "حاضر. ثوانٍ فقط".

فتحت السَّيِّدة هناء الباب. امرأة كهلة, شفتاها ممصوصتان, وجهها مُجعَّداً, عِظام رقبتها بارزة, أسنانها

هوت منذ مُدَّة, عيناها واهنتين, بدت كقطعة أثاث رثَّة, آلة طواها الزَّمن, وتتحدَّت ملامحِ وجهها وتروي أُلوفٌ القصص والأعاجيب. نبرت صوتها وهي تسأل عن هويَّة الطَّارق... يالها مِن نبرة صوت, كأنَّها ليست بشراً, بل مخلوقاً غير البشر, احتل ذاك الجسد الهزيل وأعجبته هيئته فسكن فيه أبداً. تُعاني مِن ضعف السَّمع. يُكرِّر أمجد تقديم نفسه مراراً وتكراراً. في الأخير فهمت ببعض الكلمات التي سمعتها والأخرى التي خمَّنتها وبالطبع إشارات جسد الطَّبيب. دعته إلى الدَّاخل. فدخل. أشارت إليه أن يجلس. فجلس. ثُمَّ سألت: "هل كل شيئاً على ما يُرام أيُّها الطَّبيب؟"

أجاب أمجد: "لا أظنُّ ذلك سيِّدتي".

سألت: "هل هناء في خطر؟"

قال أمجد: "لا لا. أنتِ لستِ في خطر سيِّدتي".

كرَّرت العجوز سؤالها: "هل ياسمين في خطر؟"

أجاب أمجد: "أظنُّ ذلك".

سألت: "ما الذي جلبك إليَّ؟ هل تتوقَّع مِني أن أحميها؟"

أجاب أمجد بنبرة الاندهاش: "الأمر لا يتعلَّق بياسمين فقط, بل بأختكِ كذلك".

قالت: "أتدري؟ لقد جاء إليَّ مثلك بالضبط. تشدَّق بنفس الكلمات. قال: الجميع في خطر. محمود العربي وعِصمت وحتى هناء في خطر. لم أدرْ ماذا أفعل. لكن ما لم يُدركه... أنَّه هو نفسه في خطر... أنتَ أيضاً, أنتَ في خطر".

قال أمجد: "أنا أحبُّ ياسمين. أطلب مِنكِ اليوم أن أتزوَّجها. يجب أن تخرج ياسمين مِن المَصَحَّة – ".

قاطعها صوت رنين هاتفه.

(عُرابي يتصل بك...)

أغلق أمجد الهاتف تماماً. نظر إلى العجوز وأتبع: "يجب أن تعرفي كل شيء".

"أنا أعرف كل شيء".

"لا. أنتِ لا تعرفين أيّ شيء".

ابتسمت العجوز فبدا حنكها فارغاً مِن الأسنان سوى مِن ناباً واحداً أزرق اللَّون. بدا مُخيفاً. ثُمَّ قالت: "أتعرف كم هو رقمي؟"

"ماذا؟!"

"أنا المَلْعُونَة رقم 7".

"ماذا؟!"

"أنا هناء, المَلْعُونَة رقم 7".

قال أمجد: "لم أفهم. سيِّدتي, أرجوكِ وضِّحي أكثر, هُناك الكثير على المِحك. يجب أن تفعلي شيء ما".

قالت العجوز المَلْعُونَة: "لم يَبقَ لي الكثير, وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا".

سأل أمجد: "هل أنتِ مجنونة؟"

أجابت: "لا. بل مَلْعُونَة".

شعر أمجد بأنَّ تلك الزِّيارة لن تعود على أهدافه بالنفع, ظنَّ أنَّ العجوز مجنونة جِدًّا. يبدو أن الجنون وراثة في تلك العائلة. لكن لا أمل سواها. ترك رقم هاتفه في ورقة على منضدة الصَّالون. اِستأذنَ. خرج مِن الباب ونزل ووقف بجانب سيَّارته. فتح هاتفه المحمول. دلف إلى السَّيَّارة. رنَّ هاتفه.

(عُرابي يتصل بك...)

ضغط أمجد على زِرّ الرَّد. صرخ عُرابي: "أمجد. أين أنتَ. لا تعود إلى شقَّتُك. لقد عرف هاني مطر كل شيء".

أجاب أمجد: "اهدأ, ما الذي عرفه هاني مطر؟"

صرخ عُرابي: "كاظم... لقد قُتِلَ كاظم. قتله هاني مطر وفتحي الحجش في قبو الكابرية".

الفصل الخامس عشر.

اَلْفَصْلُ.

قد يعيش المرء مِنّا مرَّة ولكن مِن المُؤكد أنَّه يموت مرَّات. كالصاعقة, هكذا اِستقبلَ أمجد الخبر. ظلَّ لِثوانٍ معدودة, مرَّت عليها كأنَّها ساعة, واقفاً فاغراً الفم ينفث الهواء لهيباً جمراً مِن صدره. لم يبق له شيئاً. سأل أمجد, عُرابي الذي كان لا يزال يعوي على الهاتف, ويروي تفاصيل مقتل كاظم: "عُرابي. عُرابي. اِصمتْ لحظة... هل أنتَ متأكِّد أن كاظم قضى نحبه بالفعل؟"

صرخ عُرابي بنبرة الهلع: "بلى. بلى. لقد انتفخت معدته مِن فرط الماء. كتم الجحش فاهه بقطعة القماش السَّميكة, وصبَّ هاني مطر الماء كالمطر على فاه المسكين. مات سريعاً بعد أن تجرَّع كمِّيَّة كبيرة مِن الماء".

"حسناً... تمالك أعصابك. أريد أن أراك – "

قاطعه عُرابي: "تراني؟! هل أنتَ مجنون! سوف أختفي مِن هذه المدينة تماماً. سوف أُعاود أدراجي. كفى, عليك أن تتعلِّم متى تتوقَّف عن الرَّكض أيُّها الطَّبيب".

صرخ أمجد: "أنتَ مجنون؟ هل سنتركهم ينجون بفعلتهم؟"

"لا شأن لي بذلك. لقد حذَّرتُك... أنا لستُ بطلاً, أنا قوَّاداً. تلك هي اللَّحظات التي يهرب فيها القوَّادين, تلك هي عقيدتُنا". وأنهى المُكالمة مع أمجد, ثُمَّ أغلق هاتفه, واختفى, *ولم يُرى عُرابي بعدها أبداً.*

أثناء الذُّهول والصَّمت اللَّذان خيَّما على أمجد, داهمه صوتاً مألوفاً مِن أعلى: "أيُّها الطَّبيب. أيُّها الطَّبيب".

نظر أمجد إلى أعلى, إنَّها الكهلة تُنادي بتثاقل مِن شُرفة منزلها.

قال أمجد في حيرة: "سيِّدة هناء؟!"

أشارت إليه العجوز أن يصعد.

فصعد مرَّة أخرى. دقَّ الباب. فتحت له سريعاً, وكأنَّها انتظرته خلف ثقب الباب.

سأل أمجد وملامح الخوف والهلع مطبوعة على وجهه: "ماذا هُناك؟"

قالت: "ادخل. لقد أوشك السِّرُّ الإلهيّ على الخروج".

دخل أمجد وهو يشعر بغرابة شديدة. جلس في مكانه السَّابق ثُمَّ سأل: "أي سِرٌّ إلهيٌّ؟"

أجابت: "أنا طاعنة جِدّاً في السِّن أيُّها الطَّبيب. وأظنُّ أنَّ الوقت قد حان للحقيقة أن تتجلِّى".

صَمَتَ أمجد وأمعن النَّظر في ملامحها المألوفة بعض الشَّيء.

شقَّت العجوز الصَّمت بصوتها المُتحشرج بمرارة: "أنا المَلْعُونَة رقم 7".

نفخ أمجد الهواء ضجراً وقال: "هل صعدتُ إلى هُنا لهذا الجنون؟ اسمعي أيَّتها الكهلة, لقد فاض مِنْكِ الكيل, لقد قُتِلَ صديقي لِتوه, وأنتِ تهزين بحديث غير مفهوم بالمرَّة؟"

سألت العجوز: "هل تعرف ياسمين بالفعل؟"

"بلى".

"هل نظرت في وجهه مِن قبل؟"

"بالطبع, أنا الطَّبيب الخاص بها, لقد أخبرتُكِ هذا".

"أنا أقصد, هل تمعَّنتَ النَّظر في وجهه مِن قبل؟"

هدَّأ أمجد مِن نبرته وقال: "بلى".

"ألا ترى ملامحها في وجهي؟"

نظر أمجد في وجهها بإمعان. ثُمَّ تبلَّدتْ عضلات وجهه واشتعلت حمماً في صدره, وأخذ ظهره يتلظَّى. فَهِمَ أمجد أنَّ

ياسمين هي ابنة العجوز التي يُحدِّق الآن في وجهها, فانتفضَ وقفز مِن على مقعده وسأل في انفعال مصحوباً بالفضول: "هل ما أظنُّه صحيحاً؟ هل أنتِ أمّها؟"

أومأت العجوز رأسها بشيء مِن الهزيمة وقالت: "بلى, هي ابنتي".

صرخ فيها أمجد وأمطرها تساؤلات: "وكيف لكِ أن تتركِ ابنتكِ في هكذا وضعاً؟ هل ياسمين على عِلْم بهذا؟ هل تعرف أنَّكِ والدتها الحقيقيَّة؟ ومَن هو والدها؟ لا تُخبريني أن هاني مطر هو والدها, اللَّعنة, لقد بدأتُ أفقد عقلي حرفيَّاً".

أشارت إليه العجوز أن يجلس ويستمع.

بالكاد جلس أمجد وهدأ قليلاً مِن انفعاله وقال: "اخبريني كل شيء".

"أنا اسْمي هناء. وياسمين هي ابنتي بالفعل, لكن اسْمُهَا ليس ياسمين, اسْمُهَا هناء كذلك".

سأل أمجد: "ما الذي تُخبريني به؟ لقد بدأتُ أعتمد على نظريَّة الخرف, ما تقوليه هو تخاريف".

"اِصمتْ. ودعني أخبرك الحقيقة, فما عدتُ أنهض على كتمها أكثر مِن ذلك".

"تحدَّثي".

"لقد تزوَّجتُ مِن محمود العربي وأنا في سن كبير, كان زوجي حينها ينتظر أن أضع ابناً, لقد وعدته بذلك, لكني كنتُ أعرف حق المعرفة أنَّها ستُوضع أنثى, إنَّها سوءة الأنثى تُطاردني. وأنجبتُ هناء, فثار حِماه, وأخذ لهيبه يتلظَّى.

وطفق يُنشد:

نَكَحَ الزَّمَـــــــــانُ ليلتي نَكحُ الدُنا

فوُضعتْ لـــــي الأنثى ابنة زنى

يا ليتني ما هممتُ بها ولا عليها دخلتُ

يا ليتني أخرجته, يا ليتني أفسدتُ

نَكَحَ الزَّمَـــــــــانُ ليلتي نَكحُ الدُنا

فَوُضِعَتْ لـــــي الأنثى ابنة زنى.

كانت ليلة حَالِكَة السَّواد, تماماً كالليلة التي وَلِدتُ فيها وكالليلة التي وُلِدَتْ فيها أمّي والتي وُلِدَتْ فيها جدَّتي. لم يطق محمود العربي أن ينظر في وجهينا, لذلك... هجرنا, هجرنا كلانا, وتزوَّج مِن فتاة في عقدها الثَّالث – "

قاطعها أمجد وهو يُومأ برأسه: "مدام عِصمت".

"بلى, مدام عِصمت. هكذا أمرني أن أدعوها". وأخذت الدُّمُوع تتسلَّل مِن عينيها.

لم يلق أمجد بالاً لتلك الدُّمُوع وقال: "اِكملْي".

"أظنُّ أنَّ الله أراد أن يُعاقبه على هجرانه لي وابنته التي كانت لا تزال قطعة لحمٍ دافئة, ومنذ الأُسبوع الأول دخلت مدام عِصمت إلى المشفى لإجراء عمليَّة جراحيَّة, أزالت على إثرها الرَّحِم. فانكسر الأمل الأخير لمحمود العربي, فعاد إليَّ وجذب هناء مِن بين يداي, وأخبرني أن مدام عِصمت تُريد ابنتها, وعاشت هناء بعيدةً عني, فيما عِشتُ أنا هُنا وحيدة".

سأل أمجد: "وكيف وافقتِ على هذا الظُّلم؟"

"ظُلم؟! ما أدركَ أنتَ والظُّلم؟ هل تعرف شعور أن تكون منبوذاً داخل أسرتك؟ هل تعرف شعور أن تكون المَلْعُونَة رقم 7؟ كان سهلاً للغاية أن يتخلَّى عني أهلي, لفظني أبي مِن رحمته, أمَّا أمّي- المَلْعُونَة رقم 6- فكان نصيبها مِن الظُّلم أكثر مِني, والحقيقة أني كرهتُ العدَّ وكرهتُ الملعونات, ظننتُ أن هناء ابنتي سوف تكون ذات حظاً أوفراً, فقط بِمُجَرَّد أن يتغيَّر اسمُهَا إلى ياسمين, وتتغيَّر والدتها المَلْعُونَة, ظننتُ أن سوءة الأنثى ستكفُّ عن مطاردتها, لقد

كرهتُ الرَّقم 8, خِفتُ أن تكون ابنتي هي المَلْعُونَة رقم 8. أنتَ لا تدري شيئاً عن الظُّلم أيُّها الطَّبيب... أنتَ لا تدري شيئاً عن الظُّلم".

"في الحقيقة يصعُب عليَّ تصديق هذا الحديث, وكأنَّكِ تُحدِّثيني عن أسطورة أو إحدى القِصَص الهِلاليَّة".

أجابت العجوز: "تلك هي الحقيقة, صدِّق أو لا".

اِعتدلَ أمجد في جلسته حيث أنَّه قد انحنى للأمام مُستمعاً إلى حديثُها, ثُمَّ قال وهو يُريح ظهره المُتعب على المقعد: "لِنفرض للحظة أنَّ حديثُكِ هذا حقيقيّاً, وسوف أغضُّ الطَّرف عن جميع الأمور التي لم يتقبَّلها عقلي: فإنَّ جلَّ ما يُهم الآن هو أمر تلك المسكينة التي حتماً تُعذَّب في هذه اللَّحظة, أثناء حديثي معكِ, يجب أن تتقدَّمي بطلباً لإخراجها مِن المَصَحَّة".

أجابت بصدرٍ ينتفض: "أنا أخشاها, أخشى أن أواجهها, أخشى النَّظر في عينيها, أخشى حَتَّى مُجَرَّد الاقتراب مِن مكاناً تتواجد هي فيه".

سأل أمجد: "هل ياسمين على عِلْم بحقيقة هويَّتها؟"

أجابت قاطعةً: "بالطبع لا".

"سوف نُخبرها؟"

"حتماً لا".

سأل بشيءٍ مِن العصبيَّة: "إذاً لِمَ أخبرتيني بهذا مِن الأساس؟"

قالت والدُّموع تُذَبِّلُ عيناها والحشرجة تُعاكس نبرتها الآنية: "لأنَّ الأمر قد فاض بي, ما عِدتُ أحتمل بعد, أنا أموت... وكان للسِرِّ أن ينتقل مِني إلى أحدهم".

"وأنا هو أحدهم".

سكنت العجوز بعد انتفاضة, فبدت كبحراً هائجاً هدأ بحذر في إحدى ليالي أيلول الغاضبة. وجهها أحمراً, رُبَّمَا بسبب انفعالاتها, لا وجود لعرقٍ, ولا قطرة واحدة. كتفاها ضعيفان, بالكاد يحملان القليل مِن اللَّحم. تتنفَّس الشَّمطاءُ بصعوبةً, لا, لا, ليس ضيق تنفُّس, إنَّما سوء ظنٌّ بالله. لا بُدَّ لِمَن يراها أن يظنَّ أنَّها كانت إحدى النِّسوة اللآئي اتبعن موسى في حدث الخروج. رُبَّمَا ما يزال في قلبها شيء مِن الإيمان, وَرُبَّمَا لم يَعُدْ هُناك قلباً مِن الأساس. فجأة, رفعت رأسها الصَّغير مِن على صدرها الضَّامِرُ, وبشَّرَتْ بُشرةً سعيدةً, وكأنَّها تُبشِّر بالذكر: "أنتَ ستتزوَّج مِن هناء, المَلْعُونَة رقم 8, المَلْعُونَة

الأخيرة, وستُنجبُ مِنها فتاة. أرجو أن تدعوها ياسمين, ولن تكون حفيدتي مَلْعُونَة, لأنَّها ستضعه ذكراً".

نهض أمجد غير مُبالاً لحديثُها. ظنَّها خرفاء. تركها وخرج مِن شقَّتها. لم تُكلِّف نفسها في اتباعه أو مُناداته, تركته يذهب لِتحقيق النِّبوءة. امتدت يدها الضَّعيفة نحو كوبٍ مِن الحليب البارد, تركته يهوي إلى الأرض, فسقط إلى شظايا, تناولت إحداها, قطعت الشَّرابين في معصم يدها اليُسرى, أراحت ظهرها إلى الخلف, وغاصت بهدوء إلى المجهول...

وقف أمجد وقفته الأولى أمام مدخل العِمارة, أشد حيرة, وأشد ذهولاً, وأشد شروداً. والحق أنَّه لا يدري ماذا يجب عليه أن يصنع, حاول عبثاً الاتصال بعُرابي, فوجد هاتفه المحمول مغلقاً, لقد اختفى عُرابي بحق. فكَّر في الذَّهاب إلى الشُّرطة, وإخبارهم كل شيء, لكن ماذا سيخبرهم؟ دلف إلى سيَّارته, انطلق بها بهدوء إلى إحدى الشَّوارع الهادئة, ركن السَّيَّارة على جانب الطَّريق, تَرَجَّلَ مِنها ونظر حوله يميناً ويساراً. بطريقة أو بأخرى وجد نفسه بجانب مقعد الاستراحة الذي استراح عليه هو وياسمين. تذكَّر سباقهما الصَّغير في تلك الأمسية التي لا تُنسى. كيف كانت تضحك,

حركة نهديها وهُما يصعدان ويهبطان بسرعة أثناء التقاطها أنفاسها, إنَّه تقريباً يتذكَّر وتيرة تنفُّسها بدقَّة بالغة. اللَّون الأحمر على شفتاها وهو يحترق كحمم تتلظَّى. ذاك البركان الذي اِنفجرَ عرقاً على رقبتها, فخذيها الرَّشيقين وهُما يُزاحمان بعضهما البعض أثناء الرَّمح. لا يزال يتذكَّر ذاك الشُّعور الذي دفعه للنظر نحو ردفيها وهي تعدو, فابتسمَ إجلالاً لذكراهُما. فجأة اِندفعَ كالثائر, دلف إلى سيَّارته وقادها غاضباً, أو رُبَّمَا قادها عاشقاً أعياه الشَّوق, كان في ثورانه كأحد جبال الكاريبي, الذي صَمَتَ طويلاً وانفجرَ حمى بركانه فجأة دون مُقدِّمَات. وظلَّ يقود السَّيَّارة كالغيهبُ الذي يُطارد عقله اشتياقاً.

وفي غضون دقائق معدودة, وصل حانقاً إلى الشَّارع الخلفيّ للمَصَحَّة, إنَّها العتمة كما هي, مُعتادة, تلك العتمة المعهودة بذلك الشَّارع الذي لا تطوله فضلات القمر, أو بصيصُ المصابيح. نظر مِن خلف القضبان, لا أحد, شجرة الياسامين في مكانها تشكو الوحدة, وتشرب دماء القتيلة أسفلها, جزورها ضاربةً في الأرض, تلتفُ حول جثَّة مدام عِصمت التفافاً.

قفز أمجد مِن فوق القضبان الحديديَّة. ولسببٍ ما غير مفهوم, ولأوَّل مرَّة, سطع خيط نور ضعيف مِن إحدى المصابيح القديمة! كان المصباح واهناً ضعيفاً, وضوئه شارداً. لم يهتم أمجد, وتقدَّم رويداً رويداً نحو البوابة الرَّئيسيَّة, لا صوتاً, اِقتربَ أكثر, لا أحداً, وقف يلتفت النَّظر يميناً ويساراً, كأنَّه يسأل: أين كل مِن عادل وهيمة؟

اِقتربَ أمجد أكثر حَتَّى وقف أمام البوابة التي كانت مفتوحة على مصرعيها! وكان أمراً في غير اعتياديَّة! وفجأة سَمِعَ صوتها تصرخ, إنَّها ياسمين, تصرخ كالرعد في أذني أمجد, الذي اِندفعَ بقوَّة إلى داخل المَصَحَّة, لا أحد في الطُّرقة... صرخت ياسمين مُجدَّداً, وَاِختلطَ صوتُ صراخها بأصوات أخرى, فقطع الطُّرقة كاملةً في خطوتين, لا بُدَّ أن قدماه لم تمسسا الأرضيَّة بل طار عليها. نظر مِن خلا نافذة عنبر الرِّجال, النُّزلاء في سُكُون تام, كل مِنهُم يجلس في سريره ويخشى النِّزول مِن فوقه, وكأنَّ أرضيَّة العنبر هي الهاوية! تنتفض أجسادهم مع صرخة جديدة تطلقها ياسمين, فاندفعَ أمجد نحو العنبر النِّسائيّ حيث يصدر مِنه الصَّوت.

ركل الباب بقدمه بقوة, وكان ما لم ينهض قلبه وعقله على تقبُّله.

ياسمين, مُلقاه على الأرضيَّة. وشظايا إناء مِن الفُخَّار الصِّينيّ مُتناثرة حولها, تماماً كما يراها في هذيانه, تقف رانيا الواشي عند رأس ياسمين, وهاني مطر نصف عارياً, يُهرول نحو ملابسه. وقبل أن يفتح فاهه ليُصمهما بالخزي, اِكتشفَ أنَّ ثالثهُما يقف خلفه, وقبل أن يستدير لِيرى وجهه, دُهِمَ بخبطة على مؤخِّرة رأسه, جعلته يفقد توازنه ويسقط على وجهه بجانب ياسمين نصف مغشيَّاً عليه... بالكاد استدار ليُصعق مِن هول المُفاجأة: ثالثهُما كان سعيد ابن الحاج أحمد الأعرج... فيما كان أمجد يُحاول جاهداً أن ينهض, هطلت عليه ركلة قويَّة في صدره لم يدر مَن صاحبه, لكنه على الأرجح كان هاني مطر هو مَن ركله, لم يهتم أمجد كثيراً بهويَّة الذي ركله في صدره بقدر ما اِهتمَ بالضيق المُفاجئ للتنفُّس الذي كاد أن يُمزِّق جُدران رئتيه, نهض في دوَّامة الألم يتخبَّط الحوائط في العتمة, يعض ياقة قميصه مِن شِدَّة الألم, ينبش الحوائط بأظافره, شَعَرَ بالفعل أن روحه تُفارق جسده, توقَّف الأكسجين عن الوصول إلى عضلاته

التي تنتفض بشِدَّة وتستهلك آخر نفس في مخزون جسده مِن الأكسجين, وفي أثناء صراعه داخل دوَّامة الألم تلك, لكمه سعيد مجدَّداً مِن الخلف, لكن في ظهره, فعادت إليه قدرته على التَّنفُّس, فشهق الهواء غصباً كأنَّه يلتهمه, ما أن بدأ يتدارك موقعه في الغرفة, وجد نفسه في زاوية بين حائطين, وياسمين ممدَّدة أمامه على الأرضيَّة, ويقف كل مِن سعيد وهاني ورانيا ومِن خلفهم العَمّ صابر, وجوههم عبوسة جامدة, وجوه قتلة. نظر أمجد إلى رانيا الواشي فوجد ملامحها تروح وتأتي في العتمة, فسألها عندما كان جاثياً على الأرضيَّة: "لماذا؟"

نظرت في وجهه وسألت بدورها: "لماذا ماذا؟"

أمجد بصعوبة وإرهاق شديدين: "لماذا أنتِ جافة وقاسية إلى هذا الحد؟"

أجابت: "لماذا!" ثُمَّ ضحكت باصفرار يُخفي ألماً, وأتبعت: "لماذا؟ ...رُبَّمَا لأنَّ الحياة قاسية إلى حد كبير معي؟ أَمْ رُبَّمَا لأنَّ أبي الذي أُرغمتُ على تغْيير اسْمي بسببه, وبدَّلتُ هويَّتي بأكلمها بسببه, ومِن أجله, هو في الحقيقة مُغتصب ومجنون وغبيّ في الوقت ذاته؟ أَمْ رُبَّمَا بسبب والدتي التي هجرتني

وهجرته منذ زمنٍ بعيد؟ أَمْ بسبب تلك الأسرة التي تفكَّكت بسهولة كقطع لعبة اللِّيغو؟ أنتَ لا تدري شيئاً عن القسوة أيُّها الطَّبيب, أنتَ لا تدري شيئاً عن القسوة, لذا: أرجوك, لا تُحادثني عن القسوة بالقسوة, لأنَّكَ كذلك جزء مِن قسوة حياتي".

سأل أمجد وهو يضحك بصعوبة: "لماذا الجميع يعتقد أني لا أدري شيئاً عن الظُّلم وقسوة الحياة؟ لا أحد مِنكُم جميعاً عاش حياتي!!"

هُنا, قاطعهما هاني مطر بغضب: "اسكتا, كُفَّا عن الحديث كلاكما". ثُمَّ نظر إلى أمجد وقال: "أنتَ يجب أن تموت, وجيِّد أنَّك وصلتَ". ثُمَّ أشار إلى سعيد وقال: "اِبحثْ لي عن حبلاً وقطعة قُماش ودلولاً مملوءً بالماء".

لم يتحرَّك سعيد.

نهره هاني مطر: "أسرع أيُّها الحُثالة".

قال سعيد: "أنا لن أقتل أحداً, افعلها أنت".

وفيما كانا في شقاقهما البعيد هذا, أسرع صابر مِن الخلف: "أنا سأجلب ما تُريد". ثُمَّ اِستدارَ لِيجد الحاج أحمد الأعرج يقف على عتبة باب العنبر وفي يده البلطة الطَّويلة

الحمراء. فقال صابر في غضب عارم: "أيُّها الخوليّ ابن الزِّنى, ما الذي أخرجك مِن غُرفتُك؟ لقد أخبرتُك ألا تخرج أبداً مِن غرفتُك في مثل تلك اللَّيالي".

قال الحاج أحمد الأعرج: "كفى عفناً, لقد صَمَتُّ طويلاً, استمعتُ لليالاً طويلة إلى أصوات والدتها وأنتم تغتصبونها بعُنفاً, كفى عفناً, كفى عُنفاً". ثُمَّ رفع بلطته وأنزلها مُستقِرَّة في مُقدِّمة رأس صابر الذي أُخذتْ روحه في أقل مِن ثانيتين. فهرع نحوه هاني مطر وسعيد ورانيا وبدأ الشِّجار بينهم جميعاً. زحف أمجد بصعوبة حَتَّى وصل إلى ياسمين التي كانت قد بدأت تستعيد شيئاً مِن وعيها. أمسك يدها وهي ممدَّدة على الأرضيَّة, اِقتربَ برأسه إلى رأسها وقال: "هل تتزوَّجيني؟"

ضحكت ياسمين ضحكة مؤلِمة وقالت في ضعف: "اعطني فرصة لأفكِّر".

بعد حوالي دقيقتين, وقف الحاج أحمد الأعرج مِن فوقهما وقال والدِّماء تسيل مِن جبهته وتُغطِّي راحتيه وصدره: "حان وقت اَلْفَصْلُ يا ابنتي, سامحيني". ثُمَّ اِستدارَ ونزع البلطة مِن صدر هاني مطر وأسرع إلى الخارج.

حاول أمجد أن يُنهض ياسمين, لكنهُما تصلَّبَا عندما نظرا حولهُما, والأرضيَّة مُغطَّاه بالدماء, والجُثث. الجميع موتى, هاني مطر وسعيد ورانيا والعَمّ صابر, وفجأة صرخت ياسمين ألماً, كأنَّها تتلقى ضربات مُتوالية, سقطت على الأرض وتصرخ مِن شِدَّة الألم, يُحاول أمجد أن يفهم مِنها: "ما الذي يحدث؟"

قالت بالصراخ: "الشَّجرة, يُصيبها لونٌ مِن الموت".

هرع أمجد نحو الطُّرقة, لِيجد باب عنبر الرِّجال مفتوح على مصرعيه والنُّزلاء جميعاً يقفون أمامه, تجاوزهُم غير آبه لهُم وخرج مِن باب المَصَحَّة الرَّئيسيّ, ذهب مُسرعاً إلى خلف المَصَحَّة, وإذ بالشارع الخلفيّ للمَصَحَّة مُضاءً- لأول مرَّة- بمصابيح النِّيون, الضَّوء شديد للغاية, والحاج أحمد الأعرج يقف على أغصان شجيرة الياسمين, وقد فصلها تماماً عن جذرها في الأرض, بعد أن مزَّقها ببلطته. كانت أضواء المصابيح قويَّة ومُداهِمة, فصرخ الضَّوء في عينيّ أمجد وسقط على الأرض فاقداً الوعي - - - - - - - - -

بعد ثلاث أيام. في المشفى الوطنيّ. يجلس أمجد على سريره الأبيض, وبجانبه وكيل النَّائب العام ويقول: "شكراً

لك يا دكتور أمجد على تعاونك, وبالطبع لك أحر التَّعازي للمرة الثَّانية في دكتور كاظم, وبالمناسبة هُناك احتمالاً كبيراً أن نحتاج إليك مُجدَّداً بصفتُك الشَّاهِد الوحيد في القضيَّة".

سأل أمجد: "هل ستكون نهايته الإعدام؟"

ضحك وكيل النَّائب العام: "ما الذي تظنَّه أنتَ, لقد قام بقتل ابنه ومديره وممرِّضة وزميله وَرُبَّمَا النَّزيلة الوحيدة في المَصَحَّة. وقد اِعترفَ بكل شيء, إلا أنَّه يرفض أن يُخبرنا بمكان جثَّة النَّزيلة... بلى, أظنُّ هذا, إعدام".

سأل أمجد: "وعامليّ الأمن؟"

أجاب الوكيل: "ماذا عنهُما؟"

"ما موقفهُما؟"

"لم يتواجدا في مكان الحادث حينها! لقد بعثهما المدير إلى بيتيهما في أجازة منذ صباح يوم الحادثة, لذا لا غُبار عليهما".

أراح أمجد ظهره وأغمض عيناه.

قال الوكيل: "سوف أتركك الآن لِتنال قسطاً مِن الرَّاحة. وشكراً لك على تعاونك معنا في التَّحقيق, والآن يجب أن

أتابع حركة البحث عن باقي النُّزلاء المفقودين". ثُمَّ خرج مِن الغرفة وأغلق الباب خلفه. - - - - - - - -

بعد شهراً كاملاً. في إحدى شقق المعمورة. كانت شقَّة مُريحة, يجلس أمجد على مقعداً, تحديداً في المطبخ. على منضدة السُّفرة. وهند ابنتة خالته واقفة مِنْ خلفه, بجانب حُسين ابن عم أمجد, الذي جلس على مقعداً أمام هند, فأخذت تُمسِّج له رقبته, فنظر إليهُما أمجد وقال: "اللَّهُمَّ أتم سعادتكُما". فطُرِقَ الباب, نظرت هند ناحية قدوم الصَّوت, ثُمَّ سارت حَتَّى تفتح, وما هي إلا ثوانٍ وسُمِعَ صوت صراخها عالياً, فهرع أمجد ابن خالتها مِن خلف حُسين زوجها إلى الصَّالة, فوجداها رازحةً على أرضيَّة الصَّالة, وبجانبها زُهْريَّة مِنَ الفُخَّار الصِّينيّ, مُحطمة إلى شظايا ومُتناثر حولها, فهَمَّ حُسين زوجها مُسرعاً نحوها, إلا أن صوت الطَّرق العنيف على باب الشَّقَّة قد زاد, فسار أمجد حَتَّى يفتح الباب, فتحه ووقف مصدوماً, يبلع ريقه بغُصَّة, عندما رأى رجب الصَّامت واقفاً أمام باب الشَّقَّة ومِنْ خلفه ياسمين.

تَمَّتْ بِحَمْدِ الله...

للتواصل مع المُؤلِّف:

البريد الإلكترونيّ: basem.e9896@yahoo.com

حِسَاب الفيس بوك: Basem Elshayb

https://www.facebook.com/basem.ali.5268

حملتها وَهناً, ووضعتها كُرهاً, بعد تضرُّعَات وصلاوات طِيلة الأشهر التِّسع, وضعتها هناء أنثى, وليستْ الأنثى في منزل عُرابي كالذكر, ما أن بُشِّر عُرابي بالأنثى, اِسودَّ وجهه, لكنه لم يكْ كَظِيم. صاحِ في هناء والمولودة لا تزال على يديّ القابلة: "هذه سوئتُكِ وحدكِ, أنا لا أنجب إناث, هذه سوئتُكِ كشفها الله", ثُمَّ نظر إلى المولودة على يديّ القابلة بمزيجاً مِنَ الخوف والقيظ هامساً: "مَلْعُونَةٌ". وخرج مِنْ باب الغرفة المُظلمة

المؤلف

دار روفيدة للنشر الإلكتروني